جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

الأدب والنصوص (١)
(الجاهلي وصدر الإسلام)

LARB2113

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011

المحتويات

الـــــــدرس الأول :	الأدب في العصر الجاهلي	٧-٢٤
الـــدرس الثـــاني :	مصادر الأدب الجاهلي، وتوثيقها	٢٥-٤٤
الـــدرس الثالـــث :	الظواهر الفنية للشعر الجاهلي	٤٥-٦١
الـــدرس الرابـــع :	قضايا الأدب الجاهلي	٦٣-٨١
الـــدرس الخـــامس :	نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من معلَّقة طرفة بن العبد	٨٣-١٠٠
الـــدرس الـــسادس :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من معلقة عنترة بن شداد	١٠١-١١٦
الـــدرس الـــسابع :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من معلقة زهير بن أبي سلمى	١١٧-١٣٢
الـــدرس الثـــامن :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من معلقة عمرو بن كلثوم	١٣٣-١٤٨
الـــدرس التاســـع :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من معلَّقتَيْ لبيد والنابغة الذبياني	١٤٩-١٦٥
الـــدرس العاشـــر :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من قافية الأعشى، وبائية بشر بن أبي خازم الأسدي	١٦٧-١٨٥
الدرس الحـادي عـشر :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة: مختارات من نونية المثقب العبدي، ودالية عمرو بن معدي كرب	١٨٧-٢٠٥

الدرس الثاني عشر :	تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة، مختارات من دالية دريد بن الصمة الجشمي، ولامية العرب للشنفرى	٢٠٧-٢٢٤
الدرس الثالث عشر :	النثر الجاهلي: أنواعه وموضوعاته	٢٢٥-٢٣٩
الدرس الرابع عشر :	تابع النثر الجاهلي: تحليل ودراسة نصوص منه	٢٤١-٢٥٦
الدرس الخامس عشر :	الأدب في عصر صدر الإسلام، والعصر الأموي: (ملامح التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي)	٢٥٧-٢٧٣
الدرس السادس عشر :	تابع الأدب في عصر صدر الإسلام وفي العصر الأموي: (الإسلام والشعر، وشعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه)	٢٧٥-٢٩٢
الدرس السابع عشر :	الخصائص الموضوعية والفنية لشعر صدر الإسلام	٢٩٣-٣١٠
الدرس الثامن عشر :	النثر في عصر صدر الإسلام	٣١١-٣٢٧
الدرس التاسع عشر :	الشعر في العصر الأموي: (موضوعاته، وفنونه)	٣٢٩-٣٤٦
الدرس العشرون :	تابع الشعر في العصر الأموي: (أعلام الشعراء الأمويِّين، شعْر الفِرَق السياسية)	٣٤٧-٣٦٥
الدرس الحادي والعشرون :	النثر في العصر الأموي	٣٦٧-٣٨٣
قائمة المراجع العامة :		٣٨٥-٣٩٠

الأدب في العصر الجاهلي

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول	: تاريخ العرب الأدبي والفني قبل الإسلام	٩
العنــصر الثـــاني	: مفهوم الجاهلية	١٠
العنــصر الثالــث	: مفهوم الأدب والشعر عند العرب قبل الإسلام	١٨
العنــصر الرابــع	: أهمية الأدب والشعر عند العرب قبل الإسلام	٢١

تاريخ العرب الأدبي والفني قبل الإسلام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين. من الضروري لتتضح معالم هذه المادة أن نلقي الضوء على هذه الكلمات: الأدب - العربي - العصر الجاهلي؛ فنقول -وبالله التوفيق:

"الأدب" لغةً:

تدل كلمة "الأدب" في لغة العرب على عدة معانٍ:

- منها: الدعوة إلى الطعام.

- ومنها الخُلقُ والسلوك، فيقال: أدب الطريق، وأدب طلب العلم، وأدب الطعام، وهكذا.

"الأدب" اصطلاحًا:

لكن هذه المعاني اللغوية تطورت؛ لتدل كلمة الأدب فيما بعد على الكلام البليغ المؤثر الذي يعبر به قائله عن مشاعره، ويصور به موقفه من الحياة، كما يصور به مشاهد الطبيعة، ومظاهر الكون. ولا بد أن يكون هذا الكلام بأسلوبٍ خاصٍّ يؤثر في قارئه وفي سامعه. والأدب ينقسم إلى نوعين، هما: النثر، والشعر.

فإذا كان التعبير الجميل الذي يصور العواطف والمشاعر، ويصف الحياة، مرسلًا، غيرَ مقيد بنظام موسيقي أو نظام إيقاعي معين؛ فهو النثر.

وإذا كان هذا الكلام الجميل المؤثر ملتزمًا بنظامٍ إيقاعي معين فهو الشعر. وأساس هذا النظام الإيقاعي في شعر العرب هو: الوزن والقافية.

وإذا أطلقت كلمة "الأدب" فإن الذهن ينصرف إلى المعنى الاصطلاحي الذي تدل عليه هذه الكلمة -أعني: الكلام الجميل المؤثر الذي يصور به الأديب مشاعره وأفكاره، ويصف به الحياة، ومظاهر الكون- فالأدب الذي نقصده هو: كلام العرب الذي أُثِرَ عنهم الذي يصور الحياة، ويصور الطبيعة، ويُعبر عن أنفس قائليه، ويصور مشاعرهم وعواطفهم بأسلوبٍ جميلٍ يؤثر في قارئه أو سامعه.

أما "العرب": فتدل كلمة "العرب" على الأمة التي كانت تعيش في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا في الزمن القديم، وهذا الجزء يُطلق عليه شبه الجزيرة العربية؛ وسمي كذلك لأن مياه البحر الأحمر والخليج العربي تحيط به من ثلاث جهات، وهذا الجزء يشمل الآن عدة دول في العالم الحديث: هي اليمن، والمملكة العربية السعودية، والإمارات، وعمان، وقطر، والبحرين، والكويت.

مفهوم الجاهلية

ما المراد بالعصر الجاهلي؟

العصر هو: المدة الزمنية. وكل عصر من العصور الأدبية له بداية وله نهاية، والأحداث الكبرى في تاريخ الأمم هي التي يتخذها المؤرخون علامات لبداية العصور وانتهائها.

والعصر الجاهلي نهايته محدودة بظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وبَعثة النبي محمد ﷺ والرواية لم تسعفنا بأخبارٍ يمكن الاطمئنان إليها، وأدبٍ يمكن الاعتداد به، إلا في مدة زمنية لا تتجاوز مائة وخمسين عامًا أو مائتين على الأكثر قبل ظهور الإسلام؛ إذًا العصر الجاهلي هو العصر السابق على ظهور الإسلام.

وقد سُمِّي هذا العصر جاهليًّا نسبةً إلى الجهل ؛ بمعنى : عدم المعرفة والعلم ، أو الجهل بمعنى : السفه والطيش ، والذي ضده الحلم ؛ فحياة العرب قبل الإسلام من الناحية العقدية والخُلقية والعلمية والمعرفية كانت تشوبها نقائص كثيرة ، وتسودها مساوئ عديدة ؛ من أجل ذلك سُميت هذه الفترة السابقة على ظهور الإسلام في زمن العرب بالعصر الجاهلي.

وسأحدثك الآن عن هذه الحياة الجاهلية التي كان العرب يعيشونها قبل أن يشرق على الدنيا نور الإسلام :

إلى أن ظهر الإسلام كانت عبادة الأصنام عملًا سائدًا عند العرب ، كما كان شرب الخمر سلوكًا شائعًا فيهم ، وكان الميسر والقمار فعلًا منتشرًا عندهم ، وكانت العصبية القبلية ، والتفاخر بالأنساب والأحساب ، والفساد الاجتماعي ، هي الملامح العامة لحياتهم ، وما جاء الإسلام إلا ليصحح تلك المفاهيم ، ويصلح من شأن هذه الحياة.

نعم ، جاء الإسلام ليرد فطرة العرب إلى الطريق الصحيح في العقيدة ؛ فأمرهم بعبادة اللهِ وحده ؛ وليهذب أخلاقهم وسلوكهم ؛ فأمرهم بالتسامح والتعاون ، والعدل والمساواة ، وحرم عليهم الظلم والبغي والعدوان ، ولينقي حياتهم من الخبائث والدنس ؛ فحرم عليهم الزنا والخمر والميسر ، وقول الزور ، وليرتقي بهم ليكونوا خير أمة تحمل خير أمانة ؛ فشرع لهم نظم الحكم ، وبَيَّنَ لهم أسسَ التعامل ، وأرسى فيهم قواعد المجتمع الفاضل.

وتُعَدُّ آيات القرآن الكريم التي تنهى العرب عن المساوئ التي كانت شائعة بينهم ، وتحسهم على الإقلاع عن الأعمال الفاسدة التي كانت تحكم حياتهم أصدق وثيقة تاريخية تدل على حياة العرب قبل الإسلام.

ولا يُفْهم من هذا القول أن الإسلام رفض كلَّ شيءٍ في حياة العرب ؛ إن الإسلام أقرَّهُم على ما كان عندهم من بعض الفضائل كإكرام الضيف، ونصرة المظلوم وغير ذلك.

ولقد أصاب الدكتور طه حسين نصف الحقيقة في قوله : "إن القرآن أصدقُ مرآة للحياة الجاهلية". أما النصف الآخر للحقيقة : فهو ما أنكره الدكتور طه حسين ؛ إذ ذهب إلى أن الشعر الجاهلي لا يصور هذه الحياة.

والحق أن من يريد الاستدلال على الحياة الجاهلية وما كان يسودها من قيمٍ، ويشيع من سلوك ؛ عليه أن يلتمس ذلك في القرآن الكريم، وفي ما صح من الشعر الجاهلي، والأدب العربي بصفة عامة، وعليه كذلك أن يحسن استنباط الدلالة من كلٍّ منهما ؛ ليتعرف على حقيقة حياة العرب قبل الإسلام بعيدًا عن الإفراط في عيبهم، وسلبهم كل مَكْرُمَةٍ، وبمنأى كذلك عن المبالغة في الإشادة بهم، ودفع كل مذمة عنهم.

الحقيقة أننا نجد نمطين من الباحثين الذين يتناولون حياة العرب قبل الإسلام :

النمط الأول : نجد مَن يُثبت للعرب كل شيء جميل، ويرتفع بهم من ناحية الأخلاق والقيم والسلوك ؛ نظرًا لما عرف عن العرب من حماية الجار، وكرم الضيف، والمروءة... وغير ذلك.

النمط الثاني : ومنهم مَن ينزل بالعرب إلى درجةٍ منحطةٍ فينفي عنهم كل مَكْرُمَةٍ، ويثبت لهم كل فعل دنيء.

والتوسط بين الأمرين هو الحق ؛ فالعرب مَثلهم مثل كل أمة، فيهم الأوفياء والفضلاء الذين يحرصون على المروءة، ويحرصون على الخلق الكريم ؛ فيغيثون

الملهوف، ويعينون ذا الحاجة وينصرون الضعيف، وفيهم أيضًا الأخساء الأنذال الذين لم يكونوا يلوون على فضيلة، ولا يستمسكون بخُلقٍ كريمٍ.

لكن الحكم على الأمم ينبغي أن يُنْظَرَ فيه إلى الشائع والغالب عليهم، والذي يتأمل في آيات القرآن الكريم، ويتأمل فيما روي عن العرب من أشعار وأخبار؛ يدرك أن بداوةَ العربِ في العصر الجاهلي أَدَّتْ بِهِم إلى تناقض شديد في الطبائع والسلوك، فالكريم منهم يبلغ كرمه حدَّ الإسراف ويجاوزه، والعاقل فيهم حكيم، وذو المروءة يجود بنفسه من أجل غيره.

كما يجد أن البخيل فيهم يستعبده المال، والجاهل يبلغ به الحمق مبلغه، كما يجد أن اللئيم مشتط في سوء خُلقه، ولله دَرُّ ابن خلدون إذ يقول: "إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئةً لقبول ما يَرِدُ عليها، وينطبع فيها من خير أو شر. قال ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)) وبقدر ما سبق إليها من أحد الخُلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير، وحصلت لها ملكته بَعُدَ عن الشر وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه عوائده". انتهى كلامه.

نعم، بلغ التناقض في سلوك العرب الجاهليين وأخلاقهم حدًّا بعيدًا حتى إن الباحثين الذين يرصدون أخلاقهم يتحدثون عن كرمهم، ويتحدثون عن بخلهم، ويتحدثون عن الشجاعة والصبر، وعن الجبن والفزع، وعن الحلم، وعن البطش، وسرعة الانفعال، ويتحدثون عن الوفاء والأمانة ويصفون بعضهم بالغدر، ونقض العهد والظلم، كما كان فيهم من يحب الحرية، ويتمسك بها؛ ولهذا كثرت عندهم الحروب والغارات، وردُّ العدوانِ والثأر والانتقام، وعرفوا

بالحرص على حماية الجار، والدعوة إلى السلام في بعض الأحيان، والعفة والغَيْرَةِ على الشرف، والرغبة في الذكر الطيب.

وقد أدى هذا التناقض بين عرب الجاهلية في الأخلاق والسلوك إلى الاختلاف الشديد بين أحكام الدارسين على حياتهم، وما كان يسود تلك الحياة من سلوك، وما كان يحكمها من قيمٍ، ويشيع فيها من تقاليد.

ولقد كلفتهم هذه الحياة كثيرًا من النَّصَبِ، بل كلفتهم الغزير من الدماء؛ فقد كانوا لا يتحاكمون إلا إلى السيف، ولا يسرعون لتلبية نداء سرعتهم لإجابة نداء الحرب، ولقد كانوا في هذا كله مستجيبين لما فرضته عليهم حياتهم القبلية في بيئةٍ صحراويةٍ قاسيةٍ؛ الماء فيها قليل، والخير فيها نادر، وكانوا من أجل ذلك يرتحلون في أرجاء هذه الأرض الشاسعة الواسعة يبحثون عن العشب، ويبحثون عن الماء، ويحارب بعضهم بعضًا صراعًا من أجل السيطرة والحصول على الماء والعشب اللذين كانا عماد الحياة عندهم.

وبسبب الحروب كانت تعقد بينهم الأحلاف، وكانوا إذا حالفوا أو أجاروا أَعْطَوْا الحليفَ أو الجارَ براءةً بذلك في سهم مكتوب فيه: فلان جار فلان أو حليف فلان.

وقد بالغوا في حماية الجار، وعدُّوا ذلك غاية الشرف وذروة المروءة، ولقد رويت في ذلك عن العرب طرائف تبعث على الإعجاب أحيانًا، وتبعث على الاستخفاف أحيانًا؛ لخروجها على الحد المألوف والحد المقبول، من ذلك مثلًا:

ما روي من أن مدلج بن سويد الطائي خلا يومًا في خيمته؛ فإذا هو بقوم من طيئ معهم أوعيتهم، فقال: ما خطبكم؟ قالوا: جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه، فركب فرسه، وأخذ رمحه، وقال: والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته؛ إنكم

رأيتموه في جواري ثم تريدون أخذه. فلم يزل يحرسه حتى حميت الشمس وطار. فقال: شأنكم الآن فقد تحول عن جواري وضربوا به المثل، فقالوا: أحمى من مجير الجراد.

إن هذا الرجل هَمَّ بقتال قومه من أجل جراد، ويبدو أن القوم كانوا جياعًا يطلبون الجراد ليسدوا به جوعهم، فمنعهم سويد من ذلك ليُضرب به المثل في حماية الجار شيء عجيب حقًا أن يكون دم الإنسان هينًا إلى هذا الحد. حتى إنه لا يمكن أن يسفك من أجل حماية جراد ساقته الريح إلى فناءِ رجلٍ ضربوا به المثل في المروءة وحماية الجار.

من أجل ذلك كان ابن خلدون محقًا في وصفه للعرب بأنهم كانوا أمة وحشية، استحكمت فيهم عوائد التوحش وأسبابه حتى صار لهم خُلُقًا وجِبِلَّةً، وكان عندهم ملذوذًا؛ لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة؛ فغاية الأحوال العادية كلها عندهم كانت الرحلة والتغلب؛ فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وإن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حدٌّ ينتهون إليه.

وكانوا يتنافسون في الرياسة، وقَلَّ أن يُسَلِّمَ أحد منهم الأمر لغيره حتى لو كان قريبًا له أو كبير عشيرته إلا في الأقل، وعلى كُرْهٍ من أجل الحياء.

هكذا معتقدات الجاهليين وعاداتهم ومعارفهم مستمدة من تلك الحياة، ونتاجًا لتلك البيئة القاسية الشحيحة، وقد كانت معتقداتهم لا تمثل أديانًا صحيحة، ومعارفهم لا تمثل علومًا ناضجة.

وقد يقول قائل: لقد عرفت جزيرة العرب بعض الحضارات، وشهدت أرضها دعوات رسل سابقين على سيدنا محمد ﷺ فمن الحضارات التي عرفتها حضارة

سبأ ومعين. ومن الرسل الذين سبقوا محمدًا ﷺ فيها: إبراهيم، وإسماعيل... وغيرهما من أنبياء الله ورسله -على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام- فلماذا -إذًا- كان العرب بهذه الصورة قبل الإسلام؟

نقول: هذا القول صحيح، لكن العهد كان قد طال بين عرب الجاهلية وهذه الدعوات، وبينهم وبين تلك الحضارات، فلم يبق في الجزيرة سوى آثار حضارة وبقايا أديان، حتى أشرق على الأرض في الجزيرة العربية نور الإسلام، كانت معتقداتهم في أكثرها أثرًا لعادات موروثة مع بقايا من الأديان السابقة، وأشتاتٍ من التقاليد التي أخذوها عن الأمم المجاورة لهم؛ بيد أن الوثنية كانت أقوى المعتقدات لديهم، وأكثرها شيوعًا بينهم.

وقد كان للعرب عادات شتى منها: عقر الإبل على القبور، ووطأ المقلاة التي لا يعيش لها ولد دمَ الشريف ليعيش ولدها، وكان من عاداتهم كَيُّ الجملِ السليمِ؛ ليصح الأجرب، وضرب الثور إذا عافت البقر، وتعليق التمائم لحفظ الأطفال من الحسد وغيره من الشرور، وأكثر عاداتهم لا يستند إلى تعليل مقبول.

وقد كان شرب الخمر من أكثر العادات شيوعًا بينهم، وكذلك كان الميسر، وكان من أبشع مساوئهم وأد البنات، وقد كان الوأد في أغلب الظن نتيجةً لحياة الحروب والمنازعات، ونتيجة لفقر البيئة التي كانوا يعيشون فيها؛ فقد كانوا يئدون بناتهم؛ خشية الأسر والسبي، وما كان يترتب عليه من العار والفضيحة.

فقد رووا أن المشمرخ اليشكري سبى من نساء بني سعد، وفيهن بنت قيس بن عاصم، فرحل قيس إليه، وسأله إياها، فخيرها، فاختارت عمرو بن المشمرخ، فانصرف قيس، ووأد كلَّ بنتٍ له، وجعل ذلك سُنَّةً في كل بنت تولد، واقتدى العرب به في ذلك.

وكان بين العرب مَن يعيب الوأد ولا يرضاه، وقد اشتهر صعصعة بن ناجية جد الفرزدق بإنقاذ البنات من الوأد، وسمي بذلك: محيي الموءودات؛ لأنه كان إذا رأى رجلًا يريد أن يقتل ابنته؛ خشية الفقر أنقذها منه، وأعطاه ما يعينه على حياته من الإبل أو غيرها، ويدل ذلك على أن الفقر أو خشيته كان من أسباب وأد البنات أيضًا؛ نظرًا لشح البيئة وجدبها.

ولقد أبطل القرآن الكريم تلك العلة وراء هذا الفعل الشنيع في معرض نهيه العربَ عنه؛ مذكرًا إياهم بأن الرزق قد ضمنه الله ﷻ فهو الرازق للآباء والأبناء جميعًا، قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أي: خشية فقر ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣١].

أما معارف الجاهليين: فقد كانت أشتاتًا من الخبرات التي قضت عليهم ظروف حياتهم وبيئتهم الإلمام بها، وقد كانت هذه المعارف متمثلةً في خبرتهم بالسماء والنجوم والأفلاك؛ لارتباط ذلك بالمطر، وكان المطر أساس الحياة عندهم، وكان من معارفهم البيطرة، وهي تطبيب الدواب، خاصة الخيل والإبل؛ لما كان لهما من أثر كبير في حياتهم زمن الحرب وزمن السلم على السواء.

وعني العرب كذلك بمعرفة الأنساب والتاريخ؛ لمكانة العصبية القبلية عندهم، ولحاجتهم إلى معرفة الأنساب عند المناصرة والمفاخرة والمنافرة، كما كانوا يعنون بالقيافة، والعيافة، والكهانة.

فالقيافة هي : محاولة الاستهداء بآثار الأقدام إلى أصحابها، أو الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه.

والعيافة : أصلها الاستدلال بأسماء الطيور، ومواقع سقوطها، واتجاه طيرانها على اليُمْنِ أو الشُّؤْمِ.

والكهانة : كانت محاولةً للتنبؤ بالغيب وممارسة للطب الروحي.

كما كانوا على قدرٍ كبيرٍ من المعرفة بشئون الحرب، وأمور الصيد.

مفهوم الأدب والشعر عند العرب قبل الإسلام

لا جدال في أن أعظم معارف العرب كان متمثلًا في إجادتهم لفنون القول، ومعرفتهم للأشعار والأخبار، وإجادتهم للبلاغة والبيان؛ فقد كانوا مفطورين على البيان والإعراب عما في النفس بكلام بليغ مؤثر؛ ولذلك تحداهم القرآن الكريم أن يأتوا بسورة من مثله، وكانت معجزة سيدنا محمد ﷺ هي القرآن الكريم؛ لأنهم يعجَزون عن مجاراته في بلاغته، وعلو فصاحته.

نعم، لقد شهد العصر الجاهلي حركةً أدبيةً رائجةً كانت لها عوامل ومظاهر، فلقد عني العرب بالشعر وتجويده وروايته وحفظه، كما تفننوا في الخطابة وجَوَّدُوهَا، وضمنوا شعرهم وخطبهم ووصاياهم وأمثالهم علمًا كثيرًا وحكمة.

ومن أبرز مظاهر الحياة الأدبية عند العرب في الجاهلية : عنايتهم بالأدب في أسواقهم ومجالسهم، وعظم تأثير البيت من الشعر أو الكلمة البليغة أو الخطبة المؤثرة في نفس الواحد منهم، وكثرة الشعراء والخطباء فيهم كثرةً مفرطةً حتى قال ابن سلام : "إنه لا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب".

وقال ابن قتيبة : "والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف أو من وراء عددهم واقف ، ولو أنفد عمره في التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحدًا من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها".

وقال الجاحظ : "إن الكلام لَمَّا كان سهلًا على العرب ، وكان كل واحد في نفسه أنطق ، ومكانه من البيان أرفع ؛ لم يحتج أحدهم إلى تَحَفُّظِ كلام غيره".

فهذه الأقوال وغيرها تدل على كثرة الشعر والشعراء في العرب ، واكتمال قدرتهم على البيان ، والعبارة عما في النفس.

مظاهر قوة الحياة الأدبية وازدهارها عند الجاهليين :

١. كثرة الشعراء فيهم ، وكثرة الشعر الذي أبدعوه.
٢. جودة ما بقي لنا من هذا الشعر ، وما بقي لنا من خطبهم ووصاياهم ، وعلو منزلته في البلاغة والبيان.
٣. عظم تأثير البيت من الشعر أو الجملة من النثر أو الخطبة في نفس الواحد منهم ؛ لقد كان البيت من الشعر أحيانًا يرفع قوم ويضع آخرين.
٤. عنايتهم بالأدب في أسواقهم ومجالسهم.

عوامل ازدهار الأدب في العصر الجاهلي :

١. طبيعة النفس البشرية العربية التي طبعها الله ﷻ على البيان وجعلها مهيئة لاستقبال أشرف كلام ، وهو القرآن الكريم.

٢. ثم طبيعة اللغة العربية التي جعلها الله ﷻ أقدر اللغات على الإبانة عن سرائر النفس، وخفايا الضمائر، والتعامل مع الحياة في كل زمانٍ ومكانٍ.

٣. كذلك البيئة العربية: صحراؤها الممتدة، وأجواؤها المتنوعة، وما يطير في جوها من طير، وما يسرح فيها من حيوان كل ذلك جعل الأدب عند الجاهليين يزدهر.

٤. كما كانت الأسواق العربية التي يعقدونها في مواسم الحج؛ لتبادل المنافع والتعارف، والمنافرة والمفاخرة، كانت هذه الأسواق ميدانًا يَتَبَارَى فيه الشعراء والخطباء، يلقي كلٌّ منهم أجودَ ما عنده، ولقد تعددت أسواقهم، وذكر التاريخ أسماء كثيرٍ منها. منها: سوق دومة الجندل، ومنها سوق هجر، وسوق الرابية، وسوق صنعاء، وسوق المُشَقَّر، وسوق ذي المجاز، وسوق عكاظ، وقد كان هذا الأخير أشهر أسواقهم وأعظمها ذكرًا.

وقد وردت أخبار كثيرة تدل على أن العرب اتخذوا من عكاظ في الجاهلية سوقًا أدبيًّا رائجًا، وأنهم كانوا يتناشدون فيه خير ما قالوا من الشعر في رحالهم وقبائلهم طوال العام؛ ومما يؤكد ذلك الروايات التي تواترت تَحكي أنهم كانوا يتحاكمون إلى أكبر شعرائهم في هذا السوق؛ ليحكم لبعضهم على بعض: أيهم أشعر؟ ذكروا أن العرب نصبوا للنابغة الذبياني خيمةً، وأتاه الشعراء ينشدون أمامه، فما استجاد من الشعر فهو الجيد المقبول، وما رده فهو المعيب المطروح، وكان ممن أنشده: الأعشى، وحسان بن ثابت، ولبيد بن ربيعة، وقيس بن الخطيم، والخنساء.

٥. المجالس والأندية: والمجالس والأندية شيء غير الأسواق. الأسواق منديات عامة يأتي إليها الشعراء والخطباء من شتى القبائل، أما المجالس والأندية: فقد كانت مجالسَ وأنديةً خاصةً بكلِّ قبيلةٍ، فلكلِّ قبيلة نادٍ يجتمع فيه وجهاؤها وكبراؤها؛ يناقشون فيه أمر القبيلة، ويتناشدون الأشعار، ويتبادلون الأخبار. والذي يشهد هذا النادي يعد ذلك من مناقبه ومفاخره عندهم.

هذه العوامل كلُّها أدت إلى ازدهار الحياة الأدبية عند الجاهليين.

- كما كان للخصومات والمنافرات أثرها في ازدهار الأدب؛ لأنهم كانوا يُعدون البيان والشعر من أهم ما يتفاخرون به. ومن أهم ما يُذْكَرُ للواحد منهم في مجال التفاخر على غيره من الناس، وكانت القبيلة إذا نبغ فيها شاعر احتفلت به لأهمية الشعر عندهم.

أهمية الأدب والشعر عند العرب قبل الإسلام

لقد كان للشعر في الجاهلية المكان الأسمى والمنزلة الأسنى؛ فهو لسان الدفاع عن القبائل والنيل من الأعداء، وهو السجل الحافل بالأخلاق، وهو ديوان العرب وسجل حياتهم ومآثرهم.

ولمكانة الشعر عند العرب وحاجتهم إليه كانوا -كما ذكرت- يحتفلون إذا نبغ فيهم شاعر، ويقيمون الحفلات، ويذبحون الذبائح؛ لأن هذا الشاعر هو اللسان المدافع عن قبيلته، المذيع لمآثرها، المدافع عن حرمتها، الذي يرد على أعدائها، والذي يرثي قتلاها، ويشيد بانتصاراتها. وكان الشعر مرآةً صادقةً لحياةِ الأمةِ التي أبدعت هذا الشعر.

ولقد نال الشعر عندهم حظوةً ومكانةً عاليةً، وكان له النصيب الأوفى من تقديرهم واهتمامهم. وكان الشاعر عندهم صاحب المقام الأعلى في إثارة الحروب، أو إطفاء الفتن والدعوة إلى الصلح، وقد كانوا يتجاوبون مع الشعر، ويتأثرون به تأثرًا كبيرًا.

وقد كان الشعر يسير فيهم مسير الشمس في الكون ما إن يستجيدون قصيدةً حتى يرويها بعضهم لبعض، وحتى تنتقل هذه القبيلة بين القبائل، ومن هنا رفع الشعر أقوامًا وحط من شأن آخرين.

فلقد رووا مثلًا: أن المحلِّقَ الكلابي كان رجلًا فقيرًا خامل الذكر، عنده بنات لم يتزوجن، مَرَّ عليه شاعر فأكرمه الرجل، وأحسن وفادته، فمدحه بقصيدة سارت في القبائل حتى إنه لم يمض وقت طويل حتى علا شأن هذا الرجل، وجاءه كرام القوم يخطبون بناته. هذه الأبيات يقول فيها الشاعر:

لَعَمري لَقَد لاحَت عُيونٌ كَثيرَةٌ ❖ إِلى ضَوءِ نارٍ في يَفاعٍ تُحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقرورَينِ يَصطَلِيانِها ❖ وَباتَ عَلى النارِ النَدى وَالمُحَلَّقُ
تَرى الجودَ يَجري ظاهِرًا فَوقَ وَجهِهِ ❖ كَما زانَ مَتنَ الهِندُوانِيِّ رَونَقُ

فالشاعر يصف هذا الرجل بالكرم، وأنه يشب ناره من أجل ضيفانه.

ولما هجا حسان بن ثابت قومًا كانوا طوال الأجسام، بقوله:

لا بَأسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طُولٍ ومِنْ غِلَظ ❖ جِسْمُ الْبِغَالِ وأَحْلامُ الْعَصَافِيرِ

عيَّرهم الناس بذلك، وكان قوم يُسَمَّوْنَ بني أنف الناقة، يتوارون ويتخاذلون من هذا الاسم، وظلوا كذلك إلى أن نزل بهم الحطيئة الشاعر فأكرموه، فقال فيهم:

قَومٌ هُمُ الأَنفُ وَالأَذنابُ غَيرُهُمُ ❖ وَمَن يُسَوّي بِأَنفِ النَاقَةِ الذَنَبا

فصاروا بعد ذلك يتفاخرون على العرب، ويتطاولون بهذا الاسم.

على هذا النحو كان الشعر الجاهلي وكان الأدب الجاهلي مصورًا لحياة العرب قبل الإسلام، وسجلًّا لمآثرهم وأمجادهم وأيامهم وحروبهم، وشاهدًا كذلك على ما كان في هذه الحياة من مثالب ومساوئ شاعت بينهم، حتى جاء الإسلام فاستنقذهم منها بفضل الله.

أرأيت كيف كان الشعرُ يرفع الوضيع ويضع الشريف، ظلت هذه مكانة الشعر والشعراء إلى أن كثر الشعر، واتخذه بعض الشعراء وسيلةً للتكسب، ومدحوا به الأغنياء لينالوا مالهم، فنزلت مرتبة الشعر والشاعر، وعَلَتْ فوقها منزلة الخطابة والخطيب، ولقد حفظ التاريخ الأدبي للعرب أسماءَ شعراءَ كثيرين نذكر منهم:

امرأ القيس، والأفوه الأودي، وحاتم الطائي، والمهلهل، والمرقش الأكبر، والمرقش الأصغر، وطرفة بن العبد، والحارث بن حلزة، والمتلمس، والأعشى، وعمرو بن كلثوم، والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى، وعنترة بن شداد، ولبيد بن ربيعة، والنابغة الجعدي، والشماخ بن ضرار، وأوس بن حجر... وكل هؤلاء كانوا شعراء كبارًا، رويت لهم قصائد بارعة تعد آية في البلاغة والفصاحة.

ومن المؤكد مع ذلك أن الذي ضاع من الشعر الجاهلي أكثر من الذي وصل إلينا بكثير؛ لأن طريقة حفظ هذا الشعر كانت تعتمد على الرواية والحفظ، ولم تكن تعتمد على الكتابة والتدوين، ظل العرب في الجاهلية يحفظون أشعارهم

وخطبهم، ويتوارثونها جيلًا بعد جيل إلى أن جاء الإسلام، ونزل القرآن، وتعلم العرب بعد ذلك القراءة والكتابة، وذهب عنهم وصف الأمية الذي وُصفوا به قبل الإسلام، ولما بدأ عهد التدوين قُيِّدَتْ وكتبت أشعار الجاهليين وأخبارهم وخطبهم.

ولقد كان هذا الشعر الجاهلي يتناول الحياة العربية من شتى وجوهها، ومن هنا تنوعت أغراضه؛ فكانت في: الغزل، والمديح، والوصف، والرثاء، والهجاء، والفخر، والحكمة، هكذا قالوا الشعر في جميع مناحي الحياة وفي شتى الأغراض.

ولعلك بعد هذا قد عرفت تاريخ العرب الأدبي والفني قبل الإسلام، ووقفت على مفهوم الجاهلية، وعلى أهمية الشعر والأدب عندهم.

مصادر الأدب الجاهلي وتوثيقها

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : أوَّليَّة الشعر الجاهلي ٢٧

العنــصر الثـــاني : "المعلقات"، وسبب تسميتها ٢٩

العنــصر الثـالـث : "المفضليات"، و"الأصمعيات"، ومجموعات أخرى ٣٥

العنــصر الرابــع : دواوين الشعراء، ودواوين القبائل ٣٨

أوليــــة الـــــشعر الجـــــاهلي

المراد بـ"مصادر الأدب الجاهلي": مظانه التي استقر فيها بعد أن قطع رحلته الطويلة مع الرواية الشفهية والحفظ على ألسن الرواة حتى كتب وقيد بالكتابة في عصر التدوين، وهذه المظان هي المرجع الذي يلجأ إليه كل باحث يريد التعرف على هذا الأدب أو يريد الاطلاع عليه.

والحقيقة أن الشعر عُني به من قِبل الرواة والمدونين عنايةً خاصةً فاقت عنايتهم بالنثر؛ ومن هنا: فإن الحديث عن مصادر الأدب الجاهلي سيتركز على مصادر الشعر، والنثر يأتي تبعًا للشعر، ما روي منه وما قُيِّدَ ودُوِّنَ.

إننا نلاحظ أن القصيدة الجاهلية التي وصلتنا عن طريق الرواية بلغت حدًّا كبيرًا من النضج والاكتمال، وتبلورت فيها عدة خصائص تجعلها نموذجا للفن الراقي والإبداع الأصيل.

وقبل أن نتحدث عن هذه الخصائص لا بد أن نشير إلى أنه من البدهي أن هذه الصورة المكتملة للقصيدة العربية، لا يمكن أن يكون الشعر الجاهلي قد بلغها طفرة دون مراحل سابقة مر بها هذا الشعر.

نعم، إن طبيعة الأشياء تحتم أن يكون الشعر الجاهلي بدأ طفلًا، ثم شبَّ وترعرع حتى بلغ أوج نضجه في هذه النماذج التي رويت لامرئ القيس، وزهير، والنابغة، ولبيد... وغيرهم، فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الشعراء هم الجيل الأول في مسيرة هذا الشعر.

والحق أننا نجد هؤلاء الشعراء -أنفسهم- يصرحون بأنهم في مجال الشعر مسبوقون تابعون، فهذا امرؤ القيس -مثلًا- يقول:

عوجا على الطلل المحيل لأننا ❖ نبكي الديار كما بكى ابن خزام

فابن خزام إذن شاعر قديم يتبعه امرؤ القيس، ويبكي الديار كما بكى؛ فهو إذًا أستاذه.

وهذا زهير يقول:

ما أرانا نقول إلا معارًا ❖ أو معادًا من لفظنا مكرورًا

فزهير يشعر أنه يكرر كلام السابقين عليه.

وهذا عنترة بن شداد يبدأ معلقته بقوله:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ من متردِّمِ ❖ ....

والاستفهام في قوله دالٌّ على النفي، والمعنى: لم يغادر الشعراء السابقون لنا شيئًا ولم يتركوا ما نضيفه في مجال الشعر.

إذًا هناك أجيال من الشعراء سبقت من نعرفهم، وهناك مراحل مر بها الشعر الجاهلي قبل مرحلة المعلّقات؛ لكن هذه المراحل وتلك الأجيال غامضة الملامح، والروايات التي تتجاوز امرأ القيس ومعاصريه لا تدل على شيء ذي بال؛ فهم يذكرون -مثلًا- أن المهلهل بن ربيعة هو أول من قصّد القصيد، وأنه سُمي مهلهلًا؛ لأنه هلهل الشعر ورققه، لكنهم لم يذكروا من الذي علّم مهلهلًا الشعر، ولا كيف ترقّى هذا الفن في مراحله السابقة على المهلهل.

وعلى أي حال، فهذا المبحثُ عسير المسلك، غامض الملامح، قليل النتائج، فهل سيكشف المستقبل عن المراحل التي مرّ بها الشعر الجاهلي قبل بلوغه مرحلة الاكتمال؛ علم ذلك عند الله.

"المعلقات" وسبب تسميتها

أهم مصادر الشعر الجاهلي تتمثل فيما يلي:

أولًا: المعلقات:

وتطلق كلمة "المعلقات" على مجموعةٍ من القصائد الجيدة التي اشتهرت بالبراعة والإتقان. والمشهور: أنها سبعٌ، وقد ذكروا أن الجاهليين أُعجبوا بهذه القصائد؛ ولفرط إعجابهم بها اختاروها وكتبوها بماء الذهب على قِطَعٍ من الجلد أو غيره، وعلقوها على أستار الكعبة، ذكر ذلك ابن رشيق القيرواني، وذكره ابن خلدون، وعبد القادر البغدادي.

وذهب بعض القدماء إلى أن هذا الأمر لا يصح، وأن الجاهليين لم يكتبوا هذه القصائد ولم يعلقوها على الكعبة، وإنما الذي اختار هذه القصائد هو حماد الراوية المتوفى سنة مائة وخمس وثمانين من الهجرة.

فبين القدماء إذًا اختلاف في سبب تسمية هذه القصائد بالمعلقات؛ منهم مَن يذكر أنها سميت بذلك لأن الجاهليين علقوها على أستار الكعبة، ومنهم مَن ينفي ذلك، ويكون سبب تسميتها بالمعلقات أنها لجودتها ونفاستها علقت بأذهان الرواة؛ فرووها ونبهوا على منزلتها.

أيًّا كان الأمر فالمعلقاتُ مجموعةٌ من القصائد الجيدة التي احتفظت بها الرواية عن الجاهليين، ودوِّنت في عصر التدوين، وعني بشرحها الشراح، ولا تزال إلى يومنا هذا محط أنظار الباحثين والدارسين.

وأصحاب المعلقات هم أشهر شعراء العصر الجاهلي، وإليك بيانًا بأسماء هؤلاء الشعراء، وتعريفًا بهم، وتعريفًا بمعلقاتهم:

امرؤ القيس:

واسمه حُنْدج بن الحارث بن عمرو بن حُجر آكل المرار. وامرؤ القيس لقبٌ له، ومن ألقابه أيضًا: الملك الضِّلِّيْلُ، وذو القروح، وآباؤه من كندة، وكانوا ملوكًا في الجاهلية، وأمه فاطمة أخت كليب ومهلهل ابني ربيعة، تُوِّجَ أبوه ملكًا على بني أسد وغطفان، ثم انقلبوا عليه فقتلوه، وتنقسم حياة امرئ القيس إلى شطرين:

الأول: عاشه لاهيًا ماجنًا يشرب الخمر ويغازل النساء، ويخرج للصيد ويتغنى بالشعر، ولا يلوي على شيء، ولا يهتم بملك أبيه، وظل كذلك إلى أن أتاه خبر قتل أبيه فاستقبل شطرًا آخر من حياته إذ ترك اللهو والمجون، وانشغل بأخذ ثأر أبيه، والإعداد الحرب لمن قتلوه، واسترداد ملكه المسلوب، ولكنه قتل قبل أن يحقق شيئًا من ذلك.

ويذكر المؤرخون: أنه لما جاءه خبر قتل أخيه كان مشغولًا بالخمر، فقال: "اليوم خمر وغدًا أمر، لا صحو اليوم ولا سكر غدًا". أما معلقته فتبدأ بقوله:

قِفا نَبكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ وَمَنزِلِ ❖ بِسِقطِ اللِوى بَينَ الدَخولِ فَحَومَلِ

وتشتمل المعلقة على عدة أغراض؛ إذ تبدأ بالوقوف على الأطلال، ثم تنتقل إلى الغزل، ووصف مغامرات الشاعر في تتبع النساء واللهو معهن، ويخاطب إحداهن في القصيدة فيقول:

أَفاطِمَ مَهلًا بَعضَ هَذا التَدَلُّلِ ❖ وَإِن كُنتِ قَد أَزمَعتِ صَرمي فَأَجمِلي

أَغَرَّكِ مِنّي أَنَّ حُبَّكِ قاتِلي ❖ وَأَنَّكِ مَهما تَأمُري القَلبَ يَفعَلِ

وفي غزله وصف جمال النساء وصفًا تفصيليًّا بارعًا.

كما اشتملت المعلقة أيضًا على وصف الليل، وأبياته فيه مشهورة:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أرخى سُدولَهُ ❖ عَلَيَّ بأنواعِ الهُمومِ لِيَبتَلي
فَقُلتُ لَهُ لَمّا تَمَطّى بِصُلبِهِ ❖ وَأَردَفَ أعجازًا وَناءَ بِكَلكَلِ
ألا أيُّها اللَيلُ الطَويلُ ألا انجَلي ❖ بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ

كما وصف فيها الفرس، ووصف رحلة صيد، ووصف البرق، ووصف السيل.

طرفة بن العبد:

واسمه عمرو بن العبد بن سفيان البكري، وطرفة لقبٌ غلب عليه؛ لقوله:

لا تعجلا بالبكاءِ اليوم مُطَّرِفَا ❖ ولا أميريكما بالدارِ إذ وَقَفَا

نشأ طرفة في حسبٍ كريمٍ، وبيت عُرِفَ بالشعر، فخاله المتلمس شاعرٌ مشهور، وأخته الخِرْنق شاعرة أيضًا. وقد قال طرفة الشعر وهو صغير. وكان ذا موهبة أصيلة نادرة. وهو من أفضل من وصف الناقة من شعراء الجاهلية، وكان لثقته في نفسه وجرأته في الشعر مدخل في قتله؛ فقد هجا الملك عمرو بن هند ملك الحيرة من المناذرة، فاحتال عليه الملك وقتله، وهو ابن بضع وعشرين سنة. ومطلع معلقته:

لِخَولَةَ أطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ ❖ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وستكون لنا مع هذه المعلقة وقفة تفصيلية.

زهير بن أبي سُلمى:

هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح المازني، ثم المُزَني، روى الشعر وهو صغير عن خاله أوس بن حجر، وكان زهيرٌ من بيت عريق في الشعر؛ فخاله

أوس شاعر، وكان أبوه كذلك شاعرًا، وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان، واتصل نسب الشعر في ولده فابناه كعب وبجير شاعران مشهوران، وحفيده عقبة بن كعب شاعر كذلك.

وعُرف زهير بأنه كان يعيد النظر في شعره كثيرًا، ويجوِّده، ولا يظهره للناس إلا بعد ما يثق في جودته وسلامته، ويمتاز زهير بأنه لا يتبع حوشيَّ الكلام، ولا يعقِّد في تعبيره، ولا يمدح الرجل إلى بما فيه، وعُرف زهير بإكثاره من شعر الحكمة.

ومعلقته تبدأ بقوله:

أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تَكلّمِ ❖ بحَوْمَانَةِ الدّرّاجِ فالمُتَثَلّمِ

وستكون لنا معها وقفة متأنية.

عنترة بن شداد:

أبوه عمرو بن شداد العبسي، كانت أمه أمة حبشية تسمى زبيبة وكان من عادة العرب أن يستعبدوا أبناءهم من الإماء، ولا يعترفون بنسبهم إلا إذا أثبتوا جدارتهم بالانتساب إليهم عن طريق شجاعتهم وإقدامهم في الحروب.

نشأ عنترة عبدًا يرعى الإبل والغنم ويحلبها، ويكون في خدمة قومه كما يكون العبيد؛ لكنه أراد أن ينتزع اعتراف قومه به فدرب نفسه على فنون الحرب، وأتقن فنون الفروسية، وأخذ نفسه بالتربية على الشجاعة والإقدام، ومعرفة الكر والفر، وكان متصفًا بكثير من العفة والنبل، وحدث أن أغار بعض قبائل العرب على بني عبس قبيلته؛ فدعاه أبوه إلى القتال قائلًا: "كُرَّ يا عنترة"، فرد عليه بقوله: "العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والسر" يعني: الخدمة. فقال أبوه: "كُر وأنت حر". وكان هذا أولَ اعترافٍ له بالحرية.

أحب عنترة ابنة عمه عبلة، وأكثر شعره يدور حول الحرب وحول الحب.

ويروى أن الرسول ﷺ قال: "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة".

أما معلقته فمطلعها:

هلْ غادرَ الشُّعراءُ من متردِّمِ ❖ أمْ هَل عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوهُّمِ

وفيها حديث عن شجاعته وإقدامه ووصف للحروب التي خاضها وحديثه كذلك عن عبلة محبوبته التي كان يحلم بها.

وستكون لنا مع هذه المعلقة وقفة متأنية.

عمرو بن كلثوم:

وهو شاعر فارس، اشتُهر بحادثة قتله الملك عمرو بن هند ملك الحيرة، وكان هذا الشاعر شديد الاعتزاز بنسبه ونفسه وشجاعته، ويروى في سبب قتله الملكَ عمرَو بنَ هندَ: أن الملك طلب من أمه أن تستضيف ليلى بنت المهلهل أم عمرو بن كلثوم، وأن تستخدمها في بعض شأنها، فلما حدث ذلك صاحت أم عمرو بن كلثوم: وا ذل الدهر، أو وا ذلاه. وكان ابنها جالسًا مع الملك ينادمه فقام إليه واستل سيفه وقتله، وقال في إثر ذلك معلقته التي مطلعها:

أَلاَ هُبّي بِصَحْنِكِ فَاصبَحِينا ❖ وَلاَ تُبقي خُمُورَ الأَندَرِينَا

وفيها فخر متطاول، كقوله:

إذا بَلَغَ الفِطَامَ لَنا رَضيعٌ ❖ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدِينَا

النابغة الذبياني :

وقد اشتهر النابغة بكثرة مدائحه للنعمان بن المنذر بن ماء السماء ؛ فقد كان يفد عليه كثيرًا ويمدحه ، وينال منه العطايا والهبات ، وحَدَثَ أن وشى الوشاة بينه وبين النعمان بن المنذر فتغير عليه ، فأخذ النابغة يرسل إليه بقصائده التي يعتذر له فيها ، واشتهر بإجادة فنِّ الاعتذار.

أما معلقته فمطلعها :

يا دارَ مَيَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ ❖ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأمدِ

لبيد بن ربيعة :

هو لبيد بن ربيعة العامري الشاعر المعمِّر ، امتد به أجله حتى أدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه.

فهو شاعر مخضرم عاش شطرًا من حياته في الجاهلية وشطرًا في الإسلام <

وإليه ينسب البيت الشهير:

أَلَا كُلُّ شيءٍ مَا خَلَا اللهُ بَاطِلُ ❖ وكُل نَعيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

ومعلقته مطلعها :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها ❖ بِمنىً تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُهَا

ومن الرواة من يضيف إلى هؤلاء السبعة : الحارث بن حلزة ، فيجعل أصحاب المعلقات ثمانية. ومنهم من يضيف إليهم : الأعشى ؛ فيصيرون تسعة ، ومنهم من يضيف إليهم : عبيد بن الأبرص الأسدي ، وهو شاعر جاهلي قديم ، فيصيرون عشرة.

ولكن الأشهر أن أصحاب المعلقات سبع، وأن القصائد التي حظيت بهذا الاسم سبع قصائد.

"المفضليات" و"الأصمعيات"، ومجموعات أخرى

المفضليات: مجموعة قصائد اختارها المفضل الضبي المتوفى سنة مائة وواحد وسبعين من الهجرة للمهدي حين عهد إليه أبوه أبو جعفر المنصور بأمر تربيته وتهذيبه بجيد الشعر، ونسبت إلى جامعها المفضل الضبي، وسميت: المفضليات.

فالمفضليات إذًا مجموعة من القصائد اختارها أحد العلماء باللغة والأدب، وأحد رواة الشعر؛ ليدرسها ويؤدب على هديها المهديَّ بن أبي جعفر المنصور.

وقد حظيت هذه المجموعة من القصائد -المفضليات- بعناية الشراح، والإشادة بها؛ لما تضمنته من جميل القول، وروائع البيان، وشريف المعاني، فممن شرحها: أبو محمد القاسم الأنباري، وأبو جعفر بن النحاس، وأبو علي المرزوقي، وأبو زكريا التبريزي، وأبو الفضل الميداني.

وقد حظيت المفضليات في العصر الحديث بعناية شيخ المحققين الأستاذ عبد السلام هارون -عليه رحمة الله- فأخرجها في طبعةٍ محققةٍ ومنقَّحة وجيدة.

الأصمعيات: وهي مجموعة من القصائد كذلك، تنسب إلى راويها وجامعها عبد الملك بن كريب الأصمعي، وهو أحد الرواة، وأحد علماء اللغة والأدب، وهي عبارة عن اثنتين وتسعين قصيدة ومقطوعة لواحد وسبعين شاعرًا، منهم أربعة وأربعون من شعراء الجاهلية، وأربعة عشر شاعرًا من المخضرمين، وستة شعراء إسلاميين، ومنهم سبعة مجهولو النسبة.

ولم تأخذ الأصمعيات شهرة المفضليات، ولم يُعَنَ بها شراح الشعر عنايتهم بالمفضليات؛ **ويرجع الدكتور شوقي ضيف ذلك إلى عاملين:**

الأول: أنه ليس فيها من الغريب -أي: من اللغة التي تحتاج إلى شرحٍ- مثل ما في المفضليات، والشراح يحبون الغريب ويقبلون عليه وعلى شرحه.

الثاني: أن الأصمعي كان يختار من القصائد ولم يروِ جميعَ القصائد كاملةً.

على أية حال؛ تُعدُّ الأصمعيات من مجموعات القصائد التي يرجع إليها دارس الأدب الجاهلي، والراغب في الاطلاع عليه.

جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، لأبي زيد القرشي: وهي تسع وأربعون قصيدة، جعلها جامعها في سبع طبقات.

الطبقة الأولى: "الصموط":

وهي السبع المعروفة بالمعلقات، لـ: امرئ القيس، وزهير، والنابغة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة. فضمَّنَ المعلقات في مجموعتها.

الطبقة الثانية: "المجمهرات":

وهي سبع قصائد أيضًا لـ: عنترة، وعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأمية بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب.

الطبقة الثالثة: "المنتقيات":

وهي سبع قصائد كذلك لـ: المسيب بن علس، والمرقش الأصغر، والمتلمس، وعروة بن الورد، ومهلهل بن ربيعة، ودريد بن الصمة، والمتنخل الهذلي.

الطبقة الرابعة: "المذهبات":

وهي سبع قصائد وهي لـ: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، ومالك بن عجلان، وقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجلاح، وأبي قيس بن الأسلت، وعمرو بن امرئ القيس جد عبد الله رواحة.

الطبقة الخامسة: "المراثي":

وهي سبع قصائد، لـ: أبي ذؤيب الهذلي، ومحمد بن كعب الغنوي، وأعشى باهلة، وعلقمة ذي جدن الحميري، وأبي زبيد الطائي، ومتمم بن نويرة، ومالك بن الريب.

الطبقة السادسة: "المشوبات":

وهي سبع قصائد لـ: النابغة الجعدي، وكعب بن زهير، والقطامي، والحطيئة، والشماخ، وعمرو بن أحمر، وتميم بن مقبل.

الطبقة السابعة:

جمع فيها سبع قصائد أيضًا لـ: الفرزدق، وجرير، والأخطل، والراعي، وذو الرومة، والكميت بن زيد، والطرماح بن حكيم. وهكذا ضمت هذه المجموعة جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، عددًا من القصائد الجاهلية وعددًا من القصائد لشعراء إسلاميين.

كتب الحماسةِ:

والحماسةُ وصفٌ يُطلقُ على الشعر المتعلق بالحرب، الداعي إلى تمجيد البطولة، وهو باب من أبواب الشعر العربي، لكن بعض الذين جمعوا هذه الأشعار

جمعوا أشعارًا في هذا الغرض وفي غيره، لكنهم غلبوا في التسمية هذا الغرض على غيره، فأطلقوا على ما جمعوه اسم: الحماسة، ومن أهم كتب الحماسة (حماسة أبي تمام) المتوفى سنة مائتين وواحد وثلاثين من الهجرة، و(حماسة البحتري) المتوفى سنة مائتين وأربع وثمانين، ومنها كذلك (حماسة ابن الشجري) أو (مختارات ابن الشجري) و(حماسة الخالديين) وتسمى (الأشباه والنظائر) وهي لسعيد الخالدي، المتوفى سنة ثلاثمائة وخمسين. ومحمد الخالدي المتوفى سنة ثلاثمائة وثمانين، ومنها (الحماسة البصرية) لعلي بن أبي الفرج البصري، المتوفى سنة ستمائة وتسع وخمسين، وقد ضاهى بها (حماسة أبي تمام).

فكل هذه مجموعات من القصائد جمعها أصحابها واختاروا أن يسموها: الحماسة، وفيها أشعار للجاهليين، وأشعار لغيرهم، وهي مصدر من المصادر الغنية بالشعر الجاهلي لمن أراد أن يبحث عنه أو يطلع عليه.

دواوين الشعراء ودواوين القبائل

المصدر السادس للشعر الجاهلي: هو الدواوين:

والدواوين نوعان:

النوع الأول: دواوين الشُّعراء.

النوع الثاني: دواوين القبائل

أما دواوين الشعراء: فبين أيدي الدارسين الآن عددٌ كبيرٌ منها، بعضها من رواية القدماء وصنعتهم، وبعضها من جمع الدارسين المحدثين.

ومن هذه الدواوين (ديوان امرئ القيس) و(ديوان زهير بن أبي سلمى) و(ديوان النابغة الذبياني) و(ديوان الأعشى) و(ديوان لبيد)، و(ديوان طرفة)، و(ديوان أوس بن حجر)، و(ديوان عبيد بن الأبرص).

وقلت: إن الدارسين المحدثين قد يلجأ بعضهم إلى الأشعار المبثوثة في كتب الأخبار، وكتب الأدب والشواهد فيجمع شتاتها ويضمها ويجمعها ويسميها ديوانَ فلان، وهو يكون بذلك جامعًا لديوان هذا الشاعر من مظانِّه المختلفة.

أما دواوين القبائل: فالظاهر أنه كانت هناك دواوين مجموعة لكثيرٍ من قبائلِ العربِ، فقد روي: أن أبا عمرو الشيباني جمع شعرَ نيِّفٍ وثمانين قبيلة، ولكن كلُّ هذا ضاع، ولم يبقَ لنا إلا بعض من ديوان قبيلة هذيل، وهو مطبوع باسم (ديوان الهذليين)، أو (شعر الهذليين).

وكما فعل بعض الدارسين المحدثين فيما يتعلق بالدواوين المفردة بالشعراء في جمعها من مظانها، ومن بطون الكتب المختلفة فعل كثير من الدارسين أيضًا ذلك فيما يتعلق أيضًا بدواوين القبائل، فبعض الدارسين جمع شعر قبيلة أسد، وبعضهم جمع أشعار قبائل أخرى، وكل هذا يُعَدُّ مصدرًا من مصادر الشعر الجاهلي، لمن أراد أن يدرسه أو يطَّلِعَ عليه.

مصدر آخر من مصادر الشعر الجاهلي والأدب الجاهلي عامة، بما في ذلك النثر، هذا المصدر يتمثل في: كتب الأدب والنقد، واللغة والمعاجم، والتاريخ والتراجم:

ففي هذه الكتب مادة غزيرة من الشعر الجاهلي ومن النثر كذلك. ومن هذه الكتب (طبقات فحول الشعراء)، و(الشعر والشعراء)، و(الكامل في اللغة والأدب)، وكتاب (البيان والتبيين) وهو للجاحظ، وكتاب (الحيوان) له كذلك

و(كتاب الأغاني) لأبي فرج الأصفهاني، وكتاب (الموشح) للمرزباني، وكتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي، وكتاب (النقائض) لأبي عبيدة معمر بن المثنى، و(خزانة الأدب) لعبد القادر البغدادي، و(الأمالي) لأبي علي القالي، و(تاريخ الطبري) و(تاريخ ابن الأثير)، و(السيرة النبوية لابن هشام)، و(معجم الأدباء) و(معجم البلدان) و(لسان العرب) وغير هذه كثير.

هذه هي مصادر الأدب الجاهلي.

ولقد وصل هذا الأدب إلى عصر التدوين عن طريق الرواية ؛ فالرواية هي وسيلة حفظه وانتشاره وذيوعه، إلى أن وصل إلى مرحلة التدوين، ولقد كان للشاعر راوية أو أكثر من راوية ؛ يَلْزَمُهُ ويحفظ عنه شعره ويرويه لغيره ؛ فالشعراء يروي بعضهم عن بعض، وكانت هناك طائفةٌ تتخذ الرواية مهنةً وحرفةً هي طائفة الرواة. وكان الشاعر النابه يلزمه الناشئون من الشعراء ؛ يأخذون عنه ويروون، ويتأثرون بأسلوبه في القريض ويتمرسون ؛ حتى تنضج مواهبهم ؛ فذكروا أن امرأ القيس كان راويةً لأبي دؤاد الإيادي، والأعشى كان راوي للمسيب بن علث، وطرفة كان راويةً للمتلمس، وكان زهير راويةً لخاله أوس بن حجر وبشامة بن الغدير، وكان كعب بن زهير والحطيئة يرويان شعر زهير. وعن الحطيئة روى هدبة بن خشرم العذري، وعن هدبة روى جميل بن معمر، وعن جميل روى كثير، وهكذا نجد سلسلة من الرواية متتابعة الحلقات ؛ يروي شاعر عن شاعر، وجيلٌ عن جيلٍ.

ولم يكن الاهتمام بالرواية في الشعر حكرًا على الشعراء، فلقد كان أفراد القبيلة أكثرهم يفعلون هذا الفعل. ومن الأخبار ما يدل على أن العرب في الجاهلية كانوا يروون القصائد التي تمجد قبائلهم ويعنون عناية خاصة، ويحفظها صغيرهم

وكبيرهم ؛ حتى إن التغلبيين الذين هجاهم الشاعر البكري لكثرة احتفالهم بنونية عمرو بن كلثوم :

أَلاَ هُبّي بِصَحْنِكِ فَاصبَحينا ❖ ....

قال الشاعر البكري الذي يهجوهم :

أَلْهَى بني تَغلبٍ عن كلِّ مكرُمَةٍ ❖ قصيدةٌ قالَهَا عمرُو بن كلثُوم

يروونها أبدًا مذ كان أولهم ❖ يا للرجال لشعرٍ غير مسئوم

فهو يذكر أن هذه القصيدة شغلت بني تغلب عن كل مكرمة ، وأنهم كانوا يروونها مُذْ كان أولهم.

ويتجاوز ذكر القصائد وحفظها ، وروايتها أبناء القبيلة إلى القبائل الأخرى ؛ حيث تنشد القصائد الجيدة ، ويتمثل بها في المجالس والأسواق ؛ حيث كان الشعر عندهم غذاءً وثمرًا وعلمًا لم يكن لهم علم أصح منه.

واتصلت الرواية بعد ظهور الإسلام ، فلم ينشغل العرب عن رواية الشعر ، ولم يتركوا قول الشعر ، وبقيت الرواية محل اهتمام كثير منهم ، حتى أوصلوا هذا الشعر وهذا الأدب إلى عصر التدوين.

لقد روي أن الرسول ﷺ كان يستمع إلى الشعر من رواته ، وأن بعض الرواة كانوا ينشدونه ما يستحسنه ؛ ومن ذلك أن الرسول ﷺ سمع قول عنترة :

وَلَقَدْ أبيتُ على الطّوَى وأظَلُّهُ ❖ حتَّى أنالَ بهِ كَريمَ المَأْكَلِ

والمعنى : أصبر على الجوع وأظل صابرًا عليه ليلًا ونهارًا حتى أرزق بطعام من مصدر كريم ؛ أعجب الرسول ﷺ بهذا المعنى الذي عبر عنه عنترة. وقال ﷺ : "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة" ، ورووا كذلك أن الرواة للشعر أسمعوه قول لبيد :

أَلاَ كُل شيءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ ❖ وكُلُّ نَعيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ

فقال ﷺ معلقًا : ((أصدق كلمة قالها الشاعر قول لبيد...)) وذكر البيت.

وذكروا أن عائشة أم المؤمنين كانت كثيرًا ما تنشد الشعر، أو تتمثل بأبيات منه، فيستمع الرسول ﷺ إلى ذلك، ويُعلِّقُ عليه، قالوا: إنه ﷺ سمعها تنشد قول الشاعر:

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه ❖ يومًا فتدركه عواقب ما جنى

يجزيك أو يثني عليك فإن من ❖ أثنى عليك بما فعلت كمن جنى

فقال ﷺ : ((صدق يا عائشة، لا يشكر الله مَن لا يشكر الناس)).

ورووا أنه كان يستنشد أصحابه من شعر أمية بن أبي الصلت، وأنه كان يستمع من الخنساء ويستزيدها، وأنه استمع لحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، ينشدونه من شعرهم ؛ فيشجعهم ويثني عليهم.

كما ذكروا أن كعب بن زهير لما أراد الاعتذار إلى رسول الله ﷺ وذهب إليه في المدينة استعطفه بقصيدة مدحه فيها، واعتذر إليها وهي القصيدة المشهورة بـ(بانت سعاد) وفيها يقول كعب:

نبئتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني ❖ والعفوُ عندَ رسولِ الله مأمولُ

مَهْلًا هَدَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الـ ❖ قُرْآنِ فِيْهَا مَوَاعِيْظٌ وَتَفْصِيْلُ

وفيها قوله:

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يُسْتَضَاءُ بهِ ❖ مهنَّدٌ من سيوفِ اللهِ مسلولُ

وهكذا لم تتوقف رواية الشعر ولا الاهتمام به في عهد النبوة.

وكما كان الرسول ﷺ يستمع الشعر ويستنشده من بعض أصحابه ورواته كان أصحابه الكرام } يتناشدون الأشعار، ويروونها، ويحكمون عليها ويبدون

آراءهم فيها، ويعلقون على بعض ما ورد فيها، واتصلت الرواية في عهد الخلفاء الراشدين } وكان لهم نصيب من روايةِ الشعرِ وإنشاده وحفظه.

يروى أن أبا بكر الصديق كان كثير الحفظ كثير الرواية، واسع الاطلاع، غزير المعرفة؛ لذلك فإن الرسول ﷺ كان يسأله عن صحة ما يروى من الشعر.

ومعروف أن أبا بكر > كان من أعلم الناس بأنساب العرب، ولا بد أن الذي يعلم أنساب العرب يعلم أشعارهم وأخبارهم، ويروي ما صح عنده منها. وكان الصديق يستشهد في خطبه بأبياتٍ من الشعر أحيانًا.

وكذلك كان عمر بن الخطاب > يتمثل بالشعر في مناسبات مختلفة، حتى إن ابن سلّام يقول: "لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر" ورووا أن عمر > كان يعجبه شعر زهير بن أبي سلمى، ويستنشده الناس، وكان عمر يفضل زهيرًا على سائر الشعراء، ويثني عليه بأنه: كان لا يعاضل في الكلام، أي: لا يعقده، وكان يتجنب وحشيه، ولم يمدح أحدًا إلا بما فيه، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري يقول: مُرُوا مَن قِبَلَكَ بتعلُّم الشعر فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

وكذلك كان شأن علي بن أبي طالب > فقد كان ذا علم غزير، وبصرٍ ثاقبٍ بكلامِ العربِ، ومناحي تعبيرهم، وكان يستنشد الشعراء، ويتمثل بالشعر الجيد، ويُقبل عليه، وقد حفظت له كتب الأدب والتاريخ مجموعة من الآراء النقدية الناضجة، وكلامًا بليغًا رائعًا، كما حفظت له بعض الأشعار.

وكان ابن عباس > يهتمُّ برواية الشعر، ويستعين به على فهمِ كتاب الله وتفسيره، ويروى عنه أنه قال: إذا قرأتم شيئًا من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه

في أشعار العرب ؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سُئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعرًا ؛ ليوضح المعنى اللغوي بكلام العرب.

وهكذا استمرت الرواية في عهد الرسول ﷺ وفي عهد خلفائه الراشدين تحافظ على الشعر العربي وتهتم به ، حتى جاء العهد الأموي ؛ فنشطت الحركة الأدبية نشاطًا كبيرًا ، وعلت معها مكانة الشعر والشعراء ، وصارت مجالس الولاة ، والخلفاء منتدياتٍ أدبيةً تُنْشد فيها القصائد ، وتُروى الأشعار ، ويتبارى الرواة ويتنافسون في ذكر ما يحفظون ؛ لينالوا بذلك إعجاب الخلفاء الأمويين وجوائزهم.

وكان هؤلاء الخلفاء يشجعون الرواة كما يشجعون الشعراء ، ويجزلون لهم العطايا والهبات ، وكان للرواة في مجالس الخلفاء مكانةٌ مرموقةٌ ، يستدعيهم الخلفاء لِيَسْمُروا معهم ، ويستنشدون ما يحفظون من طريف الشعر وجيد الحكم والأمثال.

ولقد كان المؤدبون في هذا العصر يُعَلِّمُونَ الناشئة الشعر واللغة والأخبار ، وكان عبد الملك أمير المؤمنين يوصي مؤدب ولده أن يعلمه الشعر ، وقد نشطت حركة جمع الشعر والعناية به روايةً وحفظًا وتدوينًا ؛ للمحافظة على القرآن الكريم ومعرفة تفسيره ، ومعرفة معاني الحديث النبوي ؛ وبذلك أصبح الأدب العربي الجاهلي بشعره ونثره مادةً صالحةً للأخذ منها والاستشهاد بها على معاني القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، ولنا أن نطمئن إلى هذه المادة ونثق فيها ونعتز بها.

الظواهر الفنية للشعر الجاهلي

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : ميزات الشعر الجاهلي ٤٧
العنـــصر الثـــاني : شعر الصعاليك ٥٠
العنـــصر الثالـــث : وصف الناقة، والفرس، والقوس ٥٧

ميـــزات الـــشعر الجـــاهلي

أما خصائص الشعر الجاهلي وميزاته، كما تبدو في نماذجه العالية التي تمثلها مرحلة المعلقات، فإن هذه الخصائص تتمثل فيما يلي:

أولًا: من حيث اللغة:

جزالة الألفاظ، ومتانة الأسلوب، ومناسبة الكلام للمعاني: سمة واضحة في لغة هذا الشعر؛ فالشاعر الجاهلي يعبِّر تعبيرًا محكمًا لا خلل فيه ولا اضطراب عما يريد الإبانة عنه، ويختار لكل معنى ما يناسبه من الكلام، كما يمتاز الشعر الجاهلي بأنغامه الآثرة وموسيقاه الساحرة، التي تجذب الأسماع وتطرب النفوس، وذلك لاعتماده على وَحدة الوزن والقافية، بالإضافة إلى روافد نغمية أخرى في داخل البيت تأتي من التركيب اللغوي كالجناس والتكرار وغيرهما؛ كل ذلك يُضفي على الشعر الجاهلي نغمًا عذبًا وسحرًا خاصًّا، وإذا أردت أن تتلمس ذلك وتتذوقه فاسمع إلى قول الخنساء في رثاء أخيها صخر:

أعينيّ جودا ولا تجمدا ❖ ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ❖ ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العماد ❖ ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهمُ ❖ إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهمُ ❖ من المجد ثم مضى مصعدا
يكلفه القوم ما هالهم ❖ وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوي إلى بيته ❖ يرى أفضل الكسب أن يحمدا

وإن ذكر المجد ألفيته ❖ تأزّر بالمجد ثم ارتدى

فأنت تلاحظ أثر الوزن والقافية، كما تلاحظ كذلك أثر الجناس والتكرار والتناسب بين بعض الألفاظ: الجميل - مدَّ - المجد... إلخ.

ثانيًا: من حيث المعاني:

يتميز الشعر الجاهلي بوضوح معانيه وارتباطها ببيئته، وبُعدها عن التعقيد والغموض، واعتمادها على الملاحظة والتجربة؛ ولكنها مع ذلك كثيرة التنوُّع، متعددة المجالات؛ تغطي أغراض الكلام جميعها، وتلبي حاجات النفس في سائر أحوالها؛ فللغزل معانيه، وللمديح أفكاره، وللحكمة مسالكها... وهكذا.

ثالثًا: من حيث العاطفة:

يتميز الشعر الجاهلي بصدوره عن عاطفة صادقة قوية، هي التي تدفع الشاعر إلى القول، وهي التي تجعل لكلامه أثرًا نافذًا إلى عواطف سامعيه أو قارئيه؛ فالشاعر الجاهلي إذا عشق وأحب تغزل، وإذا رضي وأعجب مدح، وإذا كره وغضب هجا، وإذا ذهب إلى الحرب حمّس وافتخر، وإذا فجعه الموت في أحد من أحبابه حزن ورثى، وهو في كل هذه الأحوال لا يزوّر مشاعره، ولا يكذب ولا يدعي:

رابعًا: من حيث الخيال:

الخيال في الشعر الجاهلي خصب ومحلّق يمد الشاعر بالعلاقات بين الأشياء، ويعينه على التصوير الذي يقرِّب المعنى البعيد إلى النفس، ويمكّن فيها المعنى القريب،

ويلبس الأفكار والمعاني أثوابًا جميلة عن طريق التجسيد والتشخيص، ويبرزها في معارض عجيبة تتخذ من التشبيه والاستعارة والكناية وغير ذلك من ألوان المجاز أُطرًا لها؛ فيشبه المرأة بالدرة وبالظبية وبالغزال وبالشمس، ويشبه الفرس بثور الوحش وبالعُقاب، ويشبه الرجل الكريم بالبحر وبالغيث... إلى آخر ما نعرفه من صور الشعر الجاهلي.

هذا هو النابغة الذبياني في إحدى قصائده التي اعتذر فيها للنعمان بن المنذر واستعطفه فيها، يسلك سبيل هذا التصوير فيقول:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني	❖	وتلك التي أهتم منها وأنصب
فبتّ كأن العائدات فرشن لي	❖	هراسا به يُعلى فراشي ويقشب
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبة	❖	وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلّغت عني وشاية	❖	لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب
فلا تتركني بالوعيد كأنني	❖	إلى الناس مطليّ به القار أجرب
ألم ترَ أن الله أعطاك سورة	❖	ترى كل ملك دونها يتذبذب
فإنك شمس والملوك كواكب	❖	إذا طلعت لم يبدُ منهن كوكب
ولست بمستبقٍ أخًا لا تلمّه	❖	على شعث أي الرجال المهذب
فإن أكُ مظلومًا فعبد ظلمته	❖	وإن تك ذا عتبى فمثلك يعتب

خامسًا: من حيث بناء القصيدة:

تتخذ القصيدة الجاهلية منهجًا يقوم على تعدد الأغراض والموضوعات:

فهي تبدأ ببكاء الديار والوقوف على الأطلال، ومنه ينتقل الشاعر إلى حديث الغزل فيصوّر شوقه إلى محبوبته التي رحلت، ويصف جمالها، ثم ينتقل إلى ذلك

إلى وصف ناقته، ومن وصف الناقة إلى وصف الصحراء ورحلته فيها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الفخر بنفسه أو إلى المديح.

ولا يتخلّف هذا المنهج إلا في القليل النادر؛ فمثلًا: في قصيدة الرثاء يبدأ الشاعر الجاهلي غالبًا قصيدة الرثاء دون مقدمة طللية، ولا يوجد غزل مع الرثاء؛ لأن عاطفة الحزن لا يناسبها شيء من ذلك، كما أننا نجد الشعراء الصعاليك في شعرهم لا يلتزمون بهذا المنهج، ويبدو أن ذلك راجع إلى تمردهم على نظام الحياة العربية، فتمردوا كذلك على نظام القصيدة العربية.

هذه هي الخصائص الفنية للقصيدة الجاهلية.

أما الخصائص الموضوعية للشعر الجاهلي:

فتتمثل في تعدد أغراضه، وكثرة موضوعاته، واتساعه لاستيعاب حياة أصحابه ووصف بيئتهم، وتسجيل صفاتهم، ورصد أحوالهم، وتصوير مشاعرهم.

هذه هي الصورة العامة لخصائص الشعر الجاهلي، وتطبيقاتها موجودة في هذا الشعر جميعًا.

شعر الصعاليك

والصعاليك جمع: صعلوك، والصعلوك في لغة العرب هو: الفقير.

فهُم إذن جماعة من الشبان الفقراء الذين أحسوا بإهمال مجتمعهم لهم واحتقاره إياهم بسبب فقرهم، فتمردوا على قبائلهم وخاصموا هذا المجتمع، وأنشئوا لأنفسهم مجتمعًا خاصًّا بهم بعيدًا عن قبائلهم، وبعيدًا عن النظام الاجتماعي

السائد في شبه جزيرة العرب، كان مجتمعهم يختلف في أعرافه عن أعراف القبيلة؛ بل كان نظامهم هذا ضد نظام القبيلة وضد أعرافها، ولأنهم كانوا ناقمين على هذا المجتمع راحوا يدرّبون أنفسهم على سرعة العدو وخفة الحركة، ويدربون أنفسهم على إجادة أنواع القتال؛ لأنهم استعدوا لمحاربة هذا المجتمع، واستحلّوا لأنفسهم ما في أيدي غيرهم، ورأوا أن الأغنياء ليسوا أحقّ منهم بالثروة والغنى.

وهكذا مثل الصعاليك مجتمعًا خارجًا على نظام الحياة العربية وعلى نظام القبيلة العربية، وخلعتهم قبائلهم وتبرّأت منهم، وأصبح لهؤلاء الصعاليك مجتمعٌ خاص يؤاخي فيه بعضهم بعضًا، وسادت بينهم روح الأخوة والمساواة والإيثار، وأخذوا يحاولون تطبيق ما يمكن تسميته بالعدل الاجتماعي، فكانوا إذا غنموا غنيمة أو سلبوا شيئًا وزّعوه بين أنفسهم بالسوية، فهم يغيرون وينهبون من الأغنياء ويسلبون ويقطعون طرقَ القوافل، ولا يرون في ذلك حرجًا ولا عيبًا، وإنما يرون أن هذا المجتمع يستحق منهم أكثر من ذلك. ثم إنهم يوزّعون ما يحصلون عليه فيما بينهم، وأحيانًا يبحثون عن فقراء آخرين مهملين، فيعطونهم مما غنموه وسلبوه.

وراح هؤلاء الصعاليك يستبدلون بأقوامهم من البشر أقوامًا يأنسون إليهم ويثقون فيهم؛ من حيوان الوحش، فهم يجاورون الضبع، ويجاورون الذئاب، ويستأنسون بهم، ويرون أن الضبع والذئاب وسائر أنواع الوحش أكثر رحمةً وإنصافًا من مجتمع الإنسان.

واشتُهر من هؤلاء الصعاليك: تأبط شرًّا، والشنفرى، وعروة بن الورد. وشعرهم يصور مغامراتهم في الكرّ والفرّ والإغارة والسلب والنهب، ويصور شجاعتهم النادرة، وسرعتهم وخفتهم الخيالية، ويصور أيضًا سماتهم النفسية وصفاتهم الأخلاقية على نحو ما نجده في أشعارهم.

ورد في أخبار عروة: أنه كان إذا أصابت الناس سنة شديدة يجمع المرضى والضعفاء والمسنين من عشيرته ثم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته، خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبًا، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله، وقسَم له نصيبه من غنيمته إن كانوا غنموا، فربما أتى الإنسان منهم أهلَه وقد استغنى.

فهذا نموذج من تفكير هؤلاء الصعاليك، كأنهم يريدون أن يُغنوا الفقراء، وأن ينتصروا على الفقر؛ ولذلك عُرفوا بهذه النزعة الإنسانية التي تجعلنا نتعاطف معهم في كثير من الأحيان، وإن كنا لا نَرضى عن أفعالهم في أحيان أخرى.

وكانوا يصبرون على الجوع وعلى مشقات الحياة، ويرون الموت خيرًا من حياة ذليلة، فهذا مثلًا أبو خراش الهذلي يقول:

وإني لأثوي الجوع حتى يملني ❖ فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي
وأغترق الماء القراح فأنتهي ❖ إذا الزاد أمسى للمزلج ذا طعم
أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه ❖ وأوثر غيرك من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة ❖ ولا الموت خيرٌ من حياة على رغم

وهذا عروة بن الورد، يقدم لنا نموذجًا للصعلوك الذي يرتضيه ويثني عليه عروة فيقول:

ولله صعلوك صحيفة وجهه ❖ كضوء شهاب القابس المتنور
مطلا على أعدائه يزجرونه ❖ بساحتهم زجر المنيح المشهر
وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه ❖ تشوف أهل الغائب المتنظر
فذلك إن يلقى المنية يلقها ❖ حميدًا وإن يستغن يومًا فأجدر

هكذا تتجلى قوة أنفس هؤلاء الصعاليك في استهانتهم بالحياة في سبيل الوصول للغاية التي يسعون إليها، وفي سبيل تحقيق الغنى والثراء الذي يحفظ لهم كرامتهم ويعينهم على أداء ما يجب عليهم تجاه أقاربهم وتجاه الفقراء الآخرين ممن يحيط بهم، وهم مؤمنون بفكرة الفناء في سبيل المبدأ، فلا قيمة للحياة في رأيهم إذا عاش الإنسان فقيرًا محتقرًا منبوذًا من مجتمعه؛ إن الموت في هذه الحالة خير من الحياة.

دعيني أ ـوِّف في البلاد لعلني ❖ أفيد غنى فيه لذي الحق محمل
أليس عظيما أن تُلم ملمة ❖ وليس علينا في الحقوق معول
فإن نحن لم نملك دفاعًا بحادث ❖ تلم به الأيام فالموت أجمل

فالفقير - في رأيه: شر الناس وأحقرهم عندهم، وأهونهم عليهم مهما يكن له من فضل؛ يجافيه أهله وتزدريه امرأة حتى الصغير يستطيع أن يذله.

أما الغني: فمهما يفعل يقبل منه ومهما يخطئ يغفر له، فللغني رب يغفر الذنوب جميعًا؛ يصوّر هذه المعاني فيقول مخاطبًا زوجه:

ذريني للغنى أسعى فإني ❖ رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم ❖ وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه ❖ حليلته ويقهره الصغير
ويُلقى ذو الغنى وله جلالٌ ❖ يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه والذنب جمّ ❖ ولكن للغنى رب غفور

هكذا يسجل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة؛ مشكلة الغنى والفقر، في هذا الأسلوب المتميز الذي يقوم على السخرية من هذا المجتمع العجيب، الذي يحتقر الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير، ويقدّر الغني لا لشيء إلا لأنه غني.

وبهذا حاول الصعاليك أن يسلكوا لأنفسهم مسلكًا خاصًّا بهم في الانتصار على فقرهم، ومحاولة إنصاف أنفسهم من مجتمعهم الذي ظلمهم ؛ حتى لو كان الإنصاف عن طريق الاعتداء والسلب والنهب على أغنياء هذا المجتمع.

ومن الناحية الفنية يختلف شعر الصعاليك عن شعر غيرهم :

فهو من الناحية الشكلية :

تكثر فيه المقطوعات، ولا نجد فيه القصائد الطويلة، وهم لا يسيرون على نهج القصيدة الجاهلية التقليدية، التي تبدأ بالأطلال ثم ينتقل الشاعر من الأطلال إلى الغزل، ثم من الغزل إلى وصف الناقة والصحراء... وغير ذلك من الأغراض، في شعر الصعاليك لا نجد شيئًا من ذلك، ويبدو أن حياتهم في الكرّ والفرّ لم تكن لتسعفهم أن يطوِّلوا قصائدهم، ثم إنهم في شعرهم يصفون حياتهم لا يزيدون على ذلك.

ومن حيث الموضوعات :

نجد أن الموضوعات التي غلبت على شعرهم تختلف في بعض الأحيان عن الموضوعات التي نجدها عند غيرهم من الشعراء ؛ فالغالب على موضوعاتهم هو وصف أحاديث المغامرات، ووصف ما كانوا يفعلونه في غاراتهم على أعدائهم، ووصف المراقب التي كانوا يتخذونها أماكن لرصد الأعداء أو لرصد القوافل التي يريدون الإغارة عليها وسلبها.

وكذلك نجد من موضوعات شعرهم الحديث عن الرفاق، فهم أسسوا لأنفسهم مجتمعًا خاصًّا بهم، الصعاليك فيه إخوان ورفاق، يساعد بعضهم بعضًا ويعاون بعضهم بعضًا، ويخرجون معًا للغزو والقتال.

ومن موضوعات شعرهم كذلك: وصف الأسلحة التي كانوا يستخدمونها في غاراتهم وفي كرهم على أعدائهم، وفي شعرهم أيضًا ذكر لأحاديث الفرار؛ لأنهم لم يكونوا يحاربون حربًا نظامية، بل كانوا يكرون ويفرون ويسلبون ويهربون، وهم من أجل ذلك يصفون سرعة عدوِهم، وقد رويت في سرعة عدوهم أخبارٌ عجيبة؛ حتى إن أكثر هذه الأخبار يدل على أن الواحد منهم كان إذا عدا سبق الخيل المسرعة، كما يلمّون في شعرهم بوصف التشرد ووصف الجوع ومعانة الفقر، ويذكرون فيه كذلك آراءهم في المجتمع الذي ظلمهم، وآراءهم في أنفسهم، وهذا نموذج من شعر الصعاليك.

وفي التائية التي رواها المفضل للشنفرى إلمام بكثير من هذه الموضوعات؛ فقد تحدث فيها عن غزوِه لبني سلامان أعدائه الألداء على رأس جماعة من رفاقه الصعاليك، وهو يبدأ الحديث برسم صورة لرفاقه، فهم جماعة من الغزاة المغامرين، قد احمرّت قسيهم لكثرة غزواتهم، ويقدم نفسه رئيسًا عليهم؛ يبعثهم للغزو، وهو يعلم أن النصر والهزيمة أمران يتعرض لهما كل مغامر، واحتمال الهزيمة لن يصرفه عن المغامرة؛ فهذه طبيعة المغامرة، فمن يغزُ يغنم مرةً ويخسر أخرى، ثم بعد أن ينتهي من تقديم رفاقه وتقديم نفسه يأخذ في وصف خروجهم؛ فيحدد أولًا الموضع الذي اجتمعوا فيه بأمره تحديدًا جغرافيًّا دقيقًا، ثم يذكر الدوافع التي دفعته إلى هذه المغامرة، ثم يهوّن على نفسه مشقة الطريق؛ فستنتهي هذه المشقة بتحقيق هدفه، ثم يعود بعد هذا إلى رفاقه ليتحدث عنهم طويلًا، وهو يخصّ أحدهم وهو تأبط شرًّا الذي كان يقوم على زادهم في غزواتهم ويتولى أمر قسمة هذا الزاد عليهم، يذكره الشنفرى بحديث مرح يداعبه فيه مداعبة طريفة، ويصوره على أنه أُمّهم، أو كأنه أمّهم، ويذكر الرفاق على أنهم العيال، فيذكر الشنفرى تأبط شرّا على أنه أم العيال وهذه الأم تقتر على

أبنائها مخافة أن تطول فترة الغزوة فيموتوا جوعًا، ويعلن الشنفرى أنه غير راضٍ عن هذه السياسة التي تنتهجها أمهم، وهو بذلك مازحٌ غير جاد، فما تخشاه عليهم ينبغي أن يجعلهم راضين بما تفعلوا؛ فهي أيضًا لا تؤثِر نفسها بشيء عليهم، حتى لقد أصبحت نحيلة دقيقة، وهي أمّ ليست كسائر الأمهات؛ إنها غير محجبة لا يحجبها سِتر ولا يضمها بيت، وهي تحمل جعبة فيها ثلاثون سهمًا؛ عريضة النصال وتعدو في سرعة فائقة، وفي يمينها سيف صارم بتّار؛ إنها أم الصعاليك إنها الصعلوك الشهير تأبطّ شرّا. يقول الشنفرى في تائيته:

وأم عيال قد شهدت تقوتهم ❖ إذا أ ـعمتهم أوتحت وأقلتِ
تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ❖ ونحن جياعٌ أي آل تألّت
مصعلكة لا يقصر السترُ دونها ❖ ولا تُرتجى للبيت إن لم تبيّت
لها وفضة فيها ثلاثون سيحفًا ❖ إذا آنست أولى العدي اقشعرتِ
وتأتي العدي بارزًا نصفُ ساقها ❖ تجول كعير العانة المتلفت
إذا فزعوا ـارت بأبيضَ صارم ❖ ورامت بما في جفرها ثم سلّت
حُسام كلون الملح صافٍ حديده ❖ جُراز كأقطاع الغدير المنعّت
تراها كأذناب الحسيل صوادرا ❖ وقد نهلت من الدماء وعلّت

ومن المهم هنا أن نذكر معاني المفردات؛ ليسهلَ الفهمُ:

أو تحت: أقلت.

العيل: الفقر.

أيّ آل تألتِ: أي سياسة ساست، ومصعلكة بالفتح: نحيفة. وبالكسر مصعلِكة: أي صاحبة صعاليك.

الوفضة: الجعبة.

والسيحف: السهم العريض النصل.

العدي: القوم من الرجالة.

الجفر: الكنانة.

الجُراز: السيف القاطع.

الحسيل: جمع حسيلة وهي أولاد البقر؛ شبه السيوف بأذناب الحسيل إذا رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها. هذه لمحة عن ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي وأسبابها.

ولقد زالت هذه الأسباب واختفت -أو كادت- هذه الظاهرة بعد ظهور الإسلام بسبب ما جاء به الإسلام من شرائع التكافل الاجتماعي والمؤاخاة بين أبنائه، وبعد أن جمع شتات العرب بعد أن كانوا قبائل متفرقة لا يجمعهم نظام، جمعهم الإسلام على نظام يُعاقب فيه المذنب ويُثاب فيه الملتزم.

من هنا اختفت ظاهرة الصعلكة واختفت آثارها أو كادت.

وصف الناقة والفرس والقوس

وصف الناقة في الشعر الجاهلي:

من المعلوم أن العرب اهتموا اهتمامًا خاصًّا بالناقة؛ لأنها وسيلتهم في السفر والترحال في صحرائهم الشاسعة الصعبة، والإبل كانت بالنسبة لهم أغلى أموالهم وأهم ثرواتهم؛ عليها يعتمدون في السفر والرحلة والانتقال، ومنها يأخذون غذاءهم: الألبان واللحم، ومنها كذلك يتخذون كساءهم وفرشهم.

ومن هنا كانت عناية الشعر الجاهلي بالناقة، وصفها وأطال وصفها، والأوصاف العامة في الشعر الجاهلية للناقة تدور حول قوتها وصلابتها وسرعتها؛ فهي نجاء أي: ناجية، صادقة الهواجل، ذِعلبة أي: سريعة، حرف، مذكَّرة، جمالية، أمون، ذمول، صموت، وصفوها بكل هذه الأوصاف.

ولا يكاد يخلو ديوان شاعر من شعراء الجاهلية من وصف الناقة؛ وصفها طرفة بن العبد، ووصفها لبيد، ووصفها امرؤ القيس، ووصفها بشر بن أبي خازم.

وسنذكر هنا وصفًا للناقة من شعر بشر بن أبي خازم؛ فهو من الذين أكثروا في وصف الناقة وأجادوا، في إحدى قصائده يرسم لوحة لناقته ويصفها بالسرعة والقوة، ويصف فيها أعضاءها، ونرى في هذه الصورة ذنبَ الناقة في أوضاع مختلفة؛ نراه وقد تدلّى على فخذيها يشبه عرجون النخلة، ونراه وهي تحركه يمنة تارة ويسرة أخرى، وقد تدخله بين فخذيها، فنرى عجزها كالباب قد شُدّ رتاجه، ونرى أيضًا في هذه الصورة ظهرَ الناقة القوية وضلوعها الطويلة التي تُشبه قرون الوعول وقد امتدت في شريعة الماء، ونرى سنامها المرتفعة الضخمة وعنقها الطويلة الممتد، وقد علق بها الزمام ليجذب الناقة إذا تزيدت في السير، ونرى فيها أيضًا عرق الناقة متجمدًا داكن اللون، وأخفافها التي بليت ولم يبقَ منها غير بقايا كأنها زجاجٌ مهشّم، ويرتفع البصرُ قليلًا، فنرى النسيف في جنبيها كأفحوص القطاة المثلم، ثم يرتد البصر إلى أسفل الصورة حيث المناسم والنعال يرشح منها الدم، فأسفارها طويلة وطرقها صعبة، يقول بشر في قصيدته التي يصف فيها الناقة:

كأن على أنسائها عذق خصبة ❖ تدلّى من الكافور غير مكمم

تطيف به ـورًا و ـورًا تلطه ❖ على فرج محروم الشراب مصرم

تشبّ إلى ما أدلج القوم نيرة ❖ بأخفافها من كل أمعز مورم
وتأوي إلى صلب كأن ضلوعه ❖ قرون وعول في شريعة مأزم
تلاقت على درب الصقيع جباهُها ❖ بعوج كأمثال العريش المذمم
لها عجُز كالباب شدّ رتاجه ❖ ومستتلع بالكور ضخم المكدم
وأتلع نهّاض إذا ما تزيدت ❖ يذاع بمجدول من الصوف مؤدم
كأن بزفراها عنية مجرب ❖ يحشّ بها ـال جوانب قمقم
وَقَد بَلِيَ الأخفافُ إلّا وَشائِظًا ❖ بَقيت لَها مِثلَ الزُجاجِ المُهَضَّمِ
وقد تخذت رجلي لدى جنب غرزها ❖ نسيما كأفحوص القطاة المثلم
إذا صام حرباء العشي رأيتها ❖ مناسمها بالجندل الصم ترتمي
إذا انبعثت من مبرك فنعالها ❖ رعابيل يثرين التراب من الدم

ومن ديوان الشعر الجاهلي كله تضح مكانة الناقة عند العرب فقد كانت سفينة الصحراء ووسيلة السفر، والمحبوبة الثانية لدى الشعراء، بل ربما كانت المحبوبة الأولى أحيانا إليها يفرون إذا غلبهم الشوق وأضناهم الحنين فيكلفونها ما بهم من هم، عامدين إلى ديار غير الديار؛ طلبًا للسلوى أو محاولة للحاق بالأحبة المرتحلين، أو قاصدين باب ملك أو كريم يؤملون عنده جزيل عطاء أو كريم لقاء.

وصف الفرس في الشعر الجاهلي:

لم يحظ حيوان من العرب بعناية تشبه عنايتهم بالناقة إلا الفرس، فقد كان الفرس عدتهم في الحروب ونجدتهم في مواطن الخطر، ويقول بشر بن أبي خازم: "به يكرون وعليه يفرون".

وأكثر شعرائهم وصف الفرس خاصة الشعراء الفرسان، نجد مثلًا امرأ القيس في معلقته يصف جواده فيقول:

وقد أغتدي والطير في وُكناتها ❖ بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مِكر مِفر مُقبل مُدبر معًا ❖ كجلمود صخر حطه السيل من عل
كُمَيت يزل اللبن عن حال متنه ❖ كما زلت الصفواء بالمتنزل
مسحٍ إذا ما السابحات على الونا ❖ أثرن غبارا بالكديد المركَّل
على العقب جياش كأن اهتزامه ❖ إذا جاش فيه حميه غلي مرجل
يطير الغلام الخف عن صحواته ❖ ويُلوي بأثواب العنيف المثقّل
درير كخذروف الوليد أمرّه ❖ تقلّب كفيه بخيط موصّل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة ❖ وإرخاء سلحان وتقريب تتفل
كأن على الكتفين منه إذا انتحى ❖ مَداك عروس أو سراية حنظل

فقد صور سرعته تصويرًا بديعًا -كما يقول الدكتور شوقي ضيف- وجعله قيدًا لأوابد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتًا منه ؛ كأنه قيد يأخذ بأرجلها، وهو لشدة حركته وسرعته يُخيل إليك كأنه يفرّ ويكرّ في الوقت نفسه، وكأنه يُقبل ويُدبر في آنٍ واحد، وكأنه جلمود صخر يهوي به السيل من ذروة جبل عالٍ، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق كما تنزلق الصخرة من مُنحدر بعيد، وهو يصبّ الجري صبًّا ويسبق كل الخيل سبقًا، لا يثير غبارًا ولا نقعًا، إنما هو ما إن يحركه راكبه حتى يغلي غليان القدر لا يني ولا يفتر، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان ؛ إذ يصِلونها بخيط ويسرعون في إمرارها إسراعًا، وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر، فله خاصرته النحيلتان، بل لكأنه نعامة خفيفة له ساقاها الضئيلتان الصلبتان، وهو يهوي إلى الأرض كأنه الذئب الفزع، ويقفز كأنه الثعلب الخائف، وإذا اعترضك خُيِّل إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مداك عروس أو سراية حنظل، ومداك العروس هو الحجر الذي تسحق عليه طيبها فيبرق ؛ شبه به الفرس في بريقه، والسرايا حنظلة صفراء براقة.

وصف القوس في الشعر الجاهلي :

وكما وصف الشعراء الجاهليون الناقة والفرس لأهميتهما عندهم، وصفوا كذلك أسلحة الحرب، ومما وصفوه منها: القوس، وأكثر الذين وقفوا عند القوس وتأمَّلوها ووصفوها هم الشعراء الصعاليك، وأشدّ ما يهتمون به في وصفها صوتُها حين ينبضون فيها، أو حين يتهيئون للرمي؛ من ذلك قول صخر الغي :

وسمحة من قسي زارتا ❖ صفراء هتوفٌ عدادها غرد
كأن إرنانها إذا ردمت ❖ هزم بغاة في إثر ما فقدوا

وشاعر آخر منهم يقول :

وفي الشمال سمحة من النشم ❖ صفراء من أقواس شيبان القدم
تعج في الكف إذا الرامي اعتزم ❖ ترنم الشارف في أخرى النعم

وصوتها في سمع الشنفرى رنين وهتاف، ولكنه رنين حزين كصوت الشجي أثقلته شجونه وأحزانه، يقول الشنفرى :

وصفراء من نبع أبيٍّ ظهيرة ❖ ترن كإرنان الشجي وتهتف

وهم في ذلك يذكرون لونها فهي صفراء، ثم يصفون صوتها، ويذكرون أنها من نبع أبي؛ أي: من شجر النبع الأصيل. ومن ذلك أيضًا قول أحدهم :

وقاربت من كفي ثم فرجتها ❖ بنزعٍ إذا ما استكره النزع مخلج
فصاحت بكفي صيحة راجعت بها ❖ أنين الأميم ذي الجراح المشجج

ومن الشعراء الذين وصفوا القوس فأجادوا وأطالوا: الشماخ بن ضرار، وهو شاعر مخضرم عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام.

قضايا الأدب الجاهلي

عناصر الدرس

العنصر الأول : النحل والانتحال والوضع ٦٥
العنصر الثاني : الشك في صحة الشعر الجاهلي عند العرب والمستشرقين ٦٨
العنصر الثالث : مناهج الدراسات الأدبية وتطبيقها على الشعر الجاهلي ٧٦

النحـــل والانتحــــال والوضــــع

والانتحال والنحل المقصود بهما: الوضع ونسبة الكلام إلى غير قائله.

والباحثون الذين يدرسون في تاريخ الشعر العربي يدرسون هذه القضية؛ لأن الشعر الجاهلي وصلنا عن طريق الرواية، والرواية يحدث فيها نسيانٌ وخلطٌ واضطراب، وأمر الوضع إذًا محتمل.

وقد تنبه القدماء أو نبهوا إلى هذه القضية وحكم بعضهم على بعض الشعر الذي نسب إلى شعراء الجاهلية بأنه مصنوعٌ، أو موضوعٌ، أو منتحلٌ، أو مكذوبٌ، لا تصح نسبته إلى من نُسب إليهم من الجاهليين، وكان محمد بن سلام الجُمحي المتوفى سنة مائتين وواحد وثلاثين من الهجرة أبرز من تناول هذه القضية، وقال فيها قولًا حاسمًا وشافيًا في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، **ومجمل رأيه في هذه القضية أن ما نُسب إلى الجاهليين من الشعراء ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: قسم اتفق العلماء بالشعر والرواة الثقات على صحة نسبته إلى قائله. وهذا القسم لا يصح لأحدٍ أن يخالف فيه، أو يزعم أنه موضوعٌ أو مكذوبٌ أو منتحلٌ.

إذًا هناك قسمٌ الرواة الثقات، والعلماء الأثبات والنقاد أصحاب البصر بالشعر وبالرواية وثقوا نسبته إلى الجاهليين، وأكدوا أنه لا شيء فيه من الوضع أو الانتحال، وهذا القسم الصحيح لا يجوز لأحد أن يشكك فيه.

القسم الثاني: قسم ثانٍ، أبطله أهل العلم بالشعر والمحققون من الرواة وذوو البصر من النقاد وحكموا عليه بالكذب والوضع، وهذا القسم قد نقله قوم من

كتاب إلى كتاب بعد التدوين، ولم يأخذوه عن أهل العلم بالشعر من الأعراب الفصحاء أو الرواة الثقات، وهذا القسم في رأي ابن سلَّام مرفوضٌ متروكٌ؛ لأنه مكذوبٌ موضوعٌ منتحلٌ.

القسم الثالث: في رأي ابن سلَّام هو: ما وقع فيه اختلاف، فنسبه بعض العلماء الأثبات لقبيلة أو لشاعر، ونسبه آخرون لقبيلة أخرى أو لشاعر آخر. وهذا القسم المختلَف فيه يحتاج إلى بحث ونظر وتدقيق وتحقيق؛ لتصحيح نسبته إلى قائله.

والشعر الذي رفضه ابن سلَّام وأكَّد أنه مكذوب موضوع ولا تصح نسبته إلى الجاهليين يتمثل فيما رواه بعض أصحاب السير والقصص في كتبهم، ولم يكونوا من أهل العلم بالشعر، مثل محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السيرة الذي ضمّن كتابه شعرًا باللغة العربية على ألسنة قوم لم يقولوا الشعر قط، بل جاوز ذلك وأورد أشعار منسوبة إلى قبائل عربية بادت كعادٍ وثمود، وهذا بالتأكيد لا يقبله عقل؛ لأن الذين بادوا أخبرنا القرآن بأنهم لم تبقَ منهم باقية، لا يمكن أن تكون الرواية احتفظت بأشعار لهم.

وقد اعتمد ابن سلَّام في إنكار ما رواه ابن إسحاق من الشعر المصنوع المكذوب على ثلاث حجج: هي أن ابن إسحاق لم يكن له علم بالشعر، وأنه كان يعتذر بذلك ويقول: لا علم لي بالشعر وإنما أوتى به فأحمله.

والفرق بين ابن إسحاق وابن سلَّام أن الأول من الرواة النقلة الذين يؤتون بالأخبار والأشعار فيروونها دون تثبّت ودون تحرٍّ ودون نقدٍ، أما ابن سلَّام فهو من الرواة النقدة الذين يحققون الأخبار قبل روايتها ولا يروون الأشعار التي ظهر كذبها وبان بطلانها، ثم أن هذا الشعر الذي أورده ابن إسحاق لا يستحق وصف الشعر، وإنما هو كلام مؤلّف معقود بقوافٍ ليس فيه عاطفة وليس فيه تصوير، فليس جديرًا بأن يدخل في باب الشعر.

ثم إن هؤلاء القوم الذين نسب إليهم ابن إسحاق شعرًا -مثل عاد وثمود- موغلون في القدم، قد قطع الله دابرهم فما أبقى منهم أحدًا، وهكذا كانت الحجج التي بنى ابن سلَّام عليها رفضه لهذا الشعر حججًا قوية مقبولة للعقل المنصف.

ومن الشعر الموضوع الذي رفضه ابن سلَّام كذلك ما زادته بعض القبائل في أشعار شعرائها، فحين فتحت البلاد بالإسلام واطمأن العرب في الأمصار؛ بدأت القبائل تراجع رواية أشعارها وأخبارها وأيامها ووقائعها، فاستقلت بعض القبائل أشعارها وأيامها فزادت شعرًا ونسبته كذبًا إلى شعرائها الأقدمين، وبذلك دخل في الشعر الجاهلي ما ليس منه.

ومن الشعر الموضوع المنتحل عند ابن سلَّام كذلك ما زاده بعض الرواة في أشعار بعض الشعراء، وبخاصة الشعراء القدماء الذين لهم شهرة واسعة في الشعر، بينما الذي تبقى من أشعارهم قليل، ومن هؤلاء الشعراء: طرفة بن العبد، وعبيد بن الأبرص، وقد قال فيهما ابن سلَّام: "وإن كان ما يُروى من الغثاء لهما فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة"، ثم قال: "فلما قلَّ كلامهما حمل عليهما حمل كثير".

ومن أبرز الرواة الذين اتهموا بالوضع والكذب: حمَّاد الراوية.

فهذا البيان من ابن سلَّام يبين أن الشعر الجاهلي فيه قسم صحيح من لا سبيل إلى الشك فيه، وفيه قسمٌ مكذوبٌ موضوعٌ لا يمكن تصديق نسبته إلى أصحابه، وفيه قسم يحتاج إلى بيان وإلى بحث وتمحيص وتدقيق، وبنى ابن سلَّام رأيه فيما رفضه من الشعر الجاهلي على حجج قوية وبيَّن أسباب الوضع الذي جعلت من وضعه يضعه، وبين ابن سلَّام أن حل مشكلة الشعر الموضوع المنتحل المكذوب هو

الرجوع إلى أهل العلم بالشعر وإلى الرواة الثقات ؛ فما أقرّوه فهو الصحيح وما حكموا بزيفه وكذبه فهو زائفٌ مكذوبٌ غير مقبول.

الشك في صحة الشعر الجاهلي عند العرب والمستشرقين

مضى الزمن بالناس يستقبلون الشعر الجاهلي الصحيح النسبة إلى قائله وهم مطمئنون، ويدرسونه ويستشهدون به، إلى أن جاء العصر الحديث، ونظر المستشرقون في تراث العرب، وحققوا منه ما حققوا ونشروا منه ما نشروا، وظهرت مقالاتُهم وكتبُهم تحمل آراءهم في الشعر الجاهلي، وذهب بعضهم إلى التشكيك في هذا الشعر كله، والدعوة إلى اطّراحه جميعه، وقالوا: إن ما يقال عنه أنه شعر جاهلي، هو شعر وُضِعَ في الإسلام أو وُضِعَ بعد الإسلام ونُسِبَ إلى الجاهليين كذبًا وادعاءً، وكان "مارجليوث" هو أكبر من أثاروا هذه القضية من المستشرقين في كتاباته، ونفى أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظت الشعر العربي، وذهب إلى أن الشعر العربي الذي يُنسب إلى الجاهليين كُتب بعد ظهور الإسلام، واحتج "مارجليوث" في رفضه للشعر الجاهلي بأن هذا الشعر لا يُمثل حياتهم الدينية، ولا يمثل حياتهم الاجتماعية، وأنه لا يحمل آثار اختلاف اللهجات التي كانت موجودة في شِبه الجزيرة العربية في القديم.

وهذه الحُجج كلها باطلة وواهية ومردود عليها، لكننا سُنرجئ الكلام على هذه الحجج والرد عليها بعد أن نتحدث عن الباحثين العرب المحدَثين الذين كتبوا في هذه القضية، وتحدثوا عنها.

يأتي في مقدمة هؤلاء مصطفى صادق الرافعي في كتابه (تاريخ آداب العرب) ؛ فقد وقف فيه عند قضية الانتحال في الشعر الجاهلي، وعرضها في حدود ما ذكره

ابن سلَّام وفي حدود ما قرره القدماء بشأنها، لكن الذي فجّر قضية الانتحال بشكل مثير هو الدكتور طه حسين في كتاب ظهر له بعنوان (الشعر الجاهلي)، وقد أحدث هذا الكتاب رجّة عنيفة أثارت كثيرًا من المحافظين والباحثين.

والذي صنعه الدكتور طه حسين في كتابه هو أنه أخذ كلام المستشرقين ورأيهم في الشعر الجاهلي -خاصة المتطرفين منهم- في نفيهم للشعر الجاهلي، وادعائهم بأنه مكذوب وموضوع، فقد كان منهم من خالف في ذلك واقتصد؛ لكن الدكتور أخذ آراء المتطرفين الذين ادعوا أن الشعر الجاهلي كله مكذوب موضوع، فتبنى آراءهم، وشرحها وفصّلها، وفصّل القول في حججهم في كتابه هذا.

ولقد ردَّ عليه كثيرٌ من الدارسين المنصفين، فنقدوا منهجه ونقدوا نتائجه، وممن ردّ عليه الشيخ محمد الخضر حسين، في كتابه (نقد كتاب في الشعر الجاهلي)، والأستاذ محمد الغمراوي في كتابه (النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي)، وكتاب (محاضرات في بيان الأخطاء)، والأستاذ محمد الخضري في كتاب له (محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي)، والأستاذ محمد فريد وجدي في كتابه (نقد كتاب الشعر الجاهلي).

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور طه حسين غيَّر عنوان كتابه هذا (الشعر الجاهلي) وطبعه بعنوان آخر هو (في الأدب الجاهلي).

أما المبررات التي ساقها الدكتور طه حسين في دعواه أن الشعر الجاهلي كله أو أكثره موضوع منتحل **فتتمثل فيما يلي:**

أولًا: أن هذا الشعر في نظره لا يُصوّر الحياة السياسية والدينية والعقلية والاقتصادية لعرب الجاهلية على حقيقتها كما يصوّرها القرآن الكريم.

ثانيًا : أن الشعر الجاهلي لا يصوّر اختلاف اللهجات الذي كان موجودًا بين القبائل العربية ، ولا يمثل الاختلاف الذي كان واقعًا بين لغة أهل الجنوب ، ولغة أهل الشمال من العرب.

وذكر أن الأسباب التي جعلت القدماء ينحلون الشعر إلى الجاهليين ، وأنها تتمثل -في رأيه- في السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة.

ورأى الدكتور طه حسين أن كل عامل من هذه العوامل كان له أثر في عملية الوضع والنحل ، والناظر في هذه الشُّبه وهذه الحجج يرى أنها لا تخرج عن دائرة ما ذكره المستشرقون وما ذكره "مارجليوث" ، والناظر فيما ذكره المستشرقون وما ذكره الدكتور طه حسين في أسباب الوضع والشُّبهات التي جعلتهم يرفضون الشعر الجاهلي جملة وتفصيلًا. الناظر فيها يجد أن كلام ابن سلَّام اشتمل عليها ، أما نقد ما ذهبوا إليه من الحجج والشبهات فهذا بيانه :

قولهم : أن الشعر الجاهلي لا يصوِّر الحياة السياسية والدينية والعقلية والاقتصادية لعرب الجاهلية ، قول مردود.

والحق أن هذا الشعر يصوّر هذه الحياة أصدق تصوير ، ولقد كانت آراء الدكتور طه حسين والمستشرقين في الشعر الجاهلي دافعًا لكثير من الدارسين والباحثين إلى أن يفتّشوا في هذا الشعر ، ويردوا على هذه الدعاوى ، وظهرت مؤلّفات تبيِّن أن الشعر الجاهلي صوّر حياة العرب في الجاهلية أوضح ما يكون التصوير. ومن هذه المؤلفات مثلًا : كتاب الدكتور أحمد الحوفي (الحياة العربية في الشعر الجاهلي).

والذي يريد أن يستخرج شواهد من الشعر الجاهلي تصوّر الحياة السياسية والدينية والعقلية والاقتصادية للجاهليين- سيجد شواهدَ كثيرة ؛ فمثلًا شعر النابغة الذُّبياني في المناذرة وفي الغساسنة ، والشعر الذي صوّر الحروب بين القبائل ؛ ألا يعدّ ذلك كله

تصويرًا للحياة السياسية الجاهلية، وعندما نتحدث عن الدين أليس قسمهم بالله في أشعارهم، وقد ذكر القرآن أنهم كانوا يعرفون الله لكنهم يُشركون به في عبادته. وقالوا عن الأصنام: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

عندما نجدهم يقسمون بالله، ويذكرون الأصنام في أشعارهم، ويذكرون الذبائح والقرابين التي كانت تذبح لهذه الأصنام، أليس ذلك تصويرًا للحياة الدينية عندهم.

وعندما يتحدث الشاعر الجاهلي عن حُبه وعن رحيل محبوبته، وعندما يتحدث الشاعر الجاهلي عن علاقته بقبيلته أو علاقته ببعض أقاربه وعن الخصومات والمنازعات والصلح وتحمّل الثارات والديات.

أليس ذلك كله حديثًا عن الحياة الاجتماعية لهؤلاء الناس.

وليكون كلامنا بالدليل؛ سنذكر الآن شواهد من هذا الشعر: تبين أن الشعر الجاهلي وصفَ البيئة العربية ووصف الحياة العربية في شتى جوانبها وصوّرها أوضح تصوير.

أما عن البيئة:

فإن الشعر الجاهلي مليء بالأشعار التي تصور الصحراء، وتصور حيوانها وطيرها وسرابها وكل شيء فيها. من ذلك مثلًا قول زهير عن الصحراء:

بها العَينُ وَالآرامُ يَمشينَ خِلفَةً ❖ وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِن كُلِّ مَجثِمِ
ووَقَفتُ بها مِن بَعدِ عِشرينَ حِجَّةً ❖ فَلَأيًا عَرَفتُ الدارَ بَعدَ التَوَهُّمِ

ومن ذلك مثلًا قول آخر:

كَم قَطعنا دونَ سَلمى مَهمَهًا ❖ نازِحَ الغَورِ إِذا الآلُ لَمَع
في حَرورٍ يُنضَجُ اللَحمُ بِها ❖ يَأخُذُ السائِرَ فيها كالصَقَع
وَتَخَطَّيتُ إِليها مِن عُدًى ❖ بِزماعِ الأَمرِ والهَمِّ الكَنِع
وَفَلاةٍ واضِحٍ أَقرابُها ❖ بَالِياتٍ مِثلَ مُرفَتِّ القَزَع

فهذا وصف للصحراء وحرّها الشديد وما يكون فيها من سراب يلمع فيحسبه الظمآن ماء فإذا جاءه لم يجده شيئًا.

ولا نريد أن نكرر ما قلناه من أن الشاعر الجاهلي وصف الناقة، ووصف الثور، ووصف الظبي، ووصف بقر الوحش، وصف كل شيء في هذه البيئة التي عاش فيها. أما جوانب الحياة:

فقد وصف الشعر الجاهلي الحياة العقلية للجاهليين، ونشير هنا إلى بعض ملامح هذا الوصف، فإذا كنا نعلم أن الجاهليين كانوا أميين فإن ذلك لا يعني أنهم جميعًا لم يعرفوا الكتابة؛ كان الجاهليون في مجموعهم أميين، لكنهم عرفوا الكتابة على نحو ضيق أو على نحو قليل، وقد وردت في الشعر الجاهلي إشارات إلى الكتابة أو إلى أدواتها، من ذلك مثلًا قول المرقش الأكبر:

الدَّارُ وَحْشٌ والرُّسُومُ كَما ❖ رَقَّشَ في ظَهْرِ الأَدِيمِ قَلَمْ

ومن ذلك مثلًا قول لبيد بن ربيعة العامري:

وَجَلا السُيولُ عَنِ الطُلولِ كَأَنَّها ❖ زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقلامُها

وقول بشر بن أبي خازم الأسدي:

وجدنا في كتاب بني تميم ❖ أحق الخيل بالركض المعار

فكلامهم هذا يدل على أن بعضهم كان يعرف الكتابة. والكتابة أمر يتعلق بالحياة العقلية.

ومما يتعلق بالحياة العقلية كذلك: إشارات الشعر الجاهلي إلى العرَّافين؛ من ذلك قول عروة بن حزام:

جعلت لعراف اليمامة حكمه ❖ وعراف نجد إن هما شفياني

وإشارتهم إلى بعض ما كانوا يتقنونه كقول الشاعر:

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا ❖ مقالة لهبي إذا الطير مرت

ومن ملامح الحياة العقلية كذلك: إشارة زهير:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ❖ ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
ومهما تكن عن امرئ من خليقة ❖ وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

أما الشعر الجاهلي الذي يصوِّر الحياة الروحية للعرب أو الحياة الدينية؛ فإننا نستشهد منه بما يلي: يقول زهير:

فَلا تَكتُمُنَّ اللَّهَ ما في نُفوسِكُم ❖ لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللَّهُ يَعلَمِ
يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر ❖ لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

وقوله كذلك:

رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب ❖ تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ

وهذه الأقوال لزهير تبين أن عنده علمًا بالآخرة والحساب، وعنده معرفة بالله؛ لكن عقيدته غير كاملة وغير صحيحة تمامًا؛ لأن حديثه عن الموت يصوّر المنية بأنها خبط ناقة عشواء لا ترى من تصبه تمته ومن تخطئه يعمّر.

التصور العقدي الإسلامي الصحيح يجعل المرء يعتقد أن الموت يجري بقدرٍ محكم، فليست المسألة خبط عشواء ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

ومما يصور ملامح الحياة الروحية عند الجاهليين أو الحياة الدينية قول شاعرهم:

وباللاة والعزى ومن دان دينها ❖ وبالله إن الله منهن أكبر

فهذا يقسم بالأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويقولون: ما نعبدها إلا لتقربنا إلى الله زلفى. ومن هذا الشعر كذلك قول النابغة الذبياني:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ❖ وليس وراء الله للمرء مذهب
ألم ترَ أن الله أعطاك سورة ❖ ترى كل ملك دونها يتذبذب

أما الشعر الجاهلي الذي يصوّر حياتهم الاجتماعية فكثير جدًّا؛ منه الغزل ومنه المديح ومنه العتاب والاعتذار والرثاء، فكل هذه الأشعار ناتجة عن العلاقات الاجتماعية بين الناس، ولقد كانت المرأة أحد الموضوعات المهمة التي دار حولها شعر كثير؛ فالشاعر الجاهلي يصف جمالها، ويُعرب عن حزنه لرحيلها، ويُجدّ في البحث عنها، ولحضور المرأة العربية في الشعر الجاهلي حضورًا شديدًا وواضحًا كتب الدكتور أحمد الحوفي أيضًا كتابًا عن المرأة في الشعر الجاهلي.

وهل حديث عنترة بن شداد عن حبه عبلة وتعلقه به إلا إلماحًا إلى طرف من هذه الحياة. وما رأيك في قول الشنفرى عن الصفات الخلقية التي كان يريدها في زوجته؛ إذ يقول:

لَقَد أعجَبَتني لا سَقو ـاً قِناعُها ❖ إذا ما مَشَت ولَا بِذاتِ تَلَفُّتِ
تَبيتُ بُعَيدَ النَوم تُهدي غَبوقَها ❖ لِجارَتِها إذا الهَدِيَّةُ قَلَّتِ
تَحُلُّ بِمَنجاةٍ مِنَ اللَومِ بَيتَها ❖ إذا ما بُيوتٌ بِالمَذَمَّةِ حُلَّتِ
إذا هُوَ أمسى آبَ قُرَّةَ عَينِهِ ❖ مَآبَ السَعيدِ لَم يَسَل أينَ ظَلَّتِ

وهل شعر الخنساء في رثاء أخيها صخر إلا إلماحًا إلى طرف من هذه الحياة الاجتماعية.

ومن الشعر الذي يدل على ملامح حياتهم الاجتماعية كذلك أشعارهم في الخمر ووصفهم لمجالسها، كما قال عمرو بن كلثوم في بداية معلقته:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ❖ ولا تُبقي خمور الأندرينا

وكما قال طرفة بن العبد:

وما زال تشراب الخمور ولذة ❖ وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلد

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ❖ وأفردت إفراد البعير المعبَّد

ومن هذا الشعر أيضًا الأشعار التي تُشير إلى عاداتهم التي كانت شائعة فيهم، كقول أحدهم:

إني وقتلي سليكًا ثم أعقله ❖ كالثور يضرب لما عافت البقر

وقول بشر بن أبي خازم مشيرًا إلى عادة كانت شائعة فيهم:

تظل مقاليت النساء يطأنه ❖ يقلن ألا يلقى على المرء مأزره

كل هذا وغيره من الشعر الذي صوّر حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية والعقلية. فهل يجوز بعد هذا كله أن يذهب ذاهب إلى القول بأن الشعر الجاهلي كله موضوع مكذُوب منتحل؛ لأنه لم يصوّر حياة العرب؟!!!.

وأما الشبهة اللغوية: وهي أن الشعر الجاهلي لا يمثل الاختلاف الذي كان قائمًا بين اللهجات العربية الموجودة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فالرد عليها يتمثل في: أن هذه اللهجات أو تلك اللغات كانت قد توحّدت في لغة قريش؛ تمهيدًا لنزول القرآن بها، فالله ﷻ جمع العرب على لغة قريش قبل أن ينزل القرآن، وكان شعراء الشمال وشعراء الجنوب جميعًا إذا اجتمعوا في الأسواق والمواسم ينشدون أشعارهم بلغة واحدة هي اللغة القرشية.

ولقد كانت هناك عوامل أدت إلى سيادة هذه اللغة، ترجع إلى مكانة قريش السياسية والدينية والاقتصادية في شبه الجزيرة العربية. فلا يجوز لأحد بعد ذلك أن يرفض الشعر الجاهلي؛ لأنه لا يُمثل اللهجات التي كانت موجودة في شبه جزيرة العرب.

ويمكن أن نقيس أمر العربية في القديم على أمرها في الحديث، فنحن الآن -مثلًا- نتكلم لغة عربية واحدة في الخليج العربي، وفي المغرب العربي، وفي مصر، وكل قطر له لهجته الخاصة به.

وأما ما يقال عن وضع الرواة ووضع القبائل؛ فقد أشار ابن سلَّام إلى حل هذه المشكلة متمثلًا في أن النقاد الأثبات أصحاب النظر يستطيعون أن يميزوا الدخيل والموضوع والمنحول من الأصيل، وبذلك تسلم للشعر العربي الجاهلي طائفةٌ كبيرة لا يمكن التشكك فيها ولا يمكن الادعاء بأنها منتحلة.

مناهج الدراسات الأدبية وتطبيقها على الشعر الجاهلي

لقد قامت حول الشعر الجاهلي دراسات كثيرة ومتنوعة في القديم وفي الحديث، واتخذت هذه الدراسات مناهج متعددة: من هذه المناهج:

المنهج اللغوي:

وفيه يُعنى المؤلفون بالجانب اللغوي متمثلًا في شرح المفردات وبيان معانيها وبيان أوجه الإعراب، وأكثر القدماء اتخذوا هذا المنهج في شرح الشعر الجاهلي، وهذا مثالٌ من شرح أبي البقاء العكبري للامية العرب، يقول بعد أن يورد بيت الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ❖ فإني إلى قوم سواكم لأميل

يقول: الكلام في هذا البيت على ثلاثة أشياء على الفاء وعلى "سوى" وعلى "أميل"؛ فأما الفاء فإن فيها تنبيهًا على أن ما قبلها علة لما بعدها، ولذلك وقعت في جواب الشرط، وقد تدل على ربط الشيء بما قبله. والمعنى: أن غفلتكم وإهمالكم توجب مفارقتكم. وأما "سوى" فهي ها هنا صفة لـ"قوم" في موضع جرٍّ آخر، وأكثر ما تقع ظرفًا، وقد تقع فاعلًا كقول الآخر: ولم يبقَ سوى العدوان، وأما "أميل" فهو أفعل بمعنى فاعل، كما جاء "أكثر" بمعنى: كثير، و"أوحد" بمعنى: واحد. وليس المراد: أني أكثر ميلًا، وأما "إلى" فمتعلق بأميل لما فيها من معنى الفعل، ولا يمنع من ذلك لام التوكيد؛ لأنها مؤكّدة لمعنى الفعل، وقد قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨] انتهى.

المنهج التاريخي:

ومنه كتابات الدكتور شوقي ضيف عن تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، وكتابات الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ككتابه (قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي).

المنهج التحليلي الوصفي:

منهج التذوق:

وقد يجتمع منهجان أو أكثر في دراسة واحدة، وذلك واضح في كثير من الدراسات الحديثة، التي تتخذ التاريخ وتتخذ الوصف والشرح اللغوي والتذوق الفني، وتجمع بينها للإبانة عن موضوع من موضوعات هذا الشعر،

أو دراسة قضية من قضاياه، فأنت عندما ترجع إلى كتابٍ يتحدث عن الأدب الجاهلي وتراه يترجم لأعلامه ويبحث في تاريخ الظواهر والقضايا لهذا الأدب؛ فإن هذا من التاريخ، وعندما يحلل نصًّا لشاعر من الشعراء ويشرحه ويبين موضوعه ويقف عند صوره؛ فهذا من المنهج الفني التحليلي، وعندما يتحدث عن عاطفة الشاعر والدوافع النفسية التي تكمن وراء القول؛ فهذا من المنهج النفسي في دراسة الأدب.

وأنا الآن أدلك على فصل في كتاب الدكتور شوقي ضيف، يتحدث فيه عن الشعراء الفرسان، يقول مثلًا: رأينا القبائل في الجاهلية تعيش معيشة حربية فهي كتائب تنزل للرعي، وفي الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كي تدفع خصومها عن مراعيها، أو تغير عليهم وتسبي نساءهم، وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل، وكانوا يحاربون راجلين وركبانًا على الإبل والخيل، وكانوا يرون في الثانية مزية على الأولى لسُرعتها في الطراد والإغارة؛ فأحبوها وعُنوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها، وترويضها للحروب والسباق.

وقد دارت أوصافهم لها في شعرهم الجاهلي، فلم يكادوا يتركون عضوًا من أعضائها إلا وصفوه ولا خصلة ولا عيبًا إلا ذكروها، وفي معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيلهم. وممن اشتهر بوصفها أبو دؤاد الإيادي، وطفيل الغنوي، وسلامة بن جندل التميمي.

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولةً نادرة في حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم وهم كثيرون؛ فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلًا، وكيف يقفزون عليها ويُشهرون سيوفهم

ويلوحون برماحهم، وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم، وتلقانا دائمًا أسماءهم وخاصة في حروبهم الطويلة، مثل: حرب البسوس، وفارسها المهلهل التغلبي، وهو الذي أشعل نيرانها ثأرًا لأخيه كليب. ويقال: إنه أول من هلهل الشعر وأرقّه أي: جعله رقيقًا. وشعره يدور في رثاء أخيه وتوعُّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة، ولا فتكًا عن هزائمها السابقة. وكانت الحرب كما قدمنا - يقول الدكتور شوقي ضيف في غير هذا الموضع - بين بكر وقبيلته تغلب سجالًا؛ تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك، وكان لا يني يحمِّس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال مُفصِحًا في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام، واسمعه يقول:

وَأَنّي قَد تَرَكتُ بِوارِدَاتٍ ❖ بُجَيرًا في دَمٍ مِثلِ العَبيرِ
وَهَمّامَ بنَ مُرَّةَ قَد تَرَكنا ❖ عَلَيهِ القُشعُمانِ مِنَ النُسورِ
وصبحنا الوخوم بيوم سوء ❖ يدافعن الأسنة بالنحور
فَلَولا الريحُ أُسمِعُ مِن بِحُجرٍ ❖ صَليلَ البيضِ تُقرَعُ بِالذُكورِ

وإلى ما قبل الأبيات كان كلام الدكتور شوقي ضيف كله ينحى منحى تاريخيًّا، فلما ذكر الأبيات فسَّر غريبها وشرح مفرداتها في الهامش فقال: "واردات: موضع سُميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس. والعبير: الزعفران. والقشعم من النسور: الضخم. وهمام: أخو جساس قاتل كليب. والوخوم: عشيرة من بكر. وعنيزة: موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس. وحجرٌ: قرية باليمامة. والبيض: خوذ الحرب. يقرع: يضرب. والذكور: أجود السيوف وألبسها وأشدها".

وهذا كما ترى من المنهج اللغوي، ويعلق الدكتور شوقي ضيف على الأبيات فيقول: وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة "واردات" وموقعة "عنيزة"، وقد قتل في الأولى بجير بن الحارث بن عُباد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جساس، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطلته بكرٌ من حرِّ اللقاء.

وهذا التعليق والتعقيب والشرح يندرج تحت المنهج التحليلي.

والمنهج المتكامل هو الذي يجمع بين المناهج جميعًا في دراسة القضية أو دراسة النص أو دراسة الموضوع، حتى يستوفيه من جميع جوانبه: اللغوية، والتاريخية، والنفسية، والاجتماعية... وهكذا يفعل كثيرٌ من الدارسين في العصر الحديث. فالدكتور يوسف خُليف -مثلًا- في كتابه (الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي) يجمع في هذا الكتاب بين عدة مناهج، يتضح هذا الجمع من استعراض أبواب الكتاب وفصوله؛ إذ يأتي: الباب الأول بعنوان "الصعاليك".

وفصله الأول: التعريف بالصعلكة في اللغة وفي الاستعمال الأدبي وفي المجتمع الجاهلي.

الفصل الثاني: التفسير الجغرافي لظاهرة الصعلكة، ويتحدث فيه عن أهمية العامل الجغرافي وأثره في نشأة حركة الصعاليك.

والفصل الثالث: التفسير الاجتماعي لظاهرة الصعلكة.

ويأتي الفصل الرابع بعنوان: التفسير الاقتصادي لظاهرة الصعلكة.

ويأتي الباب الثاني بعنوان "شعر الصعاليك".

وفصله الأول: ديوان الصعاليك.

والفصل الثاني: موضوعات شعر الصعاليك، ويتحدث فيه عن الموضوعات التي قال فيها الصعاليك الشعر.

ثم يأتي الفصل الثالث بعنوان "الظواهر الفنية في شعر الصعاليك" يتحدث فيها عن الوَحدة الموضوعية والتخلص من المقدمات الطللية وعدم الحرص على التصريع، وعن التحلل من الشخصية القبلية، وعن القصصية والواقعية والسرعة الفنية، وآثار الصنعة المتأنية، وعن الخصائص اللغوية، وعن الظواهر العروضية في ذلك الشعر.

ثم يأتي الفصل الرابع من هذا الباب بعنوان: شخصيتان متميزتان، أفرد في هذا الفصل علَمين من أعلام الصعاليك بدراسة، وهما: عروة بن الورد، والشنفرى.

وهكذا تجد في هذا الكتاب جمعًا بين مناهج متعددة في دراسة الشعر الجاهلي.

نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة
مختارات من معلقة طرفة بن العبد

عناصر الدرس

العنصر الأول :	التعريف بالشاعر: طرفة بن العبد	٨٥
العنصر الثاني :	عرض القصيدة، وبيان معانيها	٨٥
العنصر الثالث :	بعض مواطن الجمال في القصيدة	٩٤

التعريف بالشاعر: طرفة بن العبد

طَرَفة بن العبد: هو: عمرو بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن بكر بن وائل، شاعرٌ جاهليٌّ مشهورٌ. لقبُه طَرَفة.

نشأ هذا الشاعر يتيمًا ولم يُعمر طويلًا. وقد اختلف الرواة في تحديد سِنه؛ ولكن الأقوال كلها لم تهبط بسنه إلى ما دون العشرين، ولم تصعد بها فوق السادسة والعشرين، وقد مات هذا الشاعر مقتولًا، وشعره من الطبقة الأولى في الشعر الجاهلي، ويُعد طرفة أحسن من وصف الناقة في هذا الشعر.

عرض القصيدة، وبيان معانيها

أما معلقته؛ فإنها تبدأ بالوقوف على الديار مطلعها:

لِخَولَةَ أَطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ❖ تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ
وُقُوفًا بها صَحبي عَليّ مَطِيَّهُمْ ❖ يَقُولون لا تَهلِكْ أسىً وَتَجلّدِ

وتستغرق المقدمة الطللية والغزلية عشرة أبيات من القصيدة؛ إذ إنه بعد أن يذكر الوقوف على الديار ينتقل إلى الغزل -وهو غزلٌ قصيرٌ- ويبدو أنه غزلٌ تقليدي، وصف فيه المرأة بالجمال، وخاصة جمالَ الفمِّ وبياضَ الأسنان، وذكر وجهها ووصفه بالبهاء فقال:

وَوَجهٌ كَأَنَّ الشّمسَ أَلْقَتْ رِداءَها ❖ عَلَيْهِ نَقيُّ اللّونِ لَمْ يَتَخَدّدِ

وبعد هذه المقدمة انتقل طرفة إلى وصف الناقة، وبدأ هذا الوصف بقوله:

وَإنّي لأُمضِي الهَمّ عِنْدَ احْتِضارِهِ ❖ بعوجَاءَ مِرقالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

وقد استغرق وصف الناقة في المعلقة ثلاثين بيتًا، وهو من أحسن الوصف وأتمه للناقة في الشعر الجاهلي، لا يبارى طرفة في وصفه للناقة؛ لقد وصفها وصفًا تفصيليًّا وقف عند كلِّ أعضائها وكل أجزائها:

وَإنيّ لأُمضِي الهَمّ عِنْدَ احْتِضارِهِ ❖ بعوجَاءَ مِرقالٍ تَرُوحُ وَتَغْتَدِي

والعوجاء: الناقة الضامرة، والإرقال: نوع من المشي بين السير والعدو. و"تروح وتغتدي" أي: تصل سير النهار بسير الليل. ثم يقول عنها:

أمُونٍ كألواحِ الإِرَانِ نَصَأْتُها ❖ على لاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ

يقول: إنها ناقة أمون: يؤمن عثارها، والإران: التابوت العظيم، وكانوا يحملون فيه ساداتهم وكبراءهم عند الموت، ونصأتها، أي: زجرتها، واللاحب: الطريق الواسع، والبرجد: الكساء المخطط، شبه الطريق به. ثم قال عن هذه الناقة:

جَمالِيَّةٍ وَجْنَاءَ تَردي كَأنَّها ❖ سَفَنَّجَةٌ تَبري لأَزْعَرَ أرْبَدِ

والجمالية، أي: تشبه الجمل في قوتها، والوجناء، أي: مكتنزة اللحم، والسفنّجة: النعامة، وتبري، أي: تعرض وتنبري، والأزعر الأربد: ذكر النعام الذي لا شعر عليه والذي يميل لونه إلى لون التراب. وهو هنا يصفها بالقوة ويصفها بالسرعة.

ثم ينتقل طرفة بعد ذلك إلى الوصف التفصيلي والوقوف عند أعضاء الناقة وأجزائها، مما وصفه فيها: فخذاها، فيقول:

لها فَخِذانِ أُكْمِلَ النَّحضُ فِيهِما ❖ كأنَّهُما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ

والنحض: اللحم المكتنز، والمُنيف: يريد باب قصر عالٍ، والممرد: المصقول؛ فالشاعر يشبّه فخذي الناقة بالبابين الضخمين.

ثم يصف مرفقيها، فيقول:

لَهَا مِرْفَقَانِ أَفْتَلَانِ كَأَنَّهَا ❖ تَمُرُّ بِسَلْمَيْ دالِجٍ مُتَشَدِّدِ

وأفتلان، أي: قويان شديدان، وهو هنا يصف مرفقيها بتباعد المسافة بينهما وقوتهما.

ثم يصف عنقها، فيقول:

وَأَتْلَعُ نَهَّاضٌ إذا صَعَّدَتْ بِهِ ❖ كسُكّانِ بُوصيّ بدِجلَةَ مُصعِدِ

الأتلع: العنق الطويل، والنهّاض: كثير النهوض، والنهوض: هو القيام في يقظة ونشاط، والسُّكان - يقول الشُّرَّاح: أنه ذنب السفينة، والبوصي: ضرب من السفن أو نوع منها، ودجلة: النهر المعروف بالعراق، و"مصعد" المراد به هنا: مرتقٍ يعلو؛ فهو يصف عنقها بأنه كثير النهوض كثير العلو إلى أعلى، ويشبهه بسكان السفينة التي تسير في نهر دجلة.

ومما وقف عنده طرفة في وصفه للناقة: الجمجمة، فيقول:

وجُمجُمَةٌ مِثلُ العَلاةِ كَأَنَّما ❖ وَعي المُلتَقَى منها إلى حَرْفِ مِبرَدِ

والجمجمة: هي عظم الدماغ، والعلاة: الحديدة التي يطرق عليها الحداد، والوعي هنا: الاجتماع والانضمام، والملتقى: مكان الالتقاء، والحرف: الطرف والناحية، والمبرد: ما يبرد به الحديد. يقول: إن رأسها صلب كأنه حديدة العلاة، وأماكن التجمع والتداخل بين عظام هذه الرأس غاية في الدقة والمتانة؛ كأنها أطراف مبارد من حديد، وهذه الصورة تدل على صلابة رأسها.

ثم يصف عينيها فيقول:

وعَينانِ كالمَاوِيّتَينِ استَكَنّتَا ❖ بكَهْفَيْ حِجَاجَيْ صَخْرَةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ

والماويتان: تثنية ماوية: وهي المرآة، استكنتا: استقرتا واستترتا، والكهف: هو الغار في الجبل، والحِجاج: هو العظم الذي ينبت عليه الحاجب، والقلت: الحفرة الصغيرة تكون في الصخرة يتجمع فيها الماء، والمورد: المنهل، وهو يريد أنها مكان لورود الماء. والمعنى: أنه يشبّه عيني الناقة بمرآتين تلمعان وتبرقان، وهاتان العينان صافيتان مثل عين الماء الصافية.

ومما وقف عنده طرفة في وصفه للناقة كذلك: أذناها؛ فوصفهما بقوله:

وصادِقَتا سَمعِ التَّوجّسِ للسُّرَى ❖ لِهَجْسٍ خفيٍ أوْ لِصَوْتٍ مُنَدِّدِ

التوجس: التسمّع للصوت الخفي، والسرى: سير الليل، والهجس: الصوت الخفي الذي يسمع ولا يفهم، والصوت المندد: هو الصوت العالي، يصف أذنيها بأنها تتسمع ما خفي من الأصوات في ظلمة الليل، وإذا كانت تسمع الصوت الخفي؛ فهي -من باب أولى- تسمع الصوت المرتفع.

ثم وصف قلبها فقال:

وَأَرْوَعُ نَبّاضٌ أَحَذُّ مُلَملَمٌ ❖ كَمِرْداةِ صَخْرٍ في صَفيحٍ مُصَمَّدِ

الأروع: القلب الذكي الذي يتوقد فطنة وذكاءً، وكأنما لشدة تنبهه يرتاع ويفزع لكل شيء، والنباض: الكثير الحركة، والأحذُّ: الذكي، الململم: المجتمع الخلق الشديد الصلب، والمرداة: التي تحطم بها الصخور، والصفائح: الأحجار العراض، والمصمد: المحكم الموثق. يقول: إن قلب هذه الناقة شديد الحساسية والفطنة والتنبه والذكاء، وهو كثير الحركة ومجتمع الخلق؛ كأنه في شدته ومتانته صخرة من حجر المرداة.

وبعد ذلك وصف طرفة أنف ناقة، ووصف سيرها، ووصفها في كل ذلك بالقوة والنجابة والسرعة.

ثم بعد ذلك قال :

على مِثلِها أمضي إذا قالَ صاحبي ❖ ألا لَيتَني أفديك مِنها وَأفْتَدِي

قال : على مثل هذه الناقة يمضي ويسير في رحلته في الصحراء.

وبعد هذا الوصف المفصل للناقة انتقل طرفة إلى الفخر ، بدأ طرفة فخره بنفسه في معلقته بقوله :

إذا القومُ قالوا مَن فتًى خِلتُ أنَّني ❖ عُنيتُ فَلَمْ أكْسَلْ ولم أتَبَلَّدِ

والمعنى : أن القوم إذا تساءلوا عن الفتى الذي يفزعون إليه في الشدة خيل إليه أنه المقصود بسؤالهم ، فهمَّ نشيطًا لإجابتهم فيما يريدون.

وفخر طرفة بنفسه في هذه المعلقة فخر ذاتي ، لم يفتخر بقبيلته وإنما افتخر بصفاته الشخصية ؛ فهو شجاع كريم مقبلٌ على الحياة يشبع نفسه من ملذاتها ، سريع النجدة لمن يستغيث به ، لا يحجز معروفه ونجدته عن أحد ، ولا يبخل بما في يده عن قومه ، يقول طرفة عن نفسه :

ولَسْتُ بِحَلَّالِ التّلاعِ مَخَافَةً ❖ ولكِنْ متى يَسترْفِدِ القومُ أرفِدِ

يقول : إنه لا يذهب إلى الأماكن التي يختفي فيها عن عيون الناس ؛ ولكن مكانه معروف لكل من يريده ، وهو إذا استرفد ، أي : سئل العطاء أعطى ، ثم يقول :

فإنْ تَبغني في حَلَقَةِ القَوْمِ تَلْقَني ❖ وإن تَقتَنِصْني في الحَوانيتِ تَصطدِ

وإنْ يَلْتَقِ الحَيُّ الجَميعُ تُلاقِني ❖ إلى ذِرْوَةِ البَيتِ الرَّفيعِ المُصمَّدِ

ويفتخر طرفة برفاقه الذين ينادمهم ويسامرهم ويتحدث عن إسرافه في شرب الخمر وفي إقدامه وإلقائه بنفسه في مواقف الخطر ؛ حتى إن قومه لاموه على ذلك يقول :

وما زالَ تَشرابي الْخُمُورَ ولَذّتي ❖ وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أنْ تَحامَتني العَشِيرةُ كُلُّها ❖ وأُفرِدْتُ إفرادَ البَعيرِ المُعَبَّدِ

وكأنه لم يرضَ بأن يلومه قومه على هذا المسلك ؛ فرد على من يلومه قائلًا :

ألا أيّهذا اللائِمِ أحْضُرَ الوَغَى ❖ وَأَنْ أشْهَدَ اللّذاتِ هل أنتَ مُخلدِي
فإنْ كُنْتَ لا تَسْتطيعُ دَفعَ مَنِيَّتِي ❖ فَدَعْني أُبادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي
ولَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ من عِيشَةِ الفَتى ❖ وَجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قامَ عُوَّدِي
فَمِنْهُنَّ سَبقي العاذلاتِ بشَرْبَةٍ ❖ كُمَيتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وَكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبًا ❖ كَسِيْدِ الغَضا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وَتقصيرُ يومِ الدَّجْنِ الدَّجْنُ مُعْجِبٌ ❖ بِبَهكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ

في هذه الأبيات يقول طرفة لمن يلومه على إسرافه في الإقبال على الحياة وانتهاب ملذاتها، يقول لمن يلومه على كثرة شربه الخمر وعلى كثرة إقدامه إلى مواقع الخطر، يقول :

يا مَن تلومني على ذلك، هل أنت مخلدي؟ هل تضمن لي الخلود في الحياة؟ ولن يستطيع أحد بطبيعة الحال أن يخلد طرفة أو غيره في الحياة، فيقول طرفة لمن يلومه : إذا كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني، فاتركني أبادرها بما ملكت يدي، خلِّ ما بيني وبين الحياة ؛ أنتهب لذاتها وأتمتع بشهواتها قبل أن يباغتني الموت.

ويعدد طرفة في هذه الأبيات المتع التي من أجلها يحب الحياة ويحرص عليها، ولولاها لم يكن ليبالي متى يأتيه موته.

وهذه المتع الثلاث : هي شربه الخمر، وكرُّهُ في الحرب، وتقصير يوم الدجن ببهكنة تحت الطراف المعمد، والبهكنة : هي المرأة الحسنة الممتلئة، يقول طرفة : إنه يحب هذه المتع ويُقبل عليها، ولا يقبل من يلومه أن يلومه ؛ لأن الذي يلومه

لا يستطيع أن يخلده في الحياة، وهو يريد أن يسبق الموت، فيستمتع بهذه المتع قبل أن يأتيه الموت.

ثم بعد ذلك يحتج لنفسه بما يراه وبما يعرفه، فيقول:

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ في حَياتِهِ ❖ سَتَعْلَمُ إنْ مُتْنَا غدًا أيُّنا الصَّدِي

يقول لمن يلومه: إنه كريمٌ يُروِّي نفسه في الحياة قبل الموت؛ لأن الذي يلومه سيعلم بعد الموت أيهما كان المحروم؛ ثم يقول طرفة:

أرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ ❖ كَقَبْرِ غَوِيٍّ في البِطَالَةِ مُفْسِدِ

ترَى جُثْوَتَينِ مِنْ تُرابٍ عَليهِما ❖ صَفائِحُ صُمٌّ مِنْ صَفيحٍ مُنَضَّدِ

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطفي ❖ عَقيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

أرى العيشَ كَنزًا ناقصًا كلَّ لَيلَةٍ ❖ وما تَنْقُصِ الأيَّامُ والدَّهرُ يَنفَدِ

لَعَمرُكَ! إنَّ الموتَ ما أخطأ الفتى ❖ لكالطِّوَلِ المُرْخى وثِنياهُ باليَدِ

متى ما يشأْ يَوْمًا يقده لحتفه ❖ ومَنْ يَكُ في حَبْلِ المَنيّةِ يَنْقَدِ

وطرفة في هذه الحجج يحتج لنفسه ومسلكه وإقدامه على انتهاب ملذات الحياة قبل إن يدركه الموت- بأنه يرى قبر البخيل وقبر الكريم سواء؛ كلاهما كومة من تراب، عليها حجارة تغطي من فيها.

وهو يرى الموت يغتال الكرام ولا يستثني منهم أحدًا، وهو يرى الفناء يأتي على أموال الأغنياء وأموال الكرماء وأموال البخلاء، على السواء؛ فهو يرى الحياة إلى زوال، ويرى العيش كنزًا ناقصًا كل ليلة، ويرى أن المرء في حبل المنية مشدود بها كما تربط الدابة في حبل من يقودها، وأن القدر يشد هذا الحبل -حبل المنية- يقود المربوط به متى ما يشاء القدر ذلك؛ كأن كل واحد من الناس مصيره إلى الموت لا محالة فعلام إذًا يلومه من يلومه؟!.

ثم يقول - ذاكرًا ما بينه وبين ابن عمه مالك من خلاف أسري، ويبدو أن ابن عمه كان يلومه - فقال:

فَما لِي أراني وابنَ عَمّيَ مالِكًا ❖ متى أَدْنُ منهُ يَنْأَ عَني ويَبْعُدِ
يَلُومُ وما أدري عَلامَ يَلُومُني ❖ كما لامَني في الحَيِّ قُرطُ بنُ معبَدِ

وينفي طرفة عن نفسه أن يكون أذنب، أو أن يكون أتى بفعل يستحق عليه لوم ابن عمه مالك أو لوم غيره من الناس، ويبدي تضرره وألمه من ظلم أقاربه له، فيقول:

وظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدّ مَضاضَةً ❖ على النفسِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

لقد صار هذا البيت في الناس وأصبح حكمة، "وظُلمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدّ مَضاضَةً" أي: أشد ألمًا، "على النفسِ مِنْ وَقعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ" أي: أشد ألمًا وأشد تأثيرًا من تأثير السيف القاطع وألمه إذا أصاب الجسم، ثم يعود طرفة إلى الفخر بنفسه فيقول:

أنا الرَّجلُ الضَّربُ الذي تَعرِفُونَهُ ❖ خَشاشٌ كَرَأسِ الحَيّةِ المُتَوَقِّدِ
فآلَيتُ لا يَنفَكُّ كَشحي بِطانَةً ❖ لِعَضْبٍ رَقيقِ الشّفرَتَينِ مُهَنّدِ
حُسامٍ إذا ما قُمتُ مُنتَصِرًا بهِ ❖ كَفَى العَودَ منهُ البَدءُ ليس بمعضَدِ
أخي ثِقَةٍ لا يَنثَني عَنْ ضَرِيبَةٍ ❖ إذا قيلَ مَهلًا قالَ حاجزُهُ قَدِي
إذا ابْتَدَرَ القَوْمُ السّلاحَ وَجَدْتَني ❖ مَنيعًا إذا بَلّتْ بقائِمِهِ يَدِي

وقوله: "أَنا الرَّجلُ الضَّربُ"، الضرب، أي: الخفيف من الرجال الذي برئ من كثرة اللحم والكسل، والخشاش: هو الماضي في الأمور السريع إلى ما يريد، وشبّه نفسه برأس الحية المتوقد؛ لأن رأس الحية سريع الحركة، والمتوقد: الذكي المتنبه، وقوله: آليت لا ينفك كشحي بطانة، أي: حلفت، لا ينفك، أي: يبقى

دائمًا، والكشح: هو الخاصرة، أو ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي، والمقصود به مكان وضع السيف في الجنب، يقول: إنه حلف ألا يترك سيفه، وألا يفارقه هذا السيف البتّار الماضي، وهذا السيف صاحبه يثق في مضائه وحدته إذا سلّه وضرب به لا يخيب، إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعًا، أي: أحمي به نفسي إذا بلت بقائمه يدي: إذا استللته وأمسكته بيدي.

ثم بعد ذلك يتوجه طرفة بالخطاب إلى ابنة أخيه فيقول:

فإنْ مُتُّ فانعَيني بما أنا أهلُهُ ❖ وشُقّي عَليَّ الجَيبَ يا ابنَةَ مَعبَدِ
ولا تَجعَليني كامرئٍ لَيسَ هَمُّهُ ❖ كَهَمّي وَلا يُغني غَنائي وَمَشهَدي
بَطيءٍ عَنِ الجُلّى سَريعٍ إلى الخَنا ❖ ذَلولٍ بأجْمَاعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ
فَلَوْ كنتُ وَغلًا في الرِّجالِ لضَرَّني ❖ عَداوَةُ ذي الأصحابِ والمُتوَحِّدِ
ولكِنْ نَفَى عَنّي الرجالَ جَراءتي ❖ عَلَيهِم وَإقدامي وَصِدقي وَمَحتِدي
لَعَمرُكَ ما أمْري عليَّ بغُمَّةٍ ❖ نَهاري ولا لَيلي عَليَّ بسَرْمَدِ

وقوله: "فإنْ مُتُّ فانعَيني بما أنا أهلُهُ": يطلب من ابنة أخيه أن تشيع خبر موته عند موته، وتوجهه إلى ابنة أخيه لأنه لم يكن صاحب زوجة ولا ولد، والهم: العزم والقصد. "لا تجعليني كامرئ ليس همه كهمي": لا تسوي بيني وبين امرئ لا يساويني ولا يشبهني. لا تسوي بيني وبين البطيء عن الأمر العظيم، السريع إلى الفحش والفساد، الذليل المقهور، الذي يزجره الرجال ويطردونه.

ثم يقول بعد ذلك: "فَلَوْ كنتُ وَغلًا"، أي: لو كنت مهينًا ضعيفًا، الوغل: هو الضعيف، يقول: لو كان ضعيفًا لضرته عداوة الرجل الذي له أصحاب أو الرجل الذي ليس له أصحاب، ثم يقول: إن الذي نفى الرجال عنه وأبعدهم عنه، وجعله متروكًا منهم: أنه جريء وأنه مِقدام، وأنه صادق، وأنه ذو أصل قوي.

أما قوله:

لَعَمرُكَ ما أمْرِي عليَّ بغُمَّةٍ ❖ نَهاري ولا لَيلي عَليَّ بسَرْمَدِ

فقوله: لعمرُك: قسم، والأمر: هو الشأن وكل ما يهم ويعني الإنسان، والغمة: الأمر المبهم الملتبس، والسرمد: الدائم غير المنقطع. يقول: إن أمره لا يلتبس عليه في نهاره أو في ليله، وأن أي أمر يعرض له يستطيع فهمه والقيام به.

ويختم طرفة معلقته بقوله:

أرَى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى ❖ بعيدًا غدًا ما أقربَ اليوم من غدِ
ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلًا ❖ وَيَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ ❖ بَتاتًا ولم تَضرِبْ لهُ وَقتَ مَوعِدِ

ونحن إذ نقرأ هذه الأبيات في نهاية هذه المعلقة، ندرك أمر الموت كان شاغلًا جدًّا لهذا الشاعر وكان مسيطرًا على تفكيره في خلال القصيدة وفي نهايتها.

بعض مواطن الجمال في القصيدة

العناصر التي يتكون منها الشعر:

الألفاظ والأساليب:

وأول ما يلفت النظر في هذه المعلقة: أننا نشعر بغرابة في ألفاظها خاصة في الجزء الذي وصف فيه طرفة الناقة، ومن الضروري أن نعلم أن هذه الغرابة هي بالنسبة لنا نحن في هذا العصر، أما الجاهليون فلم يكونوا يشعرون بغرابة هذه الألفاظ؛ لأنهم كانوا يستخدمونها استخدامًا كثيرًا ويفهمونها ويفهمون المراد بها، ولكن لأننا يفصلنا عنهم زمن طويل نحتاج في معرفة معاني هذه المفردات إلى الرجوع إلى المعاجم اللغوية.

ونلاحظ أن هذه الغرابة تخفّ في كلام الشاعر عن نفسه مفتخرًا، وفي كلامه عن الموت فلا نجد ألفاظًا غريبة في فخره ولا نجد ألفاظًا غريبة في حديثه عن الموت وعتابه لمن يلومه إلا قليلًا.

أما الجمل؛ فإنها محكمة فصيحة، ومستقيمة لا نرى تقديمًا وتأخيرًا، ولا التواءً ولا تقعيدًا، والأساليب التي استخدمها الشاعر وظّفها توظيفًا جيدًا للدلالة على معانيه التي أراد أن يعبر عنها.

المعاني والأفكار:

والمعاني والأفكار التي تضمنتها القصيدة معانٍ قريبة واضحة؛ فهو يقف على الأطلال كما وقف الشعراء غيره، وينتقل من الأطلال إلى الغزل ويصف محبوبته ببياض الأسنان وإشراق الوجه كما فعل غيره أيضًا؛ فليس في بكائه للأطلال أو وقوفه على الأطلال وغزله شيءٌ جديد.

والمعاني التي ألمّ بها في وصف الناقة كذلك معانٍ واضحة وعادية؛ فهم جميعًا يصفون الناقة بالسرعة وبالقوة وبالمتانة؛ ولكن طرفة استقصى الوصف استقصاءً لا يجاريه فيه أحد من شعراء عصره، فلم يترك طرفة جزءًا ولا عضوًا من الناقة إلا وصفه وصفًا بليغًا كأنه يضعه أمامنا لنتأمله ونراه، وهو في كل هذه الأوصاف يهدف إلى وصف ناقته بأنها قوية وسريعة ونشيطة، عليها يقضي همّه وعليها يسافر ويرتحل.

وإذا كان لنا من وقفة عند المعاني والأفكار؛ فإننا لا بد أن نتحدث عن رؤية طرفة للحياة وللموت، ولقد رأينا الشاعر يبرر إسرافه في انتهاب الشهوات والإقبال على الملذات، يبرر ذلك بأن أحدًا لا يستطيع تخليده؛ فهو يتخذ من حتمية الموت

ذريعة للإفراط في التمتع بما أُتيح له من ملذات الحياة، وقد تمثلت هذه الملذات في نظره في الخمر والنساء والحرب.

ونلاحظ أن طرفة في حديثه عن الموت يستحضر صورة القبر، فيراه حفرة تواري الإنسان بعد موته، وأنه لا فرق في هذه الحفرة بين غني وفقير أو مسرفٍ وبخيل، فالقبر -كل قبر- ليس إلا كومة من تراب عليها صفائح صمّ من حجارة، ولا يظهر على هذا القبر أثر لنعيم أو عذاب، وكأن الشاعر -بهذا الوصف- يريد أن يدلل على صواب مذهبه في إمتاع نفسه وإروائها من لذات الدنيا قبل أن يرحل إلى هذا المصير. وهل يحرم نفسه من ملذات الحياة وهو يرى الموت يهلك الناس: الكريم منهم والبخيل على سواء؟!

إن طرفة هنا يعبر عن عقيدة كانت شائعة في عصره ومجتمعه عقيدة لا تؤمن بالبعث، وإذا آمن بعضهم بالبعث فإن إيمانه كان إيمانًا ضعيفًا خافتًا لا يُعتد به.

وأفكار طرفة التي استمدها عن الموت والحياة وأقام عليها فلسفته هذه -إذا عددنا ما قاله فلسفة- هذه الأفكار والمعاني تعتمد على الرؤية مصدرها الحواس؛ ولذلك نراه يقول: "أرى قبر نحام"، "ترى جثوتين من تراب"، "أرى الموت يعتام الكرام"، "أرى العيش كنزًا"؛ فهو في كل مرة يقول: "أرى". وهذا كله يؤكد انشغال الشاعر بأمر الموت وطول نظره إليه وتفكيره فيه، كما يدل تعبيره -بهذا الفهم- على أن عقيدته في الموت وأفكاره عنه لم يأخذها عن دين، ولم يتلقها من أحد، ولم يرثها عن نحلة أو مذهب، فهي مبنية على رؤيته الخاصة وخبرته الذاتية.

وهذه الرؤية وتلك الخبرة لم تدرك من أمر الموت والقبر إلا ما يظهر منها للعين، وإن كانت العين صالحة لمد الشاعر بهذه الصورة الظاهرية؛ فإنها بالتأكيد غير صالحة لمعرفة كنه ما بعد الموت أو حقيقة ما يحدث بعد الموت في عالم البعث والنشور

والحساب والجزاء؛ فذلك عالم لا تدرك حقائقه بالحواس، ولا تستطيع الحواس أن تعمل فيه؛ وإنما مجال معرفته هو الوحي.

ولا أظن أن طرفة بن العبد -في هذه الرؤية- كان شاذًّا عن هذا المجتمع أو تلك البيئة؛ فتلك كانت عقيدة أكثر الجاهليين. ثم بعد ذلك نجد هذه الحكمة التي ختم طرفة بها معلقته:

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلًا ❖ وَيَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
ويأتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ ❖ بَتَاتًا ولم تَضرِبْ لهُ أي مَوعِدِ

وهذا الكلام معناه: أن الأخبار التي لا يعرفها المرء، الأيام كفيلة بكشفها له، وأن الذي يجهله اليوم سيعلمه غدًا، وأن الأخبار ستكون مبذولة للمرء من غير أن يجهد نفسه أو يكلف أحدًا بأن يأتي له بالأخبار:

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلًا ❖ وَيَأْتيكَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وهذه الأبيات صارت في الناس حكمًا يتمثلون بها، ويستشهدون بها في المناسبات التي تقتضيها.

التصوير أو الخيال:

إن الخيال في القصيدة خيال قريب، اعتمد طرفة عليه في توضيح المعاني عن طريق التشبيه تارة، وعن طريق الكناية تارة؛ ليوضح المعاني التي يريد إيصالها ويرسخها في النفس.

بعض الصور الجزئية التي وردت في القصيدة:

في أول بيت في القصيدة:

لِخَولَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ ❖ تَلُوحُ كباقي الوَشْمِ في ظاهرِ اليَدِ

هنا تشبيه: شبه طرفة الأطلال بباقي الوشم في ظاهر اليد، والوشم: صبغ أو كحل كان يغرز بإبرة وينقش في اليد، كان هذا الأمر يفعله العرب في القديم وأظن الناس يفعلونه في عصرنا هذا من باب الزينة؛ فهذا الكحل الذي يغرز ويرسم على ظاهر اليد يسمى وشمًا: شبه طرفة أطلال المحبوبة -وهي آثار ديارها الباقية- بأنها تظهر مثل ظهور باقي الوشم في ظاهر اليد.

ثم بعد ذلك شبه طرَفة مراكبَ النساء بالسفن، فقال:

كَأَنَّ حُدُوجَ المالِكِيّةِ غُدوَةً ❖ خَلايا سَفينٍ بالنّواصِفِ مِنْ دَدِ

وشبه سير السفينة في الماء وشقها إياه: بفعل الولد الذي يلعب في التراب؛ فيجعله أكوامًا، ثم يشق هذه الأكوام بيده، قال طرفة:

يَشُقّ حَبابَ الماءِ حَيزُومُها بِهَا ❖ ....

حباب الماء، أي: موجه، والحيزوم: صدر السفينة، يقول: صدر السفينة يشق موج الماء:

.... ❖ كما قَسَمَ التُّربَ المُفايِلُ باليَدِ

والمفايل باليد: مأخوذ من الفيال: وهو ضرب من اللعب: وهو أن يجمع الصبية التراب، ثم يدفن فيه شيء ويقسم أحدهم هذا التراب نصفين، ويسأل عن الدفين في أيهما؛ فالتشبه: تشبيه شق السفينة للماء بصدرها، بهذا الفعل من الصبية في التراب.

ثم نجد صورة المحبوبة التي شبهها طرفة بالظبي، وشبهها بالبقرة الوحشية التي ترعى ابنًا لها في شجرٍ ملتفٍّ، تتناوله ويتناولها، ويتناوله معها، يقول:

وفي الحَيِّ أَحْوَى .... ❖ ....

أي: ظبي أحوى، وهو الذي في شفتيه سمرة، والأنثى: الحواء، وهم يشبهون الفتاة الجميلة بالظبي، واللمى -وهو سواد الشفتين- أمر ممدوح في المرأة عندهم، يقول:

وفي الحَيّ أحْوَى يَنفُضُ المرْدَ شادنٌ ❖ مُظاهِرُ سِمطَيْ لُؤلُؤٍ وَزَبَرْجَدِ
خَذُولٌ تُراعي رَبْرَبًا بخَميلَةٍ ❖ تَنَاوَلُ أ ـْرَافَ البَريرِ وتَرْتَدِي

والبرير: نوع من الشجر. ويقول عن محبوبته أيضًا:

وَتَبسِمُ عَنْ ألْمى كَأنَّ مُنَوَّرًا ❖ تَخَلَّلَ حُرَّ الرّمل دِعصٍ له نَدِي
سَقَتْهُ إياهُ الشّمسَ إلاّ لِثاتِهِ ❖ أُسِفّ ولم تَكْدِمْ عَلَيهِ بِإثْمِدِ

هنا يصف فمها، ويصف شفتيها ولثتها بالسمرة، وأسنانها بالبياض الشديد، ويشبه في هذه الصورة أسنانها بزهر الأقحوان الأبيض الندي.

ثم بعد ذلك وصف وجهها بالوضاءة والإشراق، فقال:

وَوَجهٌ كَأنَّ الشّمسَ حَلّتْ رِداءَها ❖ عَلَيْهِ نَقيُّ اللّونِ لَمْ يَتَخَدّدِ

ففي قوله: "كَأَنَّ الشّمسَ حَلّتْ رِداءَها عَلَيْهِ" تشبيه لهذا الوجه بالشمس.

وفي قوله في وصف ناقته:

أمون كألواح الإران .... ❖ ....

تشبيه: الناقة هي المشبه، وألواح الإران مشبه به. وفي قوله:

لها فَخِذانِ أُكمِلَ النّحضُ فيهما ❖ كَأنّهُما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ

تشبيه أيضًا: شبه فخذي الناقة ببابي القصر العالي. وفي قوله:

وَأرْوَعُ نَبّاضٌ أحَذُّ مُلَمْلَمٌ ❖ كَمِرْداةِ صَخْرٍ في صَفيحٍ مُصَمَّدِ

شبه قلبها بالقطعة الصلبة من الصخر، وفي قوله:

وَأَتْلَعُ نَهَّاضٌ إذا صَعّدَتْ بِهِ ❖ كسُكّانِ بُوصيّ بدِجلَةَ تصعدِ

في هذا تشبيه لجيدها أو عنقها بسكان السفينة أو ذنَب السفينة.

وقوله :

وجُمجُمَةٌ مِثلُ العَلاة .... ❖ ....

تشبيه للجمجمة بالقطعة الصلبة من الحجر ، قوله :

وعَينانِ كالمَاوِيّتَينِ استَكَنَّتا ❖ ....

شبه عيني الناقة بالمرآتين الصافيتين ، وشبّه صفاء هاتين المرآتين بصفاء الماء ، في عينٍ محاطة بأحجار في الصحراء. وفي قول طرفة :

ولسْتُ بِحَلاَّلِ التّلاعِ مَخَافَةً ❖ ولكِنْ متى يَسترفِدِ القومُ أرفِدِ

كناية عن كرمه وجزيل عطائه لمن يسأله ، وفي قوله :

وَكَرّي إذا نادى المُضافُ مُحَنَّبًا ❖ كَسِيْدِ الغَضا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ

يشبه فرسه بذئب الغضا الذي نبهه إنسان فأفزعه ، وقوله :

وَتقصِيرُ يوم الدَّجنِ والدَّجنُ مُعْجِبٌ ❖ بِبهكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرافِ المُعَمَّدِ

قوله : "ببهكنة" : كناية عن المرأة ، وقوله :

لَعَمرُكَ إنَّ المَوتَ ما أخطأ الفتى ❖ لكالطِّوَلِ المُرْخى وثِنياهُ باليَدِ

تشبيه للإنسان وهو في قبضة الموت بالدابة المربوطة بحبلٍ من يقودها.

هذه هي معلقة طرفة بن العبد ، وهي في الحقيقة تدل على موهبة أصيلة وكبيرة ، وتعطينا صورة عن جوانب متعددة للحياة العربية في العصر الجاهلي.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من معلقة عنترة بن شداد

عناصر الدرس

العنصر الأول	: التعريف بالشاعر: عنترة بن شداد	١٠٣
العنصر الثاني	: عرض القصيدة، وبيان معانيها	١٠٤
العنصر الثالث	: بعض مواطن الجمال في القصيدة	١١٣

التعريف بالشاعر: عنترة بن شداد

ومطلع معلقة عنترة:

هل غادر الشعراء من متردمِ ❖ أم هل عرفت الدار بعد توهمِ

وعنترة كان عبدًا أسودِ من أمَة حبشية يقال لها "زبيبة"، هذه هي الحقيقة التي لا تختلف فيها الروايات عندما تذكر نسب عنترة ونشأته. أما أبوه فالروايات مختلفة في تسميته فهو شداد بن عمرو في رواية، وعمرو بن شداد في أخرى، وعمرو بن معاوية في ثالثة، ومعاوية العبسي في رابعة، ورواية خامسة تقول: إن شدادًا هو عمه نشأ في حجره؛ فنُسب إليه.

ومرد هذا التضارب والغموض في نسب عنترة من جهة أبيه راجع إلى كونه ابن أمة، وأن العرب كانوا إذا استولدوا الإماء استعبدوا أبناءهم، وأغفلوا إلحاقهم بهم، فينشأ العبد مضيع النسب من جهة أبيه منسوبًا إلى أمه.

وكذلك نشأ عنترة تابعًا لأمه في الرقّ يستخدم في وضيع الأعمال: كرعي الإبل وحلبها، ولا يؤبه له من أحد؛ لكن الغلام العبد -بذكائه الفطري إلى مؤهلات الوجود في بيئة فرضت عليها ظروف الحياة الاقتتال الدائم- أخذ نفسه بتعلم فنون الحرب وإحراز أسلحتها، وأخذ يشارك في حروب قبيلته ويحث في نفسه مخايل الفتوة والبطولة؛ ولكنه في أوقات السلم يصبح في خدمة سيده ونسائه.

وأصبح هذا الأمر بالنسبة لعنترة مشكلةً في حياته كلها، حاول أن يتخلص منها عن طريق فروسيته، وإثبات حاجة قومه إليه في ميدان الحرب، وحدث أن أغار قومٌ على قبيلته فاستدعاه أبوه إلى القتال، وقال: كرّ يا عنترة. فقال له: العبد لا

يحسن الكر ؛ وإنما يحسن الحلب والصر. فقال له : كر وأنت حرٌّ ؛ فكان هذا أول اعتراف له بحريته.

ومضى عنترة في طريق البطولة والفروسية يُثبت لقومه أنه فارس لا غنى لهم عنه ؛ حتى يعترفوا بمكانته بينهم ، وحتى يعاملوه معاملة الأحرار الأكفاء.

عرض القصيدة، وبيان معانيها

أما هذه المعلقة ، فقد أورد ابن قتيبة في ترجمته لعنترة ما يدل على سبب إنشاده هذه المعلقة ؛ قال :

"وكان عنترة أشدَ أهل زمنه وأجودهم بما ملكت يده ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ؛ حتى سابه رجل من بني عبس ؛ فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك ، وبأنه لا يقول الشعر ، فقال له عنترة : والله إن الناس ليترافدون بالطُّعمة ؛ فما حضرت مرفدة الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون في الغارات فيعرفون بتسويمهم ؛ فما رأيناك في خيلٍ مغيرة في أوائل الناس قط ، وإن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فيصل ؛ وإنما أنت فقع بقرقر ، وإني لأحتضر البأس ، وأوفي المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدي ، وأفصل الخطة الصنعاء ؛ وأما الشعر فستعلم ؛ فكان أول ما قال قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردم ❖ ....

وهي أجود شعره ويسمونها المذهبة". انتهى كلام ابن قتيبة.

تبدأ المعلقة بالوقوف على الأطلال في ديار المحبوبة وعلى النحو الذي تسير عليه أكثر القصائد في الشعر الجاهلي ، بدأ عنترة معلقته بقوله :

هل غادر الشعراء من متردم ❖ أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ❖ وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي
فوقفت فيها ناقتي وكأنها ❖ فدنٌ لأقضيَ حاجة المتلوم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا ❖ بالحزن فالصمان فالمتثلم
حُيِّيت من طلل تقادم عهده ❖ أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

وقول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردم ❖ ....

معناه: أن الشعراء السابقين لم يتركوا للاحقين شيئًا في طريق الشعر يصلحونه؛ فالسابقون أتوا على كل المعاني وقالوا في كل الأغراض، واللاحقون ليس لهم فضل في باب الشعر؛ وكأن عنترة بهذا يردّ على من عيره بأنه لا يقول المطوّلات، يريد أن يقول له: إن الفضل ليس بتدبيج القصائد؛ وإنما الفضل يكون بالأعمال وليس بالأقوال، ثم إنه أراد أن يفحِم من يعيره وقال هذه القصيدة الطويلة الجيدة التي عدت من المعلقات.

وبعد المطلع وقف عنترة بدار عبلة وحيّاها - كما يفعل الشعراء جميعًا في مفتتح قصائدهم- ثم توجّه عنترة بالكلام إلى محبوبته فقال:

ولقد نزلت فلا تظني غيره ❖ مني بمنزلة المحَب المكرم

يخبرها بمنزلتها العظيمة عنده وبحبها الذي ملأ قلبه، ثم قال:

كيف المزار وقد تربع أهلها ❖ بعنيزتين وأهلنا بالغيلم
إن كنت أزمعت الفراق فإنما ❖ زمت ركابكمُ بليل مظلم
ما راعني إلا حمولة أهلها ❖ وسط الديار تسفُّ حب الخمخم

فيها اثنتان وأربعون حلوبةً ❖ سُودًا كخافية الغراب الأسحم
إذ تستبيك بذي غروب واضح ❖ عذب مقبَّله لذيذ المطعم

وفي هذا البيت يصف عنترة فمَ عبلة بأنه واضحٌ أبيض -والمراد أسنانها- وبأنه عذبُ المقبل لذيذ المطعم. ثم يصف الرائحة المنبعثة من فمها بأنها رائحة طيبة، تشبه الرائحة المنبعثة من حديقة طيّبة جادت عليها السُّحب بالماء؛ فأصبح شجرها ريان نديًّا، وأصبح زهرها فوّاحًا بالعطر، يقول:

وكأن فارة تاجر بقسيمة ❖ سبقت عوارضها عليك من الفم
أو روضة أنفًا تضمَّن نبتَها ❖ غيثٌ قليل الدم ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة ❖ فتركن كل قرارة كالدرهم
سحًّا وتسكابًا فكل عشية ❖ يجري عليها الماء لم يتصرم

ويستمر في وصف هذه الروضة الطيبة التي يشبّه رائحة فم محبوبته بالرائحة التي تهبّ منها؛ ليضفي على هذه الروضة مزيدًا من الجمال والبهجة، فيقول:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ❖ غردًا كفعل الشارب المترنم
هزِجًا يحك ذراعه بذراعه ❖ قدح المكب على الزناد الأجذم

ثم يترك عنترة حديث الغزل لينتقل منه إلى مجال آخر، يقول:

تمسي وتصبح فوق ظهر حشيةٍ ❖ وأبيت فوق سراة أدهم ملجم
وحشيِّتي سرج على عبل الشوى ❖ نهد مراكله نبيل المحزم

وهو في هذين البيتين يخبر أن محبوبته منعمة مرفهة تمسي وتصبح فوق الحشايا والفراش الناعم، وأنه يبيت فوق ظهر فرسه القوي.

ثم ينتقل عنترةُ إلى وصف الناقة فيقول:

هل تبلغنّي دارها شدنية ❖ لعنت بمحروم الشراب مصرم
خطّارة غِبَّ السُّرى زيافة ❖ تطس الأكام بوخز خف ميثم
وكأنما تطس الأكام عشية ❖ بقريب بين المنسمين مصلّم
تأوي له قلص النعام كما أوت ❖ حزق يمانية لأعجم طمطم
يتبعن قُلَّةَ رأسه وكأنه ❖ حدج على نعش لهن مخيم
صعل يعود بذي العشيرة بيضَه ❖ كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

والشدنية: نسبة إلى شدن: أرض أو قبيلة تنسب الإبل الجياد إليها، "لعنت بمحروم الشراب": أراد بالشراب: اللبن، ومصرم من التصريم وهو القطع، يقول:

هل تبلغني دار الحبيبة ناقة شدنية لعنت ودعي عليها بأن تحرم اللبن، ويقطع لبنها لبعد عهدها باللقاح، فاستجيب ذلك الدعاء لتكون أقوى وأسمن وأصبر على معاناة شدائد الأسفار؛ لأن كثرة الحمل والولادة يضعفها ويهزلها. وخطارة: من "خطر البعير بذنَبه": إذا شال به، وتطس، أي: تكسر، والأكام: الحجارة، وقريب بين المنسمين المصلم، المراد به: الظليم: وهو ذكر النعام، وتأوي له قلص النعام: تأوي إليه إناث النعام، والصعل: الصغير الرأس، والأصلم: الذي لا أذن له.

وهو في هذه الأبيات شبه الناقة في سرعتها بالظليم السريع الذي تأوي إليه إناث النعام الذي يشبه العبد الأسود الطويل.

وبعد أبيات أخرى في وصف الناقة، انتقل عنترة إلى الحديث إلى عبلة قائلًا:

إن تغدفي دوني القناع فإنني ❖ طـبّ بأخذ الفارس المستلئم
أثني علي بما علمت فإنني ❖ سمح مخالقتي إذا لم أظلم

وإذا ظُلِمت فإن ظلمي باسل ❖ مرّ مذاقته كطعم العلقم

وهو في هذه الأبيات يمهد في فخره بنفسه، فيقدم نفسه لعبلة فارسًا نبيلًا شجاعًا يحمي عرضه ويبذل ماله ويقدم إلى المعارك غير هياب وغير جبان، يقول:

ولقد شربت من المدامة بعدما ❖ ركد الهواجر بالمشوف المعلَم

بزجاجة صفراءَ ذاتِ أسرة ❖ قرنت بأزهر في الشمال مفدّم

فإذا شربت فإنني مستهلك ❖ مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندًى ❖ وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

وحليل غانية تركت مجدلًا ❖ تمكو فريصته كشدق الأعلم

سبقت يداي له بعاجل طعنة ❖ ورشاش نافذة كلون العندم

قوله: "ركد الهواجر"؛ ركد: بمعنى سكن، والهواجر: جمع الهاجرة: وهي أشد الأوقات حرًّا، والمشوف: المجلوُّ، والمدامة: الخمر، يريد أنه اشترى الخمر فشربها بعد سكون الناس في وقت الهاجرة، والعرب يفتخرون بشرب الخمر؛ لأنها كانت عندهم من دلائل الجود.

وقوله:

بزجاجة صفراء ذات أسرة ❖ ....

الأسرة: هي الخطوط، والزجاجة الصفراء، المراد بها: زجاجة الخمر، وقوله:

قرنت بأزهر في الشمال مفدّم ❖ ....

الأزهر: المراد به: الإبريق، ومفدّم، أي: مسدود الرأس بالفدام، وقوله:

فإذا شربت فإني مستهلك ❖ مالي وعرضي وافر لم يكلم

يدل على أن الخمر أو شربها لا تنال من عرضه؛ فهو يظل محافظًا على أخلاقه ومروءته على الرغم من شربه الخمر، ثم يثبت لنفسه أنه لا يقصِّر عن المكارم:

وإذا صحوت فما أقصر عن ندًى ❖ وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

وقوله: وحليل غانية: على تقدير رُبّ، المراد بحليل الغانية: زوج المرأة، يقول: إنه كم من رجل تصدى له فقتله وتركه مجندلًا تخرج الدماء من جراحه يُسمع لها صوت كصوت النفس الذي يخرج من شدق الأعلم، والأعلم: هو المشقوق الشفة.

ثم يقول عنترة مخاطبًا عبلة:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك ❖ إن كنت جاهلة بما لم تعلم

إذ لا أزال على رحالة سابح ❖ نهد تَعَاوَرَه الكماة مكلم

ـورًا يجرد للطعان وتارة ❖ يأوي إلى حصد القسي عرمرم

يخبرك من شهد الوقيعة أنني ❖ أغشى الوغى وأعف عند المغنم

يطلب منها -في هذه الأبيات: أن تسأل الفرسان الذين شهدوا المعارك معه ليخبروها عن حاله وشأنه؛ إذ لا يزال على ظهر فرسه يحارب أعداءه وتوجه الطعنات إلى فرسه من كل جانب، وتوجه إليه كذلك الرماح، وهو في كل المواقف ثابت لا يتزحزح يهاجم أعداءه لا يفتر، وهو عفيف لا تستهويه المغانم إذا استهوت غيره من الفرسان.

ثم يعرض عنترة على عبلة مشهدًا آخر من مشاهد بطولته؛ إذ يصور نفسه ملاقيًا لفارس يخشى أقرانه نزاله، فيتصدى له عنترة بطعنة عاجلة نافذة، ثم يعلوه فيجهز عليه برمحه، ويتركه بعد ذلك جزرًا للسباع يقضمن جسمه ويأكلن لحمه، يقول عنترة:

ومدجج كره الكماة نزاله ❖ لا ممعن هربًا ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة ❖ بمثقف صدق الكعوب مقوَّم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ❖ ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع يُنُشْنَهُ ❖ يقضمن حسن بنانه والمعصم

ثم يصور عنترة مشهدًا آخر من مشاهد بطولته يعرضه على محبوبته عبلة، ويبدو في هذا المشهد بطل آخر من ضحايا عنترة، بطلٌ كريمٌ في قومه يدافع عن مجدهم، له شارةٌ يُعرف بها في المعركة، سلاحه كامل، يتصدى عنترة كذلك بطعنة نافذة فيقتله، ثم يعلو جسمه بسيفه الأصيل ليُجهز عليه، وهذا البطل تبدو عليه علامات السيادة وعلامات الغنى؛ فيبدو أنه كان في قومه ذا منزلة عظيمة وعالية، يقول عنترة:

ومشك سابغة هتكت فروجها ❖ بالسيف عن حامي الحقيقة معلم

ربذ يداه بالقداح إذا شتا ❖ هتاك غايات التجار ملوم

لما رآني قد نزلت أريده ❖ أبدى نواجذه لغير تبسم

عهدي به مد النهار كأنما ❖ خضب البنان ورأسه بالعظلم

فطعنته بالرمح ثم علوته ❖ بمهند صافي الحديد مخذم

بطل كأن ثيابه في سرحة ❖ يحذى نعال السبت ليس بتوأم

والسرحة: هي الشجرة العظيمة، ويحذى أو يُحذى: تجعل حذاء له، والحذاء: النعل، والجمع الأحذية، يقول: وهو بطلٌ مديدُ القد كأن ثيابه ألبست شجرة عظيمة من طول قامته واستواء خلقه وجلود البقر المدبوغة بالقرظ نعال له، وهذا الفارس بقوته ليس بتوأم، لم تكن أمه تحمل معه غيره، بالغ في وصفه بالشدة والقوة وامتداد قامته وعِظَم أعضائه، وتمام غذائه عند الرضاعة؛ إذ كان فذًّا غير توأم، وكل ذلك يدل على شجاعة عنترة وقوته في القتال.

ويمضي عنترة في فخره بشجاعته وفروسيته، فيقول:

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى ❖ إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الحرب التي لا تشتكي ❖ غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخِم ❖ عنها ولكني تضايق مقدمي
لما رأيت القوم أقبل جمعهم ❖ يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها ❖ أشطان بئر في لَبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ❖ ولَبانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلبانه ❖ وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ❖ ولكان لو علم الكلام مكلمي

قوله: "ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى..." إلى آخره. الوصاة والوصية شيءٌ واحدٌ، ووضح الفم: الأسنان، والقلوص: التشنج. يقول: لقد حفظت وصية عمي إياي باقتحام القتال ومناجزة الأبطال في أشد أحوال الحرب، وهي حال تقلص الشفاه عن الأسنان من شدة قلوح الأبطال والكماة؛ فَرَقًا من القتل، وغمرات الحرب: شدائدها التي تغمر أصحابها، أي: تغلب قلوبهم وعقولهم، والتغمغم: صياح وجلب لا يفهم منه شيءٌ. يقول: ولقد حفظتُ وصية عمي في حومة الحرب التي لا تشكوها الأبطال إلا بجلبة وصياح.

وقوله: "إذ يتقون بي الأسنة لم أخِم"؛ "لم أخِم": أي لم أتأخر ولم أجبن، يتذامرون: التذامر: هو إقبال المحاربين يحضّ بعضهم بعضًا على القتال، والشطن: الحبل الذي يستقى به، والجمع: الأشطان، واللّبان: الصدر. يقول: كانوا يدعونني في حالة إصابة رماح الأعداء صدر فرسي، وشبه الرماح التي دخلت صدر فرسه بالحبال التي يستقى بها من البئر. يقول: إنه على الرغم من كل ذلك؛ كان مقدامًا لم يزل يرمي أعداءه بنحر فرسه؛ حتى جُرح وتلطخ بالدم، وصار الدم له بمنزلة السربال، أي: عمّ جسده وغطاه، الازورار: الميل، والتحمحم من صهيل الفرس: ما كان فيه من شبه الحنين ليرق صاحبه له. يقول:

لما أصابت رماح الأعداء صدر فرسه ووقعت به ؛ شكا إليه بعبرة وتحمحم ، أي : نظر إليه وحمحم ليرق قلبه له.

ثم قال : لو كان هذا الفرس يدري طريقة الكلام وطريقة المحاورة ؛ لكلمه من شدة ما به وشكا إليه ما نزل به من الجراح :

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ❖ ولكان لو علم الكلام مكلم

ثم يقول عنترة بن شداد :

ولقد شفى نفسي وأذهب والخيل تقتحم ❖ قيل الفوارس ويك عنترة أقدم

والخيل تقتحم الخبار عوابسًا ❖ من بين شيظمة وآخر شيظم

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي ❖ قلبي وأحفزه بأمر مبرم

يقول : شفى نفسه وأذهب سقمها قول الفوارس له : يا عنترة أقدم ، يريد : أن تعويل أصحابه عليه والتجاءهم إليه شفى نفسه وأبرأ سقمها ونفى غمّه ، كأنه استرد بذلك قيمته واطمأن لأن قومه عرفوا منزلته ؛ إذ احتاجوا إليه ودعوه إلى مساعدته.

الخبار : الأرض اللينة ، والشيظم : الطويل من الخيل ، ذلل : جمع ذلول : وهو ضد الصعوبة ، والركاب : الإبل لا واحد لها من لفظها عند أئمة اللغة. وقوله : "ذلل ركابي حيث شئت" ، أي : إنه يذهب إلى حيث يريد ، وركابه تستجيب له وتطاوعه ، وقوله : "مشايعي قلبي" ، يريد : أن قلبه يساعده لما فُطِر عليه من الجرأة والقوة والشجاعة ، وأحفزه بأمر مبرم ، أي : أحفز هذا القلب بإبرامي أمره وإقدامي عليه وإحكامي إياه ؛ ثم يختم عنترة قصيدته بقوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن ❖ للحرب دائرة على ابني ضمضم

الشاتمي عرضي ولم أشتمهما ❖ والناذرين إذا لم ألقهما دمي

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ❖ جزر السباع وكل نسر قشعم

وابنا ضمضم: رجلان كانا يشتمانه ويتوعدانه، وهو هنا يقول: إنه كره أن يموت من قبل أن تدور الدائرة على هذين الرجلين، وقبل أن يلقاهما في الحرب ليقتلهما، وهو يقول: إنهما يشتمانه ويقعان في عرضه؛ لأنه قتل أباهما من قبل، وتركه جزرًا للسباع وللنسور. هذه هي معلقة عنترة بن شداد.

بعض مواطن الجمال في القصيدة

الألفاظ والأساليب:

نلاحظ عليها أنها في عمومها ألفاظ ليست غريبة، وإذا شعرنا بشيء من الغرابة في الألفاظ يكون ذلك في وصفه لناقته؛ أما في غزله وفي وفخره بنفسه فالألفاظ أميل إلى الوضوح منها إلى الغرابة.

الجمل والأساليب:

تسير على نهج صحيح فصيح؛ لا التواء ولا تعقيد، ولا نجد كثيرًا من التقديم والتأخير الذي يمكن أن يصيب المعنى بشيء من الغموض.

العاطفة في القصيدة:

عاطفةٌ قويةٌ وصادقةٌ، وعنترة يفتخر بنفسه فخر الفارس المقدام الجريء الذي يريد أن يثبت لقومه أنه جدير بمكانة الأحرار الأكفاء. ووصفه لشجاعته وصفٌ صادقٌ يستدل على صدقه بمشاهد النزال ومشاهد القتال يحكيها لعبلة، ويريد من عبلة أن تسأل الفرسان الذين شهدوا هذه الوقائع ليخبروها بمكانته في القتال وشجاعته.

الخيال والتصوير:

فإننا نقف عند قوله:

إذ تستبيك بذي غروب واضح ❖ عذب مقبله لذيذ المطعم

وهذا كناية عن فم محبوبته.

ونقف كذلك عند قوله:

وكأن فارة تاجر بقسيمة ❖ سبقت عوارضها عليك من الفم

أو روضة أنفًا تضمن نبتها ❖ غيث قليل الدمن ليس بمُعلم

جادت عليه كل بكرِ حرة ❖ فتركن كل قرارة كالدرهم

سحًّا وتسكابًا فكل عشية ❖ يجري عليها الماء لم يتصرم

ففي هذه الأبيات تشبيه: أداة التشبيه "كأن"، و"فارة تاجر" هي المشبه به، يعني: كأن رائحة طيبة رائحة مسك هبت عليك من فمها؛ فالمشبه: أنفاس المحبوبة، والمشبه به: فارة المسك أو رائحة المسك.

وفي قوله: "أو روضة": روضة معطوفة على "فارة"؛ فهي أيضًا مشبه به، لكنه فصَّل في وصف هذه الروضة فوصفها بأنها روضة مصونة، وأن السحابة البكر تسقيها وتغسل شجرها وزهرها، ثم أردف هذا الوصف لهذه الروضة بقوله:

وخلا الذباب بها فليس ببارح ❖ غردًا كفعل الشارب المترنم

هزجًا يحك ذراعه بذراعه ❖ قدح المكب على الزناد الأجذم

فأضاف إلى هذه الروضة بهاء وجمالًا بهذا القول.

وتشبيهه للذباب الذي يحك ذراعه بذراعه بالأجذم الذي يقدح الزناد تشبيه بكر يعد من إبداع عنترة، ويذكرون أنه لم يسبق إليه ولم يلحق فيه.

ومن الصور التي تستوقفنا في هذه القصيدة أيضًا : صور الفرسان الذين يخبر عنترة أنه قتلهم ، وصورة قتله إياهم ؛ إذ يصور لنا تصويرًا واضحًا حركة إقدامه عليهم بطعنهم ، ثم بالإجهاز عليهم وتركهم طعامًا للسباع وللنسور ؛ كما في هذه الصورة :

ومدجج كره الكماة نزاله ❖ لا ممعن هربًا ولا مستسلم
جادت له كفي بعاجل طعنة ❖ بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ❖ ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع يَنُشْنَهُ ❖ يقضمن حسن بنانه والمعصم

ومن الصور التشبيهية التي نقف عندها أيضًا : ما جاء في قوله :

بطل كأن ثيابه في سرحة ❖ يحذى نعال السبت ليس بتوأم

وقوله : "يحذى نعال السبت" كناية عن ترفهه وعظم مكانته ، وقوله : ليس بتوأم ، كناية عن اكتمال قوته بسبب تمام غذائه عند إرضاعه ؛ إذ كان غير توأم.

ومن الصور الجديرة بالتأمل كذلك : صورة فرس عنترة الذي يتعاطف معه الشاعر ويشخصه لنا في صورة الشاكي ، ما ألمّ به من الجراح ، وما نزل به من الطعن :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ❖ ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلَبانه ❖ وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ❖ ولكان لو علم الكلام مكلم

هكذا استطاع عنترة أن يفهم عن فرسه شكواه ، وأن يحسّ بتألمه ، وهكذا تعاطف معه تعاطفًا شديدًا ؛ ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يريحه أو أن يعفيه من الحرب.

هذه هي معلقة عنترة التي قالها ليثبت لمن عيّره بأنه لا يقول الشعر أنه قادر عليه. ولقد صوّرت هذه المعلقة تصويرًا صادقًا نفسَ صاحبها وصفاته النبيلة ؛ كما

صورت كفاحه الطويل المرير لمحو عار العبودية، وانتزاع حريته، والاعتراف بمكانته عن طريق فروسيته وشجاعته وإقدامه.

كذلك تصور هذه المعلقة عنترة عاشقًا نبيلًا كما تصوره فارسًا مقدامًا؛ لقد كان حبه عبلة قصة من أعظم قصص الحب في التاريخ، لقد أحبها حبًّا شديدًا، وذكرها في كل موقف، ولقد كان حريصًا على أن يقدِّم نفسه لها في شعره في صورة فارس نبيل عاشق صادق، ويطلب منها أن تسأل الفرسان عنه؛ ليخبروها عن مكانته ويصفوا لها شجاعته؛ حتى ترضى عنه، وحتى يثبت لها أنه جدير بحبها، كفء للزواج منها.

ولقد كان عنترة حريصًا عندما يذكر جمال محبوبته على أن يذكرها بأسلوب عفيف، لا يتطرق إلى شيء من الغزل المكشوف الذي كان يتطرق إليه بعض شعراء الجاهلية.

ولقد حفظ التاريخ صورة هذا الفارس النبيل وهذا المحب العاشق، وحفظ قصة حبِّه وكفاحه من أجل إثباته ذاته واسترداد حريته أو انتزاعها.

ولقد صارت قصة عنترة من القصص الشعبي الذي يتسامر به الناس ليستخرجوا منه ما يفيد في تهذيب النفوس وتربية الوجدان.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من معلقة زهير بن أبي سُلمى

عناصر الدرس

العنصر الأول	: التعريف بالشاعر: زهير بن أبي سلمى	١١٩
العنصر الثاني	: عرض القصيدة، وبيان معانيها	١٢١
العنصر الثالث	: بعض مواطن الجمال في القصيدة	١٢٨

التعريف بالشاعر: زهير بن أبي سُلمى

زهير بن أبي سُلمى: هو زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن قرط، أحد الشعراء الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير. هم الثلاثة الكبار في الشعر الجاهلي، لا يختلف عليهم أحد، كان زهير شاعرًا جاهليًّا لم يدرك الإسلام، ويقال: إنه توفي قبل بعثة النبي محمد ﷺ بسنة واحدة، وكان أبوه شاعرًا، وأختاه سلمى والخنساء كانتا شاعرتين، وكذلك كان ابناه كعب وبجير، ثم كان حفيده عقبة بن كعب كذلك شاعرًا، وكان لعقبة هذا ابن يقال له: العوام، كان شاعرًا أيضًا، ولذلك يقول ابن قتيبة: "لم يتصل الشعر في ولد أحدٍ من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير".

وكان زهير راوية لشاعر قبله هو: أوس بن حجر، وكان الحطيئة راوية لزهير، وكان كعب ابنه كذلك راوية له، وقد انقطع زهير لمدح هَرِم بن سنان حتى بلغ من شأن هَرِم أنه أقسم ألا يمدحه زهير إلا أعطاه، ولا يسأله إلا أعطاه عبدًا أو وليدة أو فرسًا، فاستحيى زهير من كثرة ما كان يعطيه إياه هذا الرجل الكريم؛ فابتدع عبارة جميلة يحيي بها هرم بن سنان، وفي الوقت نفسه يحلله من قسمه أنه يعطيه كل ما حياه، فكان إذا رآه في جماعة من الناس، قال: عموا صباحًا غير هَرِم، وخيركم استثنيت، ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال لبعض ولد هَرِم: أنشدني بعض ما مدح به زهير أباك فأنشده، فقال عمر: "إن كان ليحسن فيكم القول"، قال ابن هَرِم: ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء، فقال عمر: "قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم". وقال عمر لابن زهير: "ما فعلت الحلل التي كساها هَرِم أباك؟"، قال: أبلاها الدهر، قال عمر: "لكن الحلل التي كساها أبوك هَرِمًا لم يبلها الدهر".

وكان زهيرٌ يطيل النظر في شعره، وينظر في القصيدة مرة بعد مرة، يُعدل ويحسن ويجود فيها، ولا يخرجها للناس إلا بعد أن يثق أنها استوفت شروط الجودة، وكان يثنى على زهير بالصدق في القول، وكثرة الحكمة، وأنه لا يقول إلا ما يعلم، والذين يعلون من قيمة الخلق في الأدب والفن، يعرفون لزهير بن أبي سُلمى مكانته؛ لأنه لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه، وكان لا يعاضل في الكلام لا يعقده، ولا يتتبع حوشيه، وأكثر النقاد بل كل النقاد يجمعون على هذه المكانة المتميزة لزهير بن أبي سلمى في الشعر العربي في العصر الجاهلي.

أما مناسبة القصيدة فيقول الرواة: إن زهيرًا قالها يمدح بها الحارث بن عوف، وهَرِم بن سنان المغريين، ويذكر لهما بالشكر والعرفان والتقدير سعيهما للصلح بين قبيلتي عبس وذبيان، وتحملها الديات في هذه الحرب الضروس، حتى يحقنوا دماء قومهم، وبعد أن سعى هذان الرجلان الكريمان الفاضلان للصلح بين القبيلتين، طرأ حادثٌ كاد أن يقلب الأمور كلها رأسًا على عقب، ذلك أن رجلًا من بني عبس اسمه ورد بن حابس، كان قد قتل قبل الصلح رجلًا اسمه هَرِم بن ضمضم المري من ذبيان، ولما اصطلح الناس، وتحمل الحارث بن عوف، وهَرِم بن سنان ديات القتلى، وأصلحا بين القبيلتين، لم يدخل في هذا الصلح حصين بن ضمضم -أخو القتيل هَرِم بن ضمضم- وحلف أن لا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس قاتل أخيه، أو رجلًا آخر من بني عبس ثأرًا لأخيه، وبهذا ظل هذا الرجل خارج معاهدة الصلح بين القبيلتين.

ثم حدث أن الأقدار ساقت إليه رجلًا من بني عبس نزل عليه؛ فلما عرفه حصين، وعرف أنه من بني عبس، قام إليه وقتله ثأرًا لأخيه، فبلغ الخبر الحارث بن عوف، وهَرِم بن سنان، وهما اللذان سعيا في الصلح بين القبيلتين، وبلغ

الخبر بني عبس؛ فركبوا إلى الحارث بن عوف وأرادوا قتله فتصرفا تصرفًا مريرًا إذ أرسل إليهم مائة من الإبل، معها ولد له، وأبلغ القوم أنهم أحرار فيما يشاءون، إذا أرادوا أن يأخذوا الإبل، ويحقنوا الدماء؛ فلهم ذلك، وإن أرادوا أن يقتلوا ولده ثأرًا لرجلهم؛ فلهم ذلك، فلما بلغهم هذا، قال لهم كبيرهم الربيع بن زياد: إن أخاكم أرسل إليكم يقول: آللبن أحب إليكم أم ابنه تقتلونه؟ والمراد باللبن الإبل، فقالوا: بل نأخذ الإبل ونصالح قومنا.

وقد هاجت هذه المواقف مجتمعة قريحة زهير فأنشد هذه القصيدة التي يمدح فيها هذين الرجلين الكريمين، اللذين قاما بالإصلاح بين القبيلتين المتحاربتين، وكانت عبس وذبيان قد اقتتلتا مقتلة عظيمة في حرب ضروس، تعرف في التاريخ بحرب داحس والغبراء. إذًا هذا تعريف بزهير وتعريف بمناسبة القصيدة.

عرض القصيدة، وبيان معانيها

يبدأ زهير قصيدته على النحو الذي كان سائدًا في الشعر الجاهلي؛ يبدأ بالوقوف على الأطلال، وتحية الديار، ديار المحبوبة التي رحلت، ويصف ما حلَّ بهذه الديار من تغير بعدما رحل عنها أهلها، ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف رحلة القوم الذين ارتحلوا عن هذه الديار، وينتقل بعد ذلك إلى الغرض الرئيس من القصيدة، أو في القصيدة يقول زهير في المقدمة:

أمِن أُمِّ أوفى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ ❖ بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ
وَدارٌ لَها بِالرَقمَتَينِ كَأَنَّها ❖ مَراجِعُ وَشمٍ في نَواشِرِ مِعصَمِ
بِها العَينُ وَالآرامُ يَمشينَ خِلفَةً ❖ وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِن كُلِّ مَجثِمِ
وَقَفتُ بِها مِن بَعدِ عِشرينَ حِجَّةً ❖ فَلَأياً عَرَفتُ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ

أثافيَّ سُفعًا في مُعَرَّسِ مرجَلٍ ❖ وَنُؤيًا كَجِذمِ الحَوضِ لم يَتَثَلَّمِ

فَلَمّا عَرَفتُ الدارَ قُلتُ لِرَبعِها ❖ أَلا عِم صَباحًا أَيُّها الرَبعُ وَاسلَمِ

و"أم أوفى" كنية امرأة، يقال: إنها كانت زوجة زهير ثم طلقها، والدمنة: المكان الذي تغير أو الأثر الباقي من الديار البالية الخربة، والجمع دمن. و"لم تكلم": أي: لم يكلم أهلها، أو لم تتكلم الديار لم ترد على من جاء يسائلها ويحييها، و"الحومانة" ما غلظ من الأرض، والقادة. أي: أمكن التغلب عليه. و"الدراج والمتثلم" اسمان لموضعين، و"الرقمتان" كذلك اسمان لموضعين ودار لها بالرقمتين قوله:

.... كأنَّها ❖ مَراجِعُ وَشمٍ في نَواشِرِ مِعصَمِ

"مراجيع الوشم": المراجيع جمع مرجوع، وهو المعاد المكرر. والوشم: نقش الإبرة يحشى بالكحل، وكان نساء الجاهلية يتزين به، ونساء العصر الحديث كذلك يتزين به الوشم، وسبقت الإشارة إليه في معلقة طرفة بن العبد. و"النواشر" عصب الذراع ومراجيع الوشم هو الوشم المجدد؛ لأنه معاد مكرر قوله:

بها العَينُ وَالآرامُ يَمشينَ خِلفَةً ❖ وَأَطلاؤُها يَنهَضنَ مِن كُلِّ مَجثِمِ

"العين": البقر الوحشي، والمفرد عيناء وسميت البقرة الوحشية عيناء لسعة عينيها، والآرام الظباء الخالصة البياض، ومفردها رئم، وتخفف فيقال: ريم وخلفة: أي: إذا ذهب منها فوج خلفه آخر، أطلاؤها جمع طلى، وهو ولد الظبية والبقرة. والميثم: محل الجسوم والقعود.

وَقَفتُ بِها مِن بَعدِ عِشرينَ حِجَّةً ❖ فَلَأيًا عَرَفتُ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ

الحجة: السنة، و"اللأي" الجهد والمشقة. قوله:

أثافيَّ سُفعًا في مُعَرَّسِ مرجَلٍ ❖ وَنُؤيًا كَجِذمِ الحَوضِ لم يَتَثَلَّمِ

"الآثافي" : جمع أُثفية ، والآثافي هي الحجارة التي كانوا ينصبونها ، ويوقدون بينها النار ، ويضعون فوقها القِدر. وسفع معناها سود ، والحجارة التي يوقدون بينها النار تسود بفعل هذه النار ، والسواد هنا هو السواد المشوب بحمرة ، "معرس مرجل" : المرجل هو القدر ، والتعريس : نزول القوم ليستريحوا آخر الليل ، والمراد المكان الذي يوضع فيه القدر ، أو يوضع وينصب عليه القدر ، والنؤى حاجز يرفع أو يصنع حول الخيمة ليمنع عنها دخول الماء ، وجزم الحوض الحزم الأصل ، والحوض هو المكان المستدير يجتمع فيه الماء ، ولم يتثلم أي : لم يتكسر ، والربع : المنزل ، في قوله :

فَلَمّا عَرَفتُ الدارَ قُلتُ لِربعِها ❖ ألا انعم صَباحًا أيُّها الربعُ وَاسلَمِ

و"انعم صباحًا" : تحية أهل الجاهلية.

هذه الأبيات إذًا تكفلت بالمقدمة ، ذكر فيها زهير وقوفه على بقايا ديار أم أوفى ، وأنه عرفها أو تعرف عليها بعد لأي وتعب ؛ لأنه ذهب إليها بعد عشرين سنة مضت من رحيل قومها عنها ، وذكر أنها تغيرت ، وأن البقر الوحشي والظباء والغزلان اتخذت من مكان هذه الديار مسكنًا لها تذهب وتجيء فيه ، وتنام وترقد وتستريح ، ووصف الآثافي ، وغيرها من بقايا وآثار هذه الديار.

انتقل زهير بعد ذلك إلى وصف رحلة القوم الذين تحملوا عن هذه الديار وذهبوا فقال :

تَبَصَّر خَليلي هَل تَرى مِن ظَعائِنٍ ❖ تَحَمَّلنَ بِالعَلياءِ مِن فَوقِ جُرثُمِ
جَعَلنَ القَنانَ عَن يَمينٍ وَحَزنَهُ ❖ وَمَن بِالقَنانِ مِن مُحِلٍّ وَمُحرِمِ
عَلَونَ بِأَنماطٍ عِتاقٍ وَكِلَّةٍ ❖ وِرادٍ حَواشيها مُشاكِهَةِ الدَمِ
ووركن في الثوبات يعلون متنه ❖ عليهن دل الناعم المتنعم

بَكَرنَ بُكورًا وَاستَحَرنَ بِسُحرَةٍ ❖ فَهُنَّ لِوادي الرَسِّ كَاليَدِ لِلفَمِ

وَفيهِنَّ مَلهىً لِلصَديقِ وَمَنظَرٌ ❖ أَنيقٌ لِعَينِ الناظِرِ المُتَوَسِّمِ

تبصر: أي انظر والخليل هو الصاحب، والظعائن جمع ظعينة، وهي المرأة التي في هودجها، و"القنان" اسم جب، و"الحزن" ما غلظ من الأرض، والمحل المراد به هنا الذي لا عهد له، ولا ذمة، ولا جوار، والمحرم الذي له عهد وذمة ولا تجوز الإغارة عليه لأنه في حرمة تمنعه وقوله:

عَلَونَ بِأَنماطٍ عِتاقٍ وَكِلَّةٍ ❖ وِرادٍ حَواشيها مُشاكِهَةِ الدَمِ

علون: أي: ارتفعن، والأنماط جمع نمط، وهو ما يفرش أو يبسط من الثياب العتاق: الجياد والكلة: الستر وجمعها كلل، وكلمة وراد: جمع ورد. وهو الأحمر: وحواشيها: أطرافها مشاكهة الدم: أي مشابهة للدم. وهو هنا يصف الفرش المفروشة على الإبل التي سافرت وحملت النساء، وفيهن محبوبته قوله:

ووركن في الثوبات يعلون متنه ❖ ....

وصف للطريق الذي سلكته القافلة. و"الثوبان": الأرض المرتفعة، والمتن: الظهر، والدل والدلال: النعمة وطيب العيش، والمتنعم: وصف مؤكد للنعمة، قوله:

بَكَرنَ بُكورًا وَاستَحَرنَ بِسُحرَةٍ ❖ فَهُنَّ لِوادي الرَسِّ كَاليَدِ لِلفَمِ

"بكرن": أي: سرن في البكور، وقت الفجر. و"استحرن بسحرة": أي سرنا وقت السحر، ووادي الرث: مكان وهو هنا يصف بعض أوقات الرحلة، وبعض الأماكن التي مرت بها القافلة. وقوله:

وَفيهِنَّ مَلهىً لِلصَديقِ وَمَنظَرٌ ❖ أَنيقٌ لِعَينِ الناظِرِ المُتَوَسِّمِ

"الملهى": بمعنى اللهو وهو ما يتلهى به. و"اللطيف" المتألق حسن المنظر، والمراد هنا الذواقة. و"الأنيق": المعجب. و"المتوسم": المتأمل. يقول: إن منظر هذه القافلة فيه ألوان من الجمال تجذب نظر المتأمل الذي يريد أن يتذوق بعض الجمال في الطبيعة، ومن هذا الجمال في الطبيعة تلك القوافل المرتحلة تحمل النساء، وعلى ظهور الإبل الفرش الملونة. بعد ذلك ينتقل زهير إلى الغرض الرئيس في القصيدة، وهو مدح الحارث بن عوف، وهرم بن سنان يقول:

سَعى ساعِيا غَيظِ بنِ مُرَّةَ بَعدَما ❖ تَبَزَّلَ ما بَينَ العَشيرَةِ بِالدَمِ
فَأَقسَمتُ بِالبَيتِ الَّذي طافَ حَولَهُ ❖ رِجالٌ بَنَوهُ مِن قُرَيشٍ وَجُرهُمِ
يَمينًا لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما ❖ عَلى كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ
تَدارَكتُما عَبسًا وَذُبيانَ بَعدَما ❖ تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ
وَقَد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِعًا ❖ بِمالٍ وَمَعروفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ
فَأَصبَحتُما مِنها عَلى خَيرِ مَوطِنٍ ❖ بَعيدَينِ فيها مِن عُقوقٍ وَمَأثَمِ
عَظيمَينِ في عُليا مَعَدٍّ وجدتما ❖ وَمَن يَستَبِح كَنزًا مِنَ المَجدِ يَعظُمِ

سعى ساعيًا: سعى قام بعمل حسن. وساعيا غيظ بن مرة يريد بهما الحارث بن عوف، وهرم بن سنان، وهما من حي غيظ بن مرة من غطفان بن سعد بن قيس بن غيلان؛ فساعيًا مضاف، وغيض مضاف إليه، فأضاف كلمة ساعيًا للقبيلة أو البطن أو الحي الذي منه هذان الرجلان:

سَعى ساعِيا غَيظِ بنِ مُرَّةَ بَعدَما ❖ تَبَزَّلَ ما بَينَ العَشيرَةِ بِالدَمِ

"تبذل": معناها تشقق، أي: تشقق الصلح الذي كان بين القبيلتين المتحاربتين بسبب الدم الذي وقع بينهم، والمراد به مقتل الرجل العبسي، وهو الحادثة التي كادت أن تفسد الصلح وتبعث الحرب من جديد.

فَأقسَمتُ بالبَيتِ الَّذي ـافَ حَولَهُ ❖ رِجالٌ بَنَوهُ مِن قُرَيشٍ وَجُرهُمِ

يُقسم زهير بالبيت الحرام "الكعبة المشرفة". والرجال الذين بنوه من قريش وجرهم. وقريش هي القبيلة المعروفة وجرهم كذلك قبيلة من قبائل العرب.

يَمينًا لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما ❖ عَلى كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ

قال: أقسمت يمينًا، وهو يقسم على أن هذين الرجلين سيدان خيران. السحيل: الخيط المفرد الذي لم يضم إلى غيره. والمبرم: الذي فتل خيطاه فصار خيطًا واحدًا. واستعار في التعبير السحيل للضعيف، والمبرم للقوي. يريد أن يقول: إن هذين الرجلين رجلان كريمان عظيمان على أي حال ودائمًا.

تَدارَكتُما عَبسًا وَذُبيانَ بَعدَما ❖ تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ

"التدارك": التلافي، أدركتما هاتين القبيلتين بعدما حدثت بينهما مقتلة عظيمة، "تفانوا" كاد يفني بعضهم بعضًا. ودقوا بينهم عطر منشم. يقال: إن منشم امرأة عطارة من خزامة كانت تبيع العطر. فإذا حاربوا اشتروا منها كافورًا لموتاهم، يحنطون الموتى أو يعطرونهم بهذا الكافور، فتشاءموا بها. ويقال: إن قومًا تحالفوا على عدوهم، وجعلوا علامة هذا التحالف أنهم غمسوا أيديهم مجتمعين في عطر هذه المرأة، ثم مضوا إلى الحرب؛ فقتلوا عن آخرهم فتشاءم العرب في عطر هذه المرأة، وضرب به المثل.

ويقال: إن "منشم": اسم وضع للحرب لشدتها وليست اسم امرأة، ويقال: إن "منشم" نوع من العطور كانوا يتشاءمون به. على أي حال، يقول زهير مخاطبًا الرجلين الكريمين الحارث بن عوف وهرم بن سنان: إنكما أيها العظيمان تداركتما قبيلة عبس وقبيلة ذبيان، بعدما تقاتلوا قتالًا عظيمًا، وبعدما أن كاد يفني بعضهم بعضًا، فقمتما أنتم بهذا العمل العظيم، وهو الإصلاح بين المتحاربين.

وَقَد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِعًا ❖ بِمالٍ وَمَعروفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ

والسلم: هو السلام والصلح، وواسعًا: أي مكينًا ومتمكنًا بمال ومعروف نبذلهما؛ لأن الرجلين الكريمين تحملا ديات القتلى من الطرفين، ونسلم: نسلم من اللوم ونسلم وننجو من الذنب.

فَأَصبَحتُما مِنها عَلى خَيرِ مَو طِنٍ ❖ بَعيدَينِ فيها مِن عُقوقٍ وَمَأثَمِ

أصبحتما في خير منزلة، وفي خير موطن، بعيدين عن العقوق، وعن قطيعة الرحم، وبعيدين عن أي مأثم.

عَظيمَينِ في عُليا مَعَدٍّ وَغَيرِها ❖ وَمَن يَستَبِح كَنزًا مِنَ المَجدِ يَعظُمِ

العُليا: تأنيث الأعلى. وعُليا معد. يعني: الأشراف والرءوس منها. وهديتما: دعاء لهما بالتوفيق أن يهديا بالتوفيق دائمًا، وقوله:

.... ❖ وَمَن يَستَبِح كَنزًا مِنَ المَجدِ يَعظُمِ

يقول: إنكما ملَكتُما كنزًا من المجد بفعلكما هذا، وبذلك تستحقان التعظيم والتمجيد. يقول زهير:

أَلا أَبلِغِ الأَحلافِ عَنّي رِسالَةً ❖ وَذُبيانَ هَل أَقسَمتُمُ كُلَّ مُقسَمِ

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم لِيَخفى ❖ وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ

يُؤَخَّر فَيوضَع في كِتابٍ فَيُدَّخَر ❖ لِيَومِ الحِسابِ أَو يُعَجَّل فَيُنقَمِ

الأحلاف: جمع حليف، والمراد بالأحلاف القبائل التي كانت متحالفة في الحرب مع عبس، وهي أسد، وغطفان، وطيئ، وذبيان، القبيلة التي كانت في الطرف الآخر في المعركة، وقوله:

.... ❖ ... هَل أَقسَمتُمُ كُلَّ مُقسَمِ

تذكير لهم بالصلح الذي دخلوا فيه.

فَلا تَكتُمُنَّ اللَهَ ما في نُفوسِكُم ❖ لِيَخفى وَمَهما يُكتَمِ اللَهُ يَعلَمِ

أو يُعلم. يقول لهم : لا تكتموا شيئًا في أنفسكم ولا تبيتوا الغدر ولا تعزموا على نقد الصلح ؛ لأنكم لو أخفيتم ذلك فإن الله يعلمه ، وإن الله سيحاسبكم عليه يوم الحساب ، أو يعجل الانتقام منكم في الدنيا.

ثم يقول زهير: يحذر قومه من الحرب ، ويذكرهم ويبصرهم بعواقبها الوخيمة ونتائجها السيئة ، فيقول :

وَما الحَربُ إِلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ ❖ وَما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمَةً ❖ وَتَضرى إِذا ضَرَّيتُموها فَتَضرَمِ

فَتَعرُكُكُم عَركَ الرَحى بِثِفالِها ❖ وَتَلقَح كِشافًا ثُمَّ تَنتِج فَتُتئِمِ

فَتُنتَج لَكُم غِلمانَ أَشأَمَ كُلُّهُم ❖ كَأَحمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ

فَتُغلِل لَكُم ما لا تُغِلُّ لِأَهلِها ❖ قُرىً بِالعِراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ

بعض مواطن الجمال في القصيدة

قوله :

وَما الحَربُ إِلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ ❖ ....

أسلوب قصر يقول لهم : ليست الحرب شيئًا إلا ما ذقتموه فيها ، وما علمتموه منها ، من القتل ومن الجراح ، ومن السبي ، ومن الخراب ، وما هو عنها بالحديث المرجم ، ليس كلام يعني الحرب رجمًا بالغيب وليس تخمينًا ، وإنما أنا أدلكم على ما تعرفونه منها ، وما جربتموه من شرِّها.

مَتى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمَةً ❖ وَتَضرَ إِذا ضَرَّيتُموها فَتَضرَمِ

ذميمة: أي مذمومة، وتضرى: أي تلتهب نارها وتشتعل، إِذا ضَـرَّيتُموها: إذا أشعلتموها.

وقوله:

مَتى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمَةً ❖ ....

إلقاء بالتبعة عليهم فهم الذين يتحملون النتائج؛ لأن الفعل منهم ثم يقول:

فَتَعرُكُكُم عَركَ الرَحى بِثِفالِها ❖ وَتَلقَح كِشافًا ثُمَّ تنتج فَتُتئِم

يشير ويفصّل أفعال هذه الحرب ونتائجها، التي ستأتي عليهم إذا هم أشعلوها من جديد، قوله: "تعرُككم" أي: تطحنكم وتهلككم، يقال: عرك الجلد يعركه عركًا، أي: دلّكه، وعرك الشيء حكه حتى محاه. ويقال: عركتهم الحرب: دارت عليهم، وعركه الدهر: حنكه وأدبه، والثفال: قطعة من جلدٍ أو قماش توضع تحت الرحا؛ ليكون ما سقط من الطحين عليها. والرحى: أداة قديمة كانوا يطحنون عليها الحبّ، تتكون من حجرين مستديرين عظيمين ثقيلين، تدار بطريقة ما. ويُوضع الحب بين هذين الحجرين؛ فإذا دارت الرحى تم طحن هذا الحب، فهو هنا يقول: إن الحرب التي ستبعثونها إذا بعثتموها ستطحنكم، وتهلككم وتفعل بكم كما تفعل الرحى بالحب إذا طحنته.

و"تلقح كشافًا": أي: تنتج نتاج السوء، كالناقة التي تلد كل عام، وكان يحمدون في نتاج الناقة أن تلد الناقة عامًا، وتستريح عامًا، وتتئم أي: تأتي بتوأمين في بطن واحدة، يُصور تضاعف الشرور الناتجة عن الحرب بناقة تنتج كل عام -أي: تلد كل عام- وتلد في كل مرة توأمًا، لا تلد بعيرًا واحدًا.

فَتُنتَج لَكُم غِلمانَ أَشأَمَ كُلُّهُم ❖ كَأَحمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ

يقول: إن هذه الحرب لكم أجيالًا مشئومة من الرجال؛ فتيان حرب تملؤهم الأحقاد، فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم، كل الذين سيخرجون من الأجيال في ظل الحرب والعداوة بين القبيلتين، سيكونون مشئومين، ويشبههم في هذا الشؤم بالغلام الذي قتل ناقة صالح # فعذّب الله قومه جميعًا بسبب فعلته، ولكن زهيرًا قال: "كأحمر عاد". ولم يقل: كأحمر ثمود. وسيدنا صالح كان مرسلًا في ثمود، ومن الناس من قال: إن زهيرًا أخطأ في ذلك؛ لأن صالحًا أرسل إلى ثمود، ولم يرسل إلى عاد؛ فأحمر ثمود هو الفتى المشئوم الذي قتل الناقة، وعُذّب قومه بسبب ما فعل ومن الناس من اعتذر لزهير، وقال: إن عادًا وثمود في الأصل قبيلة واحدة، بدليل أن الله ﷻ قال في كتابه العزيز: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ [النجم: ٥٠، ٥١] ويقولون: إن عادًا هي أصل ثمود؛ فثمود من عاد وبذلك لا يكون زهير مخطئًا.

فَتُغلِل لَكُم ما لا تُغِلُّ لِأَهلِها ❖ قُرىً بِالعِراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ

تغلل لكم: أي: تُعطيكم من الغلات، والغلة: هي ريع الأرض، وما يخرج منها. وقرى بالعراق: قرى في العراق يُضرب المثل بها في إنتاج الغلة، والقفيز: مكيال مخصوص كان أهل العراق يستخدمونه في تقدير غلتهم، والدرهم: معروف الدرهم والدينار عملة.

وهو في هذا البيت يقول لهم: إن هذه الحرب ستأتي لكم بِغَلَّة كثيرة؛ لكنها غلة مشئومة ليست مثل الغلة المحبوبة، التي تنتجها قرى العراق ويلاحظ هنا أن زهيرًا شبه الحرب بالرحى، ثم شبهها بالناقة التي تلد كل عام، وتلد توأمًا، وشبهها بالأرض التي تخرج الغلة؛ لكن الذي تخرجه مشئوم كريه، ويستمر زهير في أبيات بعد ذلك في وصف الحرب وشرِّها، وفي الإشادة بالرجلين العظيمين اللذين تحملا ديات القتلى، وقاما بالإصلاح بين المتحاربين.

وانتهى زهير إلى مجموعة من الحِكم صاغ فيها تجارب حياته، فقال:

سَئِمتُ تَكاليفَ الحَياةِ وَمَن يَعِش ❖ ثَمانينَ حَولًا لا أَبا لَكَ يَسأَمِ
وَأَعلَمُ ما في اليَومِ وَالأَمسِ قَبلَهُ ❖ وَلَكِنَّني عَن عِلمِ ما في غَدٍ عَمي
رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب ❖ تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ
وَمَن لَم يُصانِع في أُمورٍ كَثيرَةٍ ❖ يُضَرَّس بِأَنيابٍ وَيوطَأ بِمَنسِمِ
وَمَن يَجعَلِ المَعروفَ مِن دونِ عِرضِهِ ❖ يَفِرهُ وَمَن لا يَتَّقِ الشَتمَ يُشتَمِ
وَمَن يَكُ ذا فَضلٍ فَيَبخَل بِفَضلِهِ ❖ عَلى قَومِهِ يُستَغنَ عَنهُ وَيُذمَمِ
وَمَن يوفِ لا يُذمَم وَمَن يُفضِ قَلبُهُ ❖ إِلى مُطمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمجَمِ
وَمَن هابَ أَسبابَ المَنايا يَنَلنَهُ ❖ وَإِن يَرقَ أَسبابَ السَماءِ بِسُلَّمِ
ومن يجعل المعروف في غير أهله ❖ يكن حمده ذمًّا عليه ويندم
وَمَن يَعصِ أَطرافَ الزُجاجِ فَإِنَّهُ ❖ يُطيعُ العَوالي رُكِّبَت كُلَّ لَهذَمِ
وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ ❖ يُهَدَّم وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ
وَمَن يَغتَرِب يَحسِب عَدُوًّا صَديقَهُ ❖ وَمَن لا يُكَرِّم نَفسَهُ لا يُكَرَّمِ
وَمَهما تَكُن عِندَ امرِئٍ مِن خَليقَةٍ ❖ وَإِن خالَها تَخفى عَلى الناسِ تُعلَمِ

وهكذا، يقدم لنا زهير في آخر معلقته مجموعة من الحِكم العالية والغالية، والتي من أجلها عرف زهير بأنه شاعر حكيم، وإذا كان في بعض الحكم التي ذكرها زهير ما يستحق النظر أو التعليق من مثل قوله:

رَأَيتُ المَنايا خَبطَ عَشواءَ مَن تُصِب ❖ تُمِتهُ وَمَن تُخطِئ يُعَمَّر فَيَهرَمِ

فإننا نقول: إن المنايا في التصور الإسلامي لا تسير خبط عشواء، والعشواء في كلام زهير هي الناقة التي لا تبصر؛ فتسير تخبط هذا فتميته ومن لا تخبطه لا يموت، وهو يشبه سير المنايا في الناس بذلك.

ونحن نقول: إن المنايا أو الموت في التصور الإسلامي قدر يجري بحكمة الله ﷻ العالية، وبتقديره المُحكم ليس في الأمر خبط عشواء. وقوله:

وَمَن لا يَذُد عَن حَوضِهِ بِسِلاحِهِ ❖ يُهَدَّم ....

هذا صحيح، وفيه حث على أن يحرص الناس على كرامتهم وأن يدافعوا عن حرماتهم، وقوله:

.... ❖ ... وَمَن لا يَظلِمِ الناسَ يُظلَمِ

تقرير أو وصف لما كان يحدث في الجاهلية، وليس دعوة منه إلى الظلم.

هذه معلقة زهير تقدم لنا صاحبها على أنه رجل حكيم مجرّب كان يمدح من يستحقون المدح، يعلي من قيمة الصدق في الكلمة ويلتزم بها، ولا يمدح الناس إلا بما يستحقونه، وهو بهذه الأوصاف التي ذكرها للهرم بن سنان، والحارث بن عوف كأنه يقدم لنا نموذجًا للرجل الكريم السيد الذي يسعى لخير قومه، والذي يستحق من الناس أن يشيدوا بفعاله، كما تقدم لنا هذه الحكم التي وردت في آخر المعلقة صورة لعقل زهير، وصورة لتجاربه في الحياة، كما أود أن أشير إلى البراعة الفنية في الصورة التي رسمها زهير للحرب، وهو ينفّر منها عن طريق الاستعارة في قوله:

فَتَعرُككُمْ عَركَ الرَّحَى بِثِفَالِها ❖ وَتَلْقَحْ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِم
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ❖ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ
فَتُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِلُّ لأَهْلِهَا ❖ قُرًى بِالعِراقِ مِنْ قَفِيْزٍ وَدِرْهَمِ

ففي هذه الأبيات استعار زهير الرحا للحرب، كما استعار لها أيضًا الناقة التي تلقح وتنتج كل عام وتتئم، واستعار لها أيضًا أرض العراق، لكن النتاج من الناقة والنتاج من الأرض خيرٌ يحبه الناس، أما الناتج عن الحرب؛ فهو شرٌّ ووبالٌ وشؤمٌ كما بيَّن زهير ذلك.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من معلقة عمرو بن كلثوم

عناصر الدرس

العنصر الأول	: التعريف بالشاعر: عمرو بن كلثوم	١٣٥
العنصر الثاني	: عرض المعلّقة، وبيان معانيها	١٣٥
العنصر الثالث	: بعض مواطن الجمال في القصيدة	١٣٩

التعريف بالشاعر: عمرو بن كلثوم

عمرو بن كلثوم: هو عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتّاب بن سعد بن زهير -من تغلب- بن وائل، أمه ليلى بنت المهلهل، أخي كليب. وهذه القصيدة يُروى أنه قالها بعد أن قتل الملكَ عمرو بن هند، الذي أراد أن تستخدم أمُّه أمّ عمرو بن كلثوم في خدمتها من غير أن تشعر، فلما علم عمرو بن كلثوم -ولدها- بذلك قتل الملك.

وقال هذه القصيدة يفتخر فيها بقومه، وبأيامهم، وحروبهم.

عرض المعلقة، وبيان معانيها

ومطلع القصيدة يقول:

أَلا هُبّي بِصَحنِكِ فَاَصبَحينا ❖ وَلا تُبقي خُمورَ الأَندَرينا

مُشَعشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فيها ❖ إِذا ما الماءُ خالَطَها سَخينا

تَجورُ بِذي اللُبانَةِ عَن هَواهُ ❖ إِذا ما ذاقَها حَتّى يَلينا

تَرى اللَحِزَ الشَحيحَ إِذا أُمِرَّت ❖ عَلَيهِ لِمالِهِ فيها مُهينا

وفي هذه الأبيات يطلب عمرو بن كلثوم -الشاعر- من الساقية أن تسقيه الخمر، ثم يصف هذه الخمر بأنها خمر جيدة، البخيل يجود بماله من أجلها، ويمدحها بأنها تميل صاحب الحاجة عن حاجته، وتُنسيه مشاغله إذا ذاقها؛ فالصعب يلين إذا شُربت هذه الخمر، وأول ما ينبغي أن نلاحظه هنا، هو أن هذه المقدمة تختلف عن مقدمة طرفة، وعن مقدمة عنترة، وعن مقدمة زهير، هناك كانت المقدمات

مقدمات طللية يقف الشاعر بديار المحبوبة التي رحلت، ويحيي هذه الديار، كما قال طرفة:

لِخَولَةَ أَطلالٌ بِبُرقَةِ ثَهمَدِ ❖ تَلوحُ كَباقي الوَشمِ في ظاهِرِ اليَدِ

وكما قال عنترة:

هَل غادَرَ الشُعَراءُ مِن مُتَرَدَّمِ ❖ أَم هَل عَرَفتَ الدارَ بَعدَ تَوَهُّمِ

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي ❖ وَعَمي صَباحًا دارَ عَبلَةَ وَاِسلَمي

وكما قال زهير:

أَمِن أُمِّ أَوفى دِمنَةٌ لَم تَكَلَّمِ ❖ بِحَومانَةِ الدُرّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

لكن عمرو بن كلثوم يُخالف هذا النهج ويفتتح معلقته بمقدمة خمرية، يتحدث فيها عن الخمر ويصفها ويمدحها، ويطلب من ساقيته أن تسقيه، ويمكن أن يكون هناك تعليل مقبول لمخالفة هذا الشاعر للنسق المعروف في مفتتح القصائد؛ لأن المناسبة هنا مناسبة افتخارٍ بحادثة كبيرة، فالشاعر قتل أحد الملوك ثأرًا لكرامته وكرامة قومه كما يقول، والمناسبة تستحق الاحتفال؛ فهو يحتفل بشرب الخمر، ويطلب من ساقيته أن تهُب لتسقيه، ويصف هذه الخمر بالجودة، وبعد أن طلب من ساقيته أن تهب لتسقيه، وبعد أن وصف الخمر بالجودة ذكر أنه كثيرًا ما شرب الخمر، وكثيرًا ما ذهب إلى مدن وبلاد شرب فيها الخمر:

وَكَأسٍ قَد شَرِبتُ بِبَعلَبَكٍّ ❖ وَأُخرى في دِمَشقَ وَقاصِرينا

ولكن العجيب أن عمرو بن كلثوم يذكر المنايا بعد هذه الأبيات مباشرة، فيقول:

وَإِنّا سَوفَ تُدرِكُنا المَنايا ❖ مُقَدَّرَةً لَنا وَمُقَدَّرينا

ولست أدري ما الذي جعله يتذكر المنايا في فرط احتفاله، وفي زحمة نشوته، وحديثه عن الخمر، قد يكون ذكره للموت هنا محاولة لتبرير هذا المسلك الذي

يسلكه في شرب الخمر والتمتع بها ؛ لأن الموت سيدركه ، وأن المنايا مقدرة على النهج الذي رأيناه في معلقة طرفة ، قد يكون ذلك وقد تكون حادثة القتل ، إذ قتل الملك عمرو بن هند ، ذكرته بأن المنايا مقدرة ، وأن الناس مقدرون لها.

انتقل عمرو بن كلثوم بعد ذلك من الحديث عن الخمر إلى شيء آخر ، فقال :

قِفي قَبلَ التَفَرُّقِ يا ظَعينا ❖ نُخَبِّركِ اليَقينا وَتُخبِرينا

والظعينة : هي المرأة المسافرة ؛ فخّمها بحذف تاء التأنيث ، وطلب منها أن تقف ولتخبره باليقين. فبماذا أراد أن يخبرها يقول :

بِيَومِ كَريهَةٍ ضَربًا وَ طَعنًا ❖ أَقَرَّ بِهِ مَواليكِ العُيونا
وَإِنَّ غَدًا وَإِنَّ اليَومَ رَهنٌ ❖ وَبَعدَ غَدٍ بِما لا تَعلَمينا

ثم تغزّل في المرأة ، ووصف جمالها ، ووصف ذراعيها وصدرها وساقيها في غزلٍ يمكن أن نسميه غزلًا جريئًا ، ثم قال بعد هذا الغزل في المرأة :

فَما وَجَدَت كَوَجدي أُمُّ سَقبٍ ❖ أَضَلَّتهُ فَرَجَّعَتِ الحَنينا
وَلا شَمطاءُ لَم يَترُك شَقاها ❖ لَها مِن تِسعَةٍ إِلّا جَنينا

وفي هذين البيتين يصف حزنه على فراق محبوبته ، ويقول : إن حزنه على فراق المحبوبة أشد من حزن الناقة ، التي فقدت ولدها. فما وجدت : أي فما حزنت. كوجدي : أي مثل حزني ، أم سقب : فاعل وجدت ، بمعنى حزنت ، والسقب هو ولد الناقة ، أضلته : أي فقدته ، فرجعت الحنينا : فذهبت تطلبه ، وهي تصدر أصواتًا ، وترجع هذه الأصوات حنينًا وحزنًا على ولدها.

وَلا شَمطاءُ لَم يَترُك شَقاها ❖ لَها مِن تِسعَةٍ إِلّا جَنينا

ولا شمطاء : الشمطاء المرأة العجوز ، وهي معطوفة على أم سقب على الناقة التي فقدت ولدها. يقول : إن حزنه على فراق المحبوبة أشدّ من حزن هذه الناقة

التي فقدت ولدها، وأشد من حزن هذه العجوز التي لم يترك لها حظها التعس، وقدرها المؤلم، لم يترك لها من أبنائها التسعة أحدًا؛ فلم يغادر الموت من أبنائها أحدًا إلا دفينًا؛ فكلمة "جنين" معناها "دفين".

وَلَا شَمطاءُ لَم يَترُك شَقاها ❖ لَها مِن تِسعَةٍ إِلّا جَنينا

يريد أن حزن هذه العجوز التي فقدت تسعة بنين لا يصل إلى حزنه، عند فراقه عشيقته. وبعد ذلك يبدأ عمرو بن كلثوم في الغرض الرئيس في المعلقة، وهو الفخر، فيقول:

أَبا هِندٍ فَلا تَعجَل عَلَينا ❖ وَأَنظِرنا نُخَبِّركَ اليَقينا
بِأَنّا نورِدُ الراياتِ بيضًا ❖ وَنُصدِرُهُنَّ حُمرًا قَد رَوينا
وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ ❖ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا
وَسَيِّدِ مَعشَرٍ قَد تَوَّجوهُ ❖ بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا
تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ ❖ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا

"أبا هند" يعني: يا أبا هند، يخاطبه، "فلا تعجل علينا وأنظرنا": أمهلنا، حتى نخبّرك اليقين.

بِأَنّا نورِدُ الراياتِ بيضًا ❖ وَنُصدِرُهُنَّ حُمرًا قَد رَوينا

الراية: العلم والجمع الرايات، يقول: أمهلنا نخبرك باليقين من أمرنا بأنا نورد أعلامنا الحروب بيضاء، ونرجع بها حمرًا قد رويت وصبغت من دم الأبطال، "وأيام لنا" أي: ورب أيام لنا؛ أيام كثيرة حاربنا فيها وانتصرنا وعصينا الملوك ولم نخضع لهم.

... . ❖ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا

أي: أن نخضع.

"وَسَيِّدِ مَعشَرٍ" أي: ورب سيد معشر، "قَد تَوَّجوهُ" أي: جعلوه ملكًا.

.... ❖ بِتاجِ المُلكِ يَحمي المُحجَرينا

أي: يحمي الملجئين إليه.

تَرَكنا الخَيلَ عاكِفَةً عَلَيهِ ❖ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفونا

العكوف: الإقامة الفعل عكف يعكف، والصفون: جمع صافن، يقال: صفن الفرس إذا قام على ثلاثة قوائم وثنى الرابعة.

يقول: تركنا هذا الملك المتوج صريعًا بعد أن قتلناه، ووقفنا فوق جثته بخيلنا.

بعض مواطن الجمال في القصيدة

ثم يقول عمرو:

وَقَد هَرَّت كِلابُ الحَيِّ مِنّا ❖ وَشَذَّبنا قَتادَةَ مَن يَلينا
مَتى نَنقُل إِلى قَومٍ رَحانا ❖ يَكونوا في اللِقاءِ لَها طَحينا
يَكونُ ثِفالُها شَرقِيَّ نَجدٍ ❖ وَلُهوَتُها قُضاعَةَ أَجمَعينا

في هذه الأبيات يصف جبروت قومه في الحرب، يقول: إنهم عندما يلبسون هربت الكلاب -أي: صاحت- بسبب إنكارها القوم بعد أن لبسوا الأسلحة، وقوله:

.... ❖ وَشَذَّبنا قَتادَةَ مَن يَلينا

أي: كسرنا شوكة من يقرب منا من أعدائنا، استعار الشوك لغلّ العدو وحقده، واستعار كسر الشوكة، وتشذيب القتاد لتأديب قومه والانتصار عليهم، قوله:

مَتى نَنقُل إِلى قَومٍ رَحانا ❖ ....

المراد بالرحى: رحى الحرب. واستعار اسم الرحى للحرب، واستعار الطحينا للقتلى، متى ننقل إلى قوم رحانا يكونوا -أي: يكونوا هؤلاء القوم- في اللقاء - في الحرب- لها طحينا.

يَكونُ ثِفالُها شَرقِيَّ نَجدٍ ❖ ولُهوَتُها قُضاعَةَ أجمَعينا

الثفال: القطعة من الجلد أو القماش توضع تحت الرحى لتستقبل الطحين، ويقول: إنهم إذا حاربوا كانت الثفال شرقي نجد، وكانت قبيلة قضاعة كلها هي القبضة من الحبّ التي تُلقى في فم الرحى. فاستعار للمعركة اسم الثفال وللقتلى اسم اللهوة؛ ليشاكل الرحى والطحين.

ثم يقول عمرو بن كلثوم مخاطبًا بعض أعداء قومه:

نَزَلتُم مَنزِلَ الأَضيافِ مِنّا ❖ فَأَعجَلنا القِرى أَن تَشتُمونا

قَرَيناكُم فَعَجَّلنا قِراكُم ❖ قُبَيلَ الصُبحِ مِرداةً طَحونا

يقول: نزلتم منزلة الأضياف، فعجلنا لكم القرى مخافة أن تشتمونا، والقرى: هو ما يقدم إلى الضيف، فهو هنا يتهكم بأعدائه وأعداء قومه ويستهزئ بهم، ويقول: إننا قدمنا لكم القرى، أي: عجلنا لكم العقاب.

قَرَيناكُم فَعَجَّلنا قِراكُم ❖ قُبَيلَ الصُبحِ مِرداةً طَحونا

المرداة: هي الصخرة التي تكسر بها الصخور، واستعار المرداة هنا للحرب، وكلمة "طحونا" فاعول من الطحن مبالغة، أي: قريناكم، أكرمناكم بهذه الحرب الضروس التي هزمناكم فيها.

ثم يصف عمرو بن كلثوم شيئًا من قتال قومه وشجاعتهم، وما ألحقوه بأعدائهم في هذه الحرب، فيقول:

نُطاعِنُ ما تَراخى الناسُ عَنّا ❖ وَنَضرِبُ بالسُيوفِ إذا غُشينا
بِسُمرٍ مِن قَنا الخَطِّيِّ لُدنٍ ❖ ذَوابِلَ أو بِبيضٍ يَختَلينا
كَأَنَّ جَماجِمَ الأبطالِ فيها ❖ وُسوقٌ بالأماعِزِ يَرتَمينا
نَشُقُّ بِها رُءوسَ القَومِ شَقًّا ❖ وَنَختلب الرِقابَ فَتَختَلينا
وَإِنَّ الضِغنَ بَعدَ الضِغنِ يَبدو ❖ عَلَيكَ وَيَخرِجُ الداءَ الدَفينا

يقول: إنهم كانوا يطعنون أعداءهم بالرماح إذا تباعدوا عنهم، ويضربونهم بالسيوف إذا اقتربوا منهم، وقد قتلوا منهم عددًا كبيرًا. وإن جماجم الأبطال الشجعان كانت تتساقط كما ترمى أحمال الإبل في الأماكن الكثيرة الحجارة، شبه رءوسهم في عِظَمها بأحمال الإبل التي تلقى في الأرض.

كَأَنَّ جَماجِمَ الأبطالِ فيها ❖ وُسوقٌ بالأماعِزِ يَرتَمينا

فالوسوق: جمع وسق، وهو حمل البعير. والأماعز: جمع الأمعز، وهو المكان الذي تكثر حجارته.

"نشق بها رءوس القوم" أي: نشق بسيوفنا رءوس القوم شقًّا؛ شقًّا: مفعول مطلق مؤكد للفعل، ونختلب الرقاب فتختلينا: الاختلاب قطع الشيء بالمخلب وهو المنجل الذي لا أسنان له، يقول: نقطع رءوسهم ونقطع رقابهم فتقطع.

ثم يفتخر عمرو بن كلثوم بقومه وجدوده، وأن الناس يعلمون شجاعتهم، ويعلمون بلاءهم في الحروب، فيقول:

وَرِثنا المَجدَ قَد عَلِمَت مَعَدٌّ ❖ نُطاعِنُ دونَهُ حَتّى يَبينا
وَنَحنُ إذا عِمادُ الحَيِّ خَرَّت ❖ عَنِ الأحفاضِ نَمنَعُ مَن يَلينا
نَجُذُّ رُؤوسَهُم في غَيرِ بِرٍّ ❖ فَما يَدرونَ ماذا يَتَّقونا

كَأَنَّ سُيوفَنا منا ومنهم ❖ مَخاريقٌ بأيدي لاعِبينا
كَأَنَّ ثيابَنا مِنّا وَمِنهُم ❖ خُضِبنَ بأرجوانٍ أو طُلينا

إن مَعَدَّ تعلم أنهم ورثوا المجد كابرًا عن كابر، وأنهم يُقاتلون ويحاربون لحماية مجدهم، حتى يبين هذا المجد، ويظهر شرفهم على الناس جميعًا.

"الحفض": متاع البيت والجمع أحفاض، يقول في البيت الثاني:

وَنَحنُ إِذا عَمادُ الحَيِّ خَرَّت ❖ عَنِ الأَحفاضِ نَمنَعُ مَن يَلينا

يقول: نحن إذا قوضت الخيام فخرّت على أمتعتها نحمي ونمنع من يقترب منا، أو يلجأ إلينا، وندافع عن أنفسنا وعن جيراننا، إذا اشتدَّت الأمور وهرب غيرنا.

نجذ رءوسهم في غير بر: أن نقطع رءوس أعدائنا في غير رحمة. فلا يدرون ماذا يحذرون منا: ماذا يتقون القتل أو سبي النساء، أو استباحة المال.

كَأَنَّ سُيوفَنا منا وَمنهِم ❖ مَخاريقٌ بأيدي لاعِبينا

يقول: كأن سيوفنا في أيدينا وسيوف الأعداء في أيديهم، والجميع لا يحفل بشدة القتال، والكل جريء على النزال، كأن هذه السيوف سيوف من خشب في أيدي أطفال يلعبون بها، يريد أنهم وأعداءهم مقبلون على القتال لا يعبئون بنتائجه، وأن هذا القتال يوقع فيهم وفي أعدائهم جراحًا وقتلًا؛ فتصبغ ثيابهم بالدماء، ويصير لونها أحمر كأنها صبغت بالأرجوان، والأرجوان صبغ أحمر.

كَأَنَّ سُيوفَنا منا وَمنهِم ❖ مَخاريقٌ بأيدي لاعِبينا

كأن: للتشبيه، والسيوف: مشبه، ومخاريق بأيدي لاعبين: المشبه به.

وفي قوله:

كَأَنَّ ثيابَنا مِنّا وَمِنهُم ❖ خُضِبنَ ....

يشير إلى لون الثياب التي خُضبت بالدم كأنها خضبت بالأرجوان.

ثم يقول عمرو بن كلثوم:

إذا ما عَيَّ بالأسنافِ حَيٌّ ❖ مِنَ الهَولِ المُشَبَّهِ أن يَكونا
نَصَبنَا مِثلَ رَهوَةَ ذاتَ حَدٍّ ❖ مُحافَظَةً وَكُنّا السابقينا
بِشُبّانٍ يَرَونَ القَتلَ مَجدًا ❖ وَشيبٍ في الحُروبِ مُجَرَّبينَا

يقول: إذا عجز الناس عن التقدم في الحرب خوفًا من الهول الذي ينتظرهم- نصبنا خيلًا مثل جبل رهوة، أو كتيبة من المحاربين مثل جبل رهوة، كتيبة ذات شوكة. "نصبنا مثل رهوة ذات حد":

نصبنا فعل وفاعل، ومثل صفة لمفعول محذوف، أي: نصبنا كتيبة أو خيلًا مثل، فمثل صفة للمفعول به المحذوف؛ مثل رهوة: مثل مضاف، ورهوة مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف.

و"ذات حد": صفة أخرى. ذات صفة منصوب بالفتحة. وحد: مضاف إليه مجرور بالكسرة. محافظة: مفعول لأجله أي: من أجل المحافظة على مجدنا.

وكنا السابقينا بشبان، أي: نسبق غيرنا وأعداءنا، بفضل شباننا الذين يرون القتل مجدًا، وشيبنا المجربين للحروب.

ثم يقول عمرو بن كلثوم:

أَلا لا يَعلَمُ الأَقوامُ أَنّا ❖ تَضَعضَعنا وَأَنّا قَد وَنينا
أَلا لا يَجهَلَن أَحَدٌ عَلَينا ❖ فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهِلينا

تحذير لأعدائهم أن يجترئوا عليهم؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك فإن الرد عليهم سيكون مضاعفًا، "فنجهل فوق جهل الجاهلين"، و"ألا" كلمة تقال للتنبيه.

ألا لا يَعلَمُ الأقوامُ أنّا ❖ تَضَعضَعنا وَأنّا قَد وَنينا

لا يظن أحد أنا ضعفنا أو أننا يمكن أن نتأخر عن الحرب.

ألا لا يَجهَلَن أحَدٌ عَلَينا ❖ ....

لا تحدث أحدًا نفسه أن يتطاول علينا ؛ فنتطاول عليه تطاولًا مُضاعفًا ، وقد سمى الرد على الجهل جهلًا من باب المشاكلة ، ثم يخاطب عمرو بن كلثوم الملك القتيل عمرو بن هند متشفيًا ومفاخرًا ، فيقول :

بأيِّ مَشيئَةٍ عَمرُو بنَ هِندٍ ❖ نَكونُ لِقَيلِكُم فيها قَطينا

بأيِّ مَشيئَةٍ عَمرُو بنَ هِندٍ ❖ تُطيعُ بنا الوُشاةَ وتَزدَرينا

تَهَدَّدنا وَأوعِدنا رُوَيدًا ❖ مَتى كُنّا لِأُمِّكَ مَقتَوينا

فَإنَّ قَناتَنا يا عَمرُو أعيَت ❖ عَلَى الأعداءِ قَبلَكَ أن تَلينا

إذا عَضَّ الثِقافُ بِها اشمَأزَّت ❖ وَوَلَّتهُم عَشَوزَنَةً زَبونا

عَشَوزَنَةً إذا انقَلَبَت أرَنَّت ❖ تَشُجُّ قَفا المُثَقِّفِ وَالجَبينا

في تكرار الاستفهام : "بأي مشيئة عمرو بن هند" تأكيد على أن الشاعر وقومه لا يقبلون الضيم ، وتأكيد على ازدرائه بهذا الملك الذي قُتل ؛ لأنه أراد أن يستذلهم ، والقطين : المراد به الخدم ، والقيل : الملك الذي يلي الملك الأعظم ، يقول : كيف تشاء يا عمرو بن هند أن نكون خدمًا لمن وليتموهم أمرنا من الملوك أو الأمراء الذين وليتهم علينا ، أي : شيء دعاك إلى هذه المشيئة المستحيلة أو غير المقبولة ، يريد أنه لم يظهر منهم ضعف يقنع الملك في إذلالهم. والاستفهام استفهام إنكاري.

ازدراه وازدرى به : معناه احتقره ، يقول : كيف أطعت الوشاة بنا إليك؟ وكيف أردت وشئت أن تحتقرنا؟! أي شيء دعاك إلى هذه المشيئة؟!.

تهددنا وتوعدنا رويدًا: كأنه يقول: إنهم أعذروا وأنذروا قبل ذلك، وقوله: "متى كنا لأمك مقتوينا"، استفهام إنكاري، متى كنا خدمًا لأمك أيها الملك؟!.

فَإِنَّ قَنَاتَنَا يا عَمرُو أعيَت ❖ عَلى الأعداءِ قَبلَكَ أن تَلينا

العرب تستعير للعزّ اسم القناة، والقناة أداة من أدوات الحرب، يقول: إن قناتنا أبت ورفضت أن تلينا لأعدائنا قبلك. فعزُّنا لا يزول، ويأبى أن يزول، وإننا نحارب أعداءنا لحماية هذا العز الأبي.

إذا عَضَّ الثِقافُ بها اشمَأزَّت ❖ ووَلَّتهُم عَشَوزَنَةً زَبونا

أي: هذه القناة تتأبى على الثقاف، وتشمئز منه، ويظهر منها الصلابة والشدة؛ فلا تخضع ولا تلين. عشوزنة أي: صلبة شديدة.

"إذا انقلبت أرنت" أي: لها صوت، "تشق قفا المثقف والجبينا": ترتد على من يريد تثقيفها وتهذيبها؛ فتشق قفاه، وتشق جبينه، والكلام كله كناية عن عزهم ومجدهم، وأنهم لا يخضعون لأحد. ويستمر عمرو بن كلثوم في فخره بقومه، ويذكر بعض الأبطال من جدوده الذين عُرفوا بإقدامهم وبسالتهم في الحروب، فيقول:

فَهَل حُدِّثتَ في جُشَمَ بنِ بَكرٍ ❖ بِنَقصٍ في خُطوبِ الأَوَّلينا

وَرِثنا مَجدَ عَلقَمَةَ بنِ سَيفٍ ❖ أَباحَ لَنا حُصونَ المَجدِ دينا

وَرِثتُ مُهَلهِلًا وَالخَيرَ مِنهُ ❖ زُهَيرًا نِعمَ ذُخرُ الذاخِرينا

وَعَتّابًا وَكُلثومًا جَميعًا ❖ بِهِم نِلنا تُراثَ الأَكرَمينا

وَذا البُرَةِ الَّذي حُدِّثتَ عَنهُ ❖ بِهِ نُحمى وَنَحمي المُحجَرينا

وَمِنّا قَبلَهُ الساعي كُلَيبٌ ❖ فَأَيُّ المَجدِ إِلّا قَد وَلينا

مَتى نَعقِد قَرينَتَنا بِحَبلٍ ❖ تَجُزُّ الحَبلَ أَو تَقصِ القَرينا

وَنوجَدُ نَحنُ أَمنَعُهُم ذِمارًا ❖ وَأَوفاهُم إِذا عَقَدوا يَمينا

فذكر من أسلافهم وجدودهم: علقمة بن سيف، الذي أباح لهم حصون المجد، وجعل هذا المجد كأنه دين، عليه يقومون أو عنه يدافعون، وذكر زهيرًا وعتّابًا وكلثومًا وكُليبًا وذا البرة، وكلهم من الجدود والأسلاف أصحاب الشهرة في القتال والحرب. وقوله:

مَتى نَعقِد قَرينَتَنا بِحَبلٍ ❖ تَجُزُّ الحَبلَ أَو تَقص القَرينا

يقول: متى قرنا ناقتنا بأخرى قطعت الحبل، أو كسرت عنق القرين. والمراد متى قرنا بقوم في قتال أو جدال غلبناهم وقهرناهم. والجذ هو القطع، جذَّ يجذ قطع يقطع، والوقص دق العنق، والفعل وقص يقص. وقوله:

وَنوجَدُ نَحنُ أَمنَعُهُم ذِمارًا ❖ وَأَوفاهُم إِذا عَقَدوا يَمينًا

يقول: تجدنا -أيها المخاطب- أمنع الناس ذمة وجوارًا وحلفًا، وأوفاهم باليمين والعهد والعقود، وذلك كله مما كان يتفاخر العرب به.

ثم يذكر عمرو بن كلثوم بعض الأيام التي شهدت قتال قومه، وانتصارهم. ويذكر أنهم عندما كانوا يحاربون إلى جوار أقاربهم، أو بني عمومتهم كانوا يأخذون الميمنة في الحرب، وكان بنو عمهم يأخذون الميسرة، وأن قومه كانوا يرجعون بالملوك مقيدين، وكان بنو عمومتهم بالسبايا والغنائم، يقول:

وَكُنّا الأَيمَنينَ إِذا التَقَينا ❖ وَكانَ الأَيسَرين بَنو أَبينا
فَصالوا صَولَةً فيمَن يَليهِم ❖ وَصُلنا صَولَةً فيمَن يَلينا
فَآبوا بِالنِهابِ وَبِالسَبايا ❖ وَأُبنا بِالمُلوكِ مُصَفَّدينا
إِلَيكُم يا بَني بَكرٍ إِلَيكُم ❖ أَلَمّا تَعرِفوا مِنّا اليَقينا

وبنو بكر هم بنو أعمامهم الذين حدث الشقاق والخلاف بينهم، وقامت بينهم حرب ضروس هي حرب البسوس، ثم يصف عمرو بن كلثوم خيل قومه

وأسلحتهم، ويذكر أنهم ورثوا هذه الأسلحة وهذه الخيل عن آباء أمجاد، وأنهم يورثونها بعدهم لأبنائهم النجباء، فيقول:

وَرِثناهُنَّ عَن آباءِ صِدقٍ ❖ وَنُورِثُها إِذا مُتنا بَنينا

والضمير في "ورثناهن" يعود إلى الخيل.

ويستمر عمرو بن كلثوم في فخره المتطاول بقومه، ويذكر أن نساءهم يتبعنهم في الحروب، وأنهن يشجِّعن الرجال على الحرب والقتال للدفاع عنهن وحمايتهن، وأن رجالهم يوفوا للنساء بما طلبن، يقول:

عَلى آثارِنا بيضٌ حِسانٌ ❖ نُحاذِرُ أَن تُقَسَّمَ أَو تَهونا
أَخَذنَ عَلى بُعولَتِهِنَّ عَهدًا ❖ إِذا لاقَوا كَتائِبَ مُعلَمينا
لَيَستَلِبُنَّ أَفراسًا وَبيضًا ❖ وَأَسرى في الحَديدِ مُقَرَّنينا
تَرانا بارِزينَ وَكُلُّ حَيٍّ ❖ قَدِ اتَّخَذوا مَخافَتَنا قَرينا
إِذا ما رُحنَ يَمشينَ الهُوَينا ❖ كَما اضطَرَبَت مُتونُ الشارِبينا
يَقُتنَ جِيادَنا وَيَقُلنَ لَستُم ❖ بُعولَتَنا إِذا لَم تَمنَعونا
ظَعائِنَ مِن بَني جُشَمَ بنِ بَكرٍ ❖ خَلَطنَ بِمَيسَمٍ حَسَبًا وَدينًا

فالأبيات السابقة كلها تدور حول هذا المشهد: أن نساءهم يتبعنهم في الحروب، ويحرضن الرجال على الحرب والدفاع والثبات، والانتصار على أعدائهم، وأن هؤلاء النسوة من بني جشم بن بكر، خلطن بميسم حسبًا ودينًا.

الميسم: الحسن، وهو من الوسام والوسامة، وهما بمعنى الحسن والجمال، والحسب ما يحسب من مكارم الإنسان ومكارم أجداده، والدين: ما يدين به القوم من قيم وعقائد؛ فهو يثني على نساء قومه، ويقول: إن الرجال يثبتون في الحرب ويقاتلون قتال الأبطال؛ ليحموا هؤلاء النساء.

ثم يختم عمرو بن كلثوم معلقته بأبيات تفيض بهذا الفخر المتعاظم المتطاول، فيقول:

وَقَد عَلِمَ القَبائِلُ مِن مَعَدٍّ ❖ قبابًا لي بأبطحها بُنينا

بأنا المُطعِمونَ إذا قَدَرنا ❖ وَأَنّا المُهلِكونَ إِذا ابتُلينا

وَأَنّا المانِعونَ لِما أَرَدنا ❖ وَأَنّا النازِلونَ بِحَيثُ شينا

وَأَنّا التارِكونَ إِذا سَخطنا ❖ وَأَنّا الآخِذونَ إذا رَضينا

وَأَنّا العاصِمونَ إِذا أُ ـعنا ❖ وَأَنّا العازِمونَ إِذا عُصينا

وَنَشرَبُ إِن وَرَدنا الماءَ صَفوًا ❖ وَيَشرَبُ غَيرُنا كَدَرًا وَ ـينا

إِذا ما المَلكُ سامَ الناسَ خَسفًا ❖ أَبَينا أَن نُقِرَّ الذُلَّ فينا

مَلَأنا البَرَّ حَتّى ضاقَ عَنّا ❖ وماء البَحرُ نَملَأُهُ سَفينا

إِذا بَلَغَ الفِطامَ لَنا صَبِيٌّ ❖ تَخِرُّ لَهُ الجَبابِرُ ساجِدينا

هكذا افتخر عمرو بن كلثوم بقومه وقبيلته.

ولا بد أن نلاحظ هنا أن عمرو بن كلثوم لم يفتخر بنفسه، كما فعل طرفة، وكما فعل عنترة بن شداد؛ لأن عنترة بن شداد وطرفة كلًّا منهما كان يعاني من لوم قومه، ومن نبذ قومه، وهو يرى أنه يمتلك من الصفات الشخصية ما يؤهله لأن يعرفه له قومه مكانته، ومن هنا جاء فخر كل واحد منهما فخرًا شخصيًّا، أما فخر عمرو بن كلثوم فهو فخر بالقبيلة، وأنه في كل فخره لم يتحدث بضمير المفرد، وإنما يتحدث بضمير الجماعة؛ فهو في هذه القصيدة لسان قبيلته بني تغلب.

ومن هنا روى الرواة أن بني تغلب كانوا حِراصًا أشد ما يكون الحرص على حفظ هذه القصيدة، وعلى روايتها؛ يرثها أبناء تغلب جيلًا بعد جيل، حتى جاء شاعر وأراد أن يهجوهم، فقال:

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كلّ مَكْرُمَةٍ ❖ قَصِيدَةٌ قالها عمروُ بن كُلْثُوم

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من معلقتي لبيد، والنابغة الذبياني

عناصر الدرس

العنصر الأول : لبيد ومعلقته ١٥١
العنصر الثاني : النابغة ومعلقته ١٥٩

لبيــــــــــد ومعلقتــــــــــه

أما الشاعر لبيد بن ربيعة: فهو شاعر من مُضر، واحد من الشعراء الفُرسان الأجواد، وهو أحد الشعراء المخضرمين المعمرين، عاش شطرًا من حياته في الجاهلية، وأدرك الإسلام وأسلم وحسن إسلامه، ومات سنة أربعين من الهجرة النبوية الشريفة، ومعلقته من الشعر الجاهلي.

ولبيد بن ربيعة من أسرة ماجدة، كان أبوه يُلقب "ربيع المقترين"؛ لجوده ونجدته، وأعمامه من الفرسان المشهورين: عامر ملاعب الأسنة، والطفيل الفارس المشهور، ومعاوية، وأخوه أربد فارس شجاع، وابن عمه عامر بن الطفيل من أكثر فرسان العرب شهرةً.

وقد تخطف الموت هؤلاء جميعًا في حياة لبيد، فتأثر بذلك تأثرًا كبيرًا، ورَثَاهم في شعره رثاء الأبطال الكبار.

ولما أسلم لبيد عكف على تلاوة القرآن وحفظه، واستبدله بالشعر.

ومن الدارسين مَن يقول: إنه لم يقل في الإسلام إلا أبياتًا معدودات، منها: قوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ ❖ وكل نعيم لا محالة زائلُ

ومنهم من يقول: إن له شعرًا كثيرًا في الإسلام.

على أي حال؛ هذه المعلقة التي نتعرض لها اليوم شعرٌ جاهليٌّ خالصٌ.

تبدأ المعلقة بالنسيب، والوقوف على الأطلال كعادة الشعراء في مفتتح قصائدهم في ذلك العصر.

يقول لبيد في مقدمة معلقته:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّها فمُقَامُها ❖ بمنىً تَأَبَّدَ غَوْلُها فرِجَامُهَا
فَمَدَافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُها ❖ خَلَقًا كما ضمِنَ الوُحِيَّ سِلامُهَا
دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِها ❖ حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُها وَحَرامُهَا
رُزِقَتْ مَرَابِيعَ النُّجومِ وَصَابَها ❖ وَدْقُ الرَّواعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُها
مِنْ كُلِّ سَارِيَةٍ وَغَادٍ مُدْجِنٍ ❖ وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِبٍ إِرْزَامُهَا
فَعَلا فُرُوعُ الأَيْهُقانِ وَأَطْفَلَتْ ❖ بالجَلْهَتَيْنِ ظِباؤُها وَنَعامُهَا
وَالعِينُ سَاكِنَةٌ على أَطْلائِها ❖ عُوذًا تَأَجَّلُ بالفَضاءِ بِهَامُهَا
وَجَلاَ السُّيولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّها ❖ زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُهَا
أَوْ رَجْعُ واشِمَةٍ أُسِفُّ نؤورُها ❖ كِفَفًا تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وِشَامُهَا
فَوَقَفْتُ أَسْأَلُها وَكَيفَ سُؤَالُنا ❖ صُمًّا خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلامُهَا
عَرِيَتْ وكَانَ بِهَا الجَمِيعُ فَأَبْكَرُوا ❖ مِنْهَا وغُودِرَ نُؤْيُهَا وثُمَامُهَا

والملاحظ على لغة لبيد أنها لغةٌ غامضةٌ، فيها كلامٌ كثيرٌ يحتاج إلى التفسير بالاستعانة بالمعاجم.

ويلاحظ: أن الضمير في نهاية القافية لا بد من ملاحظة مرجعه؛ حتى يتبين لنا المعنى، والأبيات التي قرأناها وصفٌ لِمَا حدث للديار من خراب بعد رحيل أهلها عنها، وأن البقر الوحشي سكَنَ هذه الأماكن، وأخذ يسرح ويغدو ويروح فيها، وأن بقايا الأطلال الباقية تشبه الوشم الباقي في الذراع -وأشرنا إلى مسألة الوشم في مقدمات سابقة- ثم قال: إنه وقف على هذه الديار يسائلها، ثم يقول:

.... وَكَيفَ سُؤَالُنا ❖ صُمًّا خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلامُهَا

كأنه رجع عن السؤال؛ لأن هذه الديار لا تجيب، وأخبر أن أهلها تركوها وغادروها، وحل محلهم فيها حيوان الصحراء الوحشي.

ثم بعد هذه المقدمة الطللية انتقل لبيد إلى الكلام عن المحبوبة فقال -بعد أبيات:

بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارَ وَقَدْ نَأَتْ ❖ وَتَقطّعتْ أسْبابُهَا وَرِمَامُهَا

ونوار: اسم امرأة، "وقد نأت" أي: بعدت، وتقطعت أسبابها ورمامها: أسباب وصلها.

مُرِّيّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدَ وَجَاوَرَتْ ❖ أهْلَ الحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا

يتساءل: أين منك مرام هذه المحبوبة، أو كيف الوصول إليها بعد أن ذهبت بعيدًا؟!.

ثم قال:

فاقطعْ لُبانَةَ مَنْ تَعَرّض وَصْلُهُ ❖ وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلّةٍ صَرّامُهَا

اللبانة: الحاجة، والخلة: المودة، والصَّرْم: معناه القطع. وهنا يقول: اقطع صلةَ مَن قطع صلته بك.

واحْبُ المُجَامِلَ بِالجَزِيلِ وَصَرْمُهُ ❖ باقٍ إذا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا

المجامل: الذي يحسن إليك، "واحْبُ المُجَامِلَ" أي: جامله كما يجاملك، بالجزيل، أي: بالجميل، وصرمه باقٍ: أي: قطع الصلة به ممكن إذا هو أساءَ وقطع الصلة، زاغ: أي: مال، وقوام الشيء: ما يقوم به.

بعد ذلك يقول:

بطَلِيحِ أسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيّةً ❖ منها فأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا

"بطليح أسفار"، المراد به: الناقة، والطليح: هو الهزيل، والأسفار: جمع سفر، وكلمة "بطليح": جار ومجرور متعلق بـ"صرمه باقٍ" أي: إن القطيعة ممكنة عن

طريق هذه الناقة التي يمكن أن ترتحل بها وقد جربت السفر كثيرًا ؛ حتى إن الأسفار لم تترك من لحمها وشحمها إلا بقيةً :

واحْبُ المُجَامِلَ بالجَزِيلِ وَصَرْمُهُ ❖ باقٍ إذا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قِوَامُهَا
بطَلِيحِ أسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً ❖ منها فأحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا

ثم يأخذ لبيدٌ في وصف ناقته، فيذكر سرعتها ويشبهها بالسحابة السريعة، ثم يشبهها بعد تشبيهه إياها بالسحابة بأنثى الحمار الوحشي، ويذكر لنا قصةً لهذه الأنثى -أو لهذه الأتان- فيصورها لنا وقد تنافست فيها الفحول وازدحمت عليها، وهي تجري مسرعةً حتى يستأثر بها واحد من هذه الوحوش، فيدفعها أمامه وهي تحاول الإفلات منه، وهو يعدو على إثرها حتى تضمنهما مكان مرتفع كثُر فيه النبت، وغطاه العشب، أقامَا معًا فيه فصل الشتاء، مكتفيَيْن بنباته عن الماء، فإذا جاء الصيف ؛ جف النبات وأصبح الحمار وأنثاه في حاجة إلى الماء، فيدفعها أمامه فتعدوا عدوًا سريعًا ؛ كأنها تريد أن تَفلت منه مرةً أخرى، لكنه يعدو وراءها، ثم يدخلان في غبار كأنه ملاءة تغطيهما، أو كأنه دخان نار اشتعلت باليابس والرطب، فعلا دخانها، لكن الحمار وأنثاه لا يزالان يعدوان بسرعة شديدة ؛ حتى يصلَا إلى ماء غزير في غابة كثيفة :

يقول لبيد في تشبيه ناقته بالسحابة وتشبيهها بأنثى حمار الوحش :

فَلَها هِبابٌ في الزِّمامِ كَأنَّها ❖ صَهْبَاءُ خَفَّ مَعَ الجَنُوبِ جَهَامُهَا

الهباب : النشاط، والصهباء : الحمراء، السحابة التي أراقت ماءها فأصبحت خفيفةً.

أوْ مَلمِعٌ وَسَقَتْ لِأحْقَبَ لَاحَهُ ❖ طَرْدُ الفُحُولِ وَضربُهَا وَكِدَامُهَا

الملمع : التي أشرقت درتها باللبن، وسقت : أي : حملت، والأحقب المراد به : الفحل من حُمُر الوحش، والكَدم والكِدام : العض.

ثم يشبه لبيد ناقته ببقرة وحشية بائسة أكلت السباعُ ولدها، فهامت على وجهها في الصحراء تبحث عنه، وظلت أيامًا تبحث عنه في الصحراء، والحزن محيط بها، وبينما هي كذلك شعرت بأُناس يترقبون صيدها، فأسرعت تجري، فأرسل الصيادون وراءها الكلابَ، فقامت بينها وبين الكلاب معركة، استطاعت بقرونها أن تقتل كلبين منها، وأخذت في الجري لتهرب من جديد، شبه لبيد ناقته بهذه البقرة في هذه الحال.

ولا بد أن نقفَ عند بعض الأبيات من هذه القصة - قصة البقرة الوحشية، وهي مُطارَدة من الصياد - قال لبيد في بداية القصة والتشبيه:

أفَتِلْكَ أمْ وَحْشِيّةٌ مَسْبُوعَةٌ ❖ خَذَلَتْ وَهَادِيَةُ الصِّوَارِ قِوَامُهَا
خَنْسَاءُ ضَيّعَتِ الفَرِيرَ فَلَمْ يَرِمْ ❖ عُرْضَ الشّقَائِقِ طَوْفُهَا وَبُغَامُهَا

ثم قال - مصورًا خوفهَا والمعركة التي دارت بينها وبين الكلاب:

وَتَوجَّسَتْ رِزَّ الأنيسِ فَرَاعَهَا ❖ عَنْ ظَهْرِ غَيبٍ والأنيسُ سَقَامُهَا
فَغَدَتْ كِلا الفَرجَيْنِ تَحْسِبُ أنّه ❖ مَوْلَى المَخَافَةِ خَلْفُها وَأمَامُهَا
حَتى إذا يَئِسَ الرُّمَاةُ وَأرْسَلُوا ❖ غُضفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أعْصَامُهَا

والمراد بالغضف الدواجن: القافلة الأعصم هنا: الكلاب الضامرة، كلاب الصيد.

فَلَحِقْنَ واعْتَكَرَتْ لها مَدَرِيّةٌ ❖ كالسَّمْهَرِيّةِ حَدُّهَا وَتَمَامُهَا

المدرية: قرون البقرة، كالسمهرية: شبهها بالرماح السمهرية.

لِتَذُودَهُنّ وَأيقَنَتْ إنْ لَمْ تَذُدْ ❖ أنْ قَدْ أُحِمَّ مَعَ الحُتُوفِ حِمَامُهَا

إن لم تدفع الكلاب عنها ستموت.

فتَقَصَّدَتْ منها كَسابِ فضرِّجتْ ❖ بدَمٍ وَغُودِرَ في المكَرِّ سُخَامُهَا

وكساب وسخام: اسمان لكلبتين من كلاب الصيد، يقول: إن البقرة الوحشية قتلتهما. ثم يقول لبيد:

فَبِتِلْكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوامِعُ بالضحى ❖ وَاجْتَابَ أرْدِيَةَ السَّرابِ إِكامُهَا

أقْضِي اللُّبانَةَ لا أُفَرِّطُ رِيبَةً ❖ أَوْ أَنْ يَلُومَ بحَاجَةٍ لُوّامُهَا

يقول: بتلك الناقة التي شبهتها لك بالسحابة مرةً، وبأنثى حمار الوحش مرةً، وبالبقرة الوحشية مرةً ثالثةً، بهذه الناقة أقضي حاجتي في السفر والترحل إذا لم أرضَ عن المكان الذي أقيم فيه.

ثم يعود لبيد إلى الخطاب -أو إلى الحديث- عن محبوبته، فيقول:

أوَلَمْ تَكُنْ تَدري نَوارُ بِأنّني ❖ وَصّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَذّامُهَا

تَرّاكُ أمكِنَةٍ إذا لَمْ أرْضَها ❖ أو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النُّفوسِ حِمَامُهَا

ومن هنا يبدأ لبيد في الفخر بنفسه، فيقول:

وَلَقَدْ حَمَيتُ الحَيَّ تَحْمِلُ شِكَّتِي ❖ فُرْطٌ وِشاحي إذ غَدَوْتُ لِجَامُهَا

فَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا على ذي هَبْوَةٍ ❖ حَرِجٍ إلى أعلامِهِنّ قَتَامُهَا

حَتى إذا أَلْقَتْ يَدًا في كافِرٍ ❖ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلامُهَا

أَسْهَلْتُ وانْتَصَبَتْ كَجِذْعِ مُنِيفَةٍ ❖ جَرْدَاءَ يَحْصَرُ دُونَهَا جُرّامُهَا

يقول: إنه يحمي قومه ويركب فرسًا سريعةً سابقةً، يكون لجامها وشاحة، وأنه يعلو بهذه الفرس الأماكنَ العاليةَ التي يراقب منها أعداءه.

على ذي هبوة: أي: على جبل. ثم يقول: إنه ينزل إذا غابت الشمس إلى السهل بهذه الفرس. "حتى إذا ألقت يدًا في كافر"، ألقت: أي: الشمس، في كافر: أي:

الليل، والليل يُقال له: كافر؛ لأنه يسترُ الأشياءَ من الفعل كَفَرَ، بمعنى: سَتَرَ. أي: غربت الشمس:

حَتى إذا أَلْقَتْ يَدًا في كافِرٍ ❖ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلامُهَا
أَسْهَلْتُ وانْتَصَبَتْ كَجِذْعِ مُنِيفَةٍ ❖ جَرْدَاءَ يَحْصَرُ دُونَهَا جُرَّامُهَا

أي: نزلت إلى السهل بهذه الفرس الجرداء التي تشبه النخلة العالية الطويلةَ.

ثم وصف هذه الفرس في أبيات، ثم افتخر بأنه يغشَى المحافل الكبيرةَ يدافع عن قومه وعن مجدهم، ويفتخر بأنه يذبح الذبائح العظيمة، ويقدم لحومها للفقراء والمحتاجين.

ثم ينتقل لبيد إلى الفخر بقومه، فيقول:

إنَّا إذا الْتَقتِ المَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ ❖ مِنّا لِزَازُ عَظِيمَةٍ جَشّامُهَا

"لزاز عظيمة" المراد: منا رجال يصلحون...

ثم ينتقل لبيد إلى الفخر بقومه، فيثني عليهم بأنهم كِرام، وأنهم أماجد، وأنهم قُسِمَ لهم من الأمانة نصيب وافر، يقول لبيد:

مِنْ مَعشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ ❖ ولِكُلّ قَوْمٍ سُنّةٌ وَإمَامُهَا
لا يَطبَعُونَ ولا يَبُورُ فِعَالُهُمْ ❖ إذْ لاَ يَمِيلُ معَ الهَوَى أحْلاَمُهَا
وإذا الأمانَةُ قُسّمتْ في مَعْشَرٍ ❖ أوْفَى بِأوْفَرِ حَظّنَا قَسَّامُهَا
فَبَنَى لَنا بَيْتًا رَفِيعًا سَمْكُهُ ❖ فَسَمَا إليهِ كَهْلُهَا وغُلامُهَا
فَهُمُ السُّعاةُ إذا العَشيرَةُ أُفظِعَتْ ❖ وَهُمُ فَوارِسُها وَهُمْ حُكّامُهَا
وهُمُ رَبِيعٌ لِلمُجَاوِرِ فيهِمُ ❖ والمُرْمِلاتِ إذا تَطاوَلَ عَامُهَا
وَهُمُ العَشِيرَةُ أَنْ يُبَطِّئَ حاسِدٌ ❖ أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ العَدُوِّ لِئَامُهَا

ونحن نلاحظ أن اللغة في فخره أصبحت لغةً سهلةً بالقياس إلى لغته في وصف الناقة، وفي وصف البقرة الوحشية، وفي وصف حمار الوحش، وفي وصف الفرس.

والحقيقة: أن هذه اللغة التي يمكن أن تكون غريبة علينا، ترجع غَرابتها إلى ذوقنا نحن؛ لأن المسافة الفاصلة بيننا وبين هذه القصيدة مسافة طويلة في الزمن، وكثيرٌ من هذه الألفاظ مهجورة في الاستعمال الحديث للغة العربية، لكنها - بالتأكيد- كانت معروفة أيام لبيد؛ لكننا -كما قلتُ- نجد لغته في فخره بنفسه وفي فخره بقومه أقل غرابةً بالنسبة لنا؛ فهو يفتخر بأن قومه كرام، وبأنهم أمناء، وبأن الله ﷻ قَسَمَ لهم حظًّا وافرًا مما يمكن أن يفتخروا به، وأن الله بنَى لهم بيتًا رفيعًا يسمو إليه الغلام منهم والشيخُ، وأنهم السعاة الذين يسعَوْن في الملمات، وأنهم الفوارس، وأنهم الحكام والحكماء، وأنهم الكرام الذين يغيثون المرملات -أي: النساء الفقيرات- وأنهم إذا أبطأ حاسد في أن يشيد بهم، عندهم من المجد ما يكفيهم.

إذًا؛ هذه معلقة لبيد بن ربيعة: بدأت بالوقوف على الأطلال، ثم انتهت بالفخر، وبين المقدمة والنهاية وصَفَ الشاعر ناقته، وشبهها بحمار الوحش، ووصف حمار الوحش وحياته، وشبهها بالبقرة الوحشية، ووصف هذه البقرة وقصتها مع الصياد ومع كلابه. والغرض الأساسي من هذه القصيدة هو الفخر بطبيعة الحال.

واستطاع لبيد أن يرسم صورًا غايةً في الجمال في هذه القصيدة، ويحتاج تذوقها إلى تأمل، وإلى معرفة بمعاني الألفاظ وبمواقع الإعراب، ثم بإعمال الخيال في تخيل الصور التي التقطها لبيد من بيئته في التشبيه، وفي الاستعارة.

والحقيقة: أن وصفه لحمار الوحش وحياته، ووصفه لقصة البقرة، في هذا الوصف كثير من الصور الجميلة الرائعة.

كما استطاع لبيد أن يقدم لنا في هذه القصية صورة عن أخلاقه وطبعه، فهو كريم وهو شجاع، وهو لا يقبل من صديقه أن يهجره أو أن يقطع صلته به دون أن يرد عليه بالمثل؛ فهو إذا قطع صديقه قطع؛ وإذا رحلت عنه حبيبته ارتحل.

هكذا قدم لنا لبيد في معلقته صورة عن نفسه وطبعه وأخلاقه، وجانبًا من البيئة الصحراوية في العصر الجاهلي.

النابغة ومعلقته

النابغة الذبياني: هو أبو أمامة زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، والنابغة لقب له، وكان من أشرف ذبيان نسبًا، فلما قال الشعر وتكسَّبَ به؛ غض هذا التكسب بالشعر بعض الشيء من شرفه، لكنه لم يتكسب بالشعر إلا في مدح ملوك عصره ولم ينزل به إلى مَن دونهم.

كانت له علاقةٌ وثيقةٌ بالمناذرة ملوك الحيرة، وله فيهم مدائحُ كثيرةٌ، ولكن مَدْحه للنعمان بن المنذر هو الأشهر، وكان النعمان يهبه الهبات العظيمة، وكان من هذه الهبات نُوق تسمى العصافير؛ لأنها نتجت من فحل كريم للعرب يسمى عصفورًا، ويقولون: إن هذه النوق كانت سودًا جميلةَ الشكل، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود في جمال هذه النوق، ولم يزل النابغة مقربًا عند النعمان إلى أن وشَى عند النعمان به بعضُ الوشاة، فأفسد ما بينهما من الود، وخاف النابغة أن يبطش به النعمان بن المنذر ويقتله، فهرَبَ إلى الغساسنة -أعداء المناذرة- واتصل بهم، ومدح ملوكَهم، فاغتم النعمان بن المنذر بسبب ذلك، وكان

النابغة يَحِنُّ إلى قديم عهده عند النعمان بن المنذر، فأخذ يدبج القصائد التي يعتذر فيها إلى النعمان، ويرسلها إليه، فأثرت هذه القصائد في نفسه، ورضي عنه وأرجعه إلى مكانته التي كانت له عنده.

وقد عمر النابغة طويلًا، ويعده ابن سلام من فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية، وكثير من الرواة جعل قصيدته -التي سنتوقف معها- إحدى المعلقات.

ويمتاز شعره برشاقة اللفظ، وحسن النظم، وقلة التكلف، وبراعة التصوير. وكان النابغة ذا بصر عالٍ بالشعر؛ يدل على ذلك: أن معاصريه كانوا ينصبون له خَيْمة في سوق "عكاظ" ويأتيه الشعراء ينشدون قصائدهم بين يديه؛ ليحكم أيهم أجود.

أما معلقته؛ فمطلعها:

يا دار مية بالعلياء فالسند ❖ أقوت و طال عليها سالف الأبد

والغرض الأساسي من هذه القصيدة، هو: الاعتذار إلى النعمان بن المنذر.

وتبدأ القصيدة -كعهد الشعراء الجاهليين في بناء قصائدهم الطويلة- بالوقوف على الأطلال، فـ"مية": اسم امرأة، و"العلياء والسند": اسمان لمكانين، أقوت: أي: خلت، و"سالف الأبد": ماضي الدهر.

وقفت فيها أصيلانًا أسائلها ❖ عيَّت جوابًا وما بالربع من أحد

ثم يقول -عن هذه الدار:

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا ❖ أخنى عليها الذي أخنى على لبد

يقول: إن هذه الديار أصبحت مهجورةً بعد أن رحل أهلها عنها، ولقد أتى عليها الدهر الذي أتى على نسر لقمان بن عاد، وكان للقمان نسر عمر طويلًا اسمه لُبَد. ثم قال النابغة:

فعد عما ترى إذ لا ارتجاعَ له ❖ وانم القُتود على عيرانة أجُدِ

يقول: دعك من هذا الماضي، ودعك من هذه الديار، وانتقل من هذا المكان إلى مكان آخر بهذه الناقة الشديدة الصلبة السريعة، ثم وصف الناقة وشبهها بثور الوحش، قال عن هذا الثور الذي شبه به ناقته:

من وحش وجرة موشي أكارعه ❖ ـاوي المصير كسيف الصيقل الفرد

أسرت عليه من الجوزاء سارية ❖ تزجي الشمال عليه جامد البرد

فارتاع من صوت كلاب فبات له ❖ ـوع الشوامت من خوف ومن صرد

فبثهن عليه واستمر به ❖ صنع الكعوب بريات من الحرد

وكان ضمران منه حيث يوزعه ❖ ـعن المعارك عند المُحجر النجد

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ❖ ـعن المبيطر إذ يشفي من العضد

كأنه خارجًا من جنب صفحته ❖ سفود شرب نسوه عند مفتأد

فظل يعجم أعلى الروق منقبضًا ❖ في حالك اللون صدق غير ذي أود

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ❖ ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت له النفس إني لا أرى طمعًا ❖ وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلًا ❖ على الناس في الأدنى وفي البعد

وفي هذه الأبيات يبدأ النابغة بتشبيه ناقته بثَوْر الوحش، ويصف هذا الثور بأنه مِن وحش وجرة، ووجرة: مكان معروف بسكنَى ثور الوحش فيه.

ويقول: إن هذا الثور ارتاع من صوت كلّاب، صوت صائد معه كِلاب يريد أن يصطاد بها هذا الثور، فلما أدرك الثور ذلك بات ليلته يقِظًا غير مطمئن؛ بسبب الخوف وبسبب البرد.

ثم إن هذا الصياد أرسل الكلاب إلى هذا الثور، فدارت معركة بينه وبين كلبين؛ الكلب الأول: اسمه ضمران:

وكان ضمران منه حيث يوزعه ❖ طعن المعارك عند المحجر النَّجُد

كان هذا الكلب قريبًا من الثور، وأخذ هذا الثور يطعنه طعنَ المعارك المقاتل، حتى طعنه بقَرنه طعنة نافذة قاتلة، وخرج القرنُ من جسم الكلب يشبه عود الحديد، "كأنه": أي: كأن قرن الثور، "خارجًا من جنب صفحته": من جنب الكلب؛ "كأنه سفود شرب"، السفود: هو الحديدة التي يُشوَى عليها اللحم.

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ❖ ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت له النفس إني لا أرى طمعًا ❖ وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

أي: لما رأى الكلب الآخر -وهو واشق مصرع صاحبه ضمران- انهزم ولم يحاول الهجوم على الثور، ثم اتخذ النابغة من هذا الثور مشبَّهًا به لناقته، فقال:

"فتلك تبلغني النعمان" أي: فتلك الناقة التي تشبه هذا الثور:

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلًا ❖ على الناس في الأدنى وفي البعد

يعني: في القريب وفي البعيد له أفضال على الناس جميعًا.

ويبدأ النابغة من هذا البيت مدحه للنعمان، فيقول:

ولا أرى فاعلًا في الناس يشبهه ❖ ولا أحاشي من الأقوام من أحدِ

إلا سليمان إذ قال الإله له ❖ قُم في البرية فاحددها عن الفنَد

وخيس الجن إني قد أذنتُ لهم ❖ يبنون تدمر بالصفاح والعَمَدِ

فمن أطاعك فانفعه بطاعته ❖ كما أطاعك وادْلُلْهُ على الرشَدِ

ومن عصاك فعاقبه معاقبةً ❖ تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمَد

يشبه النابغة النعمان بسليمان # في مُلكه الباذخ الذي أعطه الله ﷻ له.

ثم رجع بالكلام إلى المديح والثناء على النعمان، فقال:

الواهب المائة المعكاء زينها ❖ سعدان توضح في أوبارها اللبد
والأدم قد خيست فتلًا مرافقها ❖ مشدودة برحال الحيرة الجدد
والخيل تمزع غربًا في أعنتها ❖ كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد

يقول: إن النعمان يعطي هذا العطاء السخي الكريم، يهَب المائة من الإبل الغلاظ الشداد، ويهب الخيل الجياد؛ فهو كريم، مِعطاء كرمه وعطاؤه لا حد لهما.

ثم بعد ذلك يقدم النابغة اعتذاره للنعمان، ويقسم أنه بريء مما ذكره الوشاة عنه، فيقول:

فلا لعمرُ الذي مسحت كعبته ❖ وما هريق على الأنصاب من جسد
والمؤمن العائذات الطير يمسحها ❖ ركبان مكة بين الغيل والسَّعَد
ما قلت من سيئ ما أتيت به ❖ إذًا فلا رفعت سو ي إليَّ يدي
إلا مقالة أقوام شقيت بها ❖ كانت مقالتهم قرعًا على الكبد
إذًا فعاقبني ربي معاقبة ❖ قرت بها عين من يأتيك بالفند

فهو يقسم بالله -رب الكعبة- ويقسم بالقربات التي كانوا يقدمونها ويذبحونها للأصنام؛ مبرئًا نفسه مما رُمي به عند الملك، ويقول: إن المقالة التي قالها الوشاة عنه كانت مؤلمة جدًّا له كأنها كانت "قَرْعًا على الكبد"، ثم يدعو على نفسه بأن يعاقبه ربه عقابًا شديدًا، تقر به عين حاسديه إذا كان قد حدث منه ما يسيء إلى النعمان.

وبعد ذلك يقول النابغة:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ❖ ولا قرار على زَأرٍ من الأسد

يذكر أنه بلغه توعد النعمان له وتهديده إياه، ويقول: إن هذا التهديد يشبه زئير الأسد، وكيف يستطيع أن يقر ويطمئن وهذا التهديد قائم؟!.

ثم يطلب من النعمان أن يتمهل ويترفق، فيقول:

مهلًا فداء لك الأقوام كلهم ❖ وما أثمِّر من مال ومن ولد

لا تقذفني بركن لا كفاء له ❖ وإن تأثَّفَك الأعداء بالرفد

معناه: لا ترمني بثقلك؛ فإنك لا مثلَ لك، وقوله: "تأثفك الأعداء" أي: اجتمعوا عليك كالأثافي، "بالرفد" بمعنى: يترافدون عليك، يعني: أعداءه الذين يحاولون إفساد العلاقة بينه وبين الملك.

ثم يعود النابغة إلى مدح النعام مثنيًا عليه بالكرم وجزيل العطاء، فيقول:

فما الفرات إذا هب الرياح له ❖ ترمي غواربه العبرين بالزبد

يمده كل وادٍ مترع لَجِبٍ ❖ فيه ركام من الينبوت والخضد

يظل من خوفه الملاح معتصِمًا ❖ بالخيزرانة بعد الأين والنجد

يومًا بأجود منه سيب نافلة ❖ ولا يحول عطاء اليوم دون غد

هذا الثناء فإن تسمع به حسنًا ❖ فلم أعرِّض أبيت اللعن بالصفد

ها إن ذي عذرة إن لم تكن نفعت ❖ فإن صاحبها مشارك النكد

في قوله: "فما الفرات..." إلى آخره. الفرات: نهر بالعراق، وهو مبتدأ خبره جاء بعد ذلك في قوله: "بأجود" -بعد بيتين- "فما الفرات": أي: نهر العراق، "الذي ترمي غواربه": أي: أمواجه، شاطئيه بالزبد، ويمد هذا النهر أودية غنية بالمياه، فيها ركام من شجر الينبوت ومن شجر "الخضد"، أو من شجر الخَشخاش، والخضد: ما خضد وتكسر، يظل الملاح معتصمًا بذنَب السفينة؛ خوفَ الغرق في هذا النهر الغني المتلاطم الأمواج.

يقول النابغة: إن هذا النهر -نهر الفرات- ليس بأجود من النعمان عطاءً، ولا أكثر منه كرمًا. ثم يقول: إن عطاء النعمان اليوم لا يحول دون عطائه في غَد؛ فعطاؤه

موصول وهداياه متواصلة. ثم يقول النابغة: "هذا الثناء": أي: هذا المدح مني لك، "فإن تسمع به حسنًا": فهو حسن، وأتفاءل إذا سمعته ورضيت عنه، وإن هذه القصيدة أقدمها أعتذر بها عَمَّا وُشِيَ بي عندك به: "ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت": إن لم تنفع هذه الاعتذارية؛ "فإن صاحبها" -أي: الشاعر- "مشارك نكدِ": سيظل حزينًا خائفًا مترقبًا إذا لم تنفع هذه الاعتذارات عند النعمان ولم يصفح عنه.

والحقيقة: أنها نفعت وقبِلها النعمان، وعفا عن الشاعر، وعادت الصلة بينهما كما كانت.

نقول: هذه قصيدة للنابغة تحتوي على تصوير رائع تضمنته الأبيات التي وصف بها الثور الوحشي الذي شبه به ناقته، وذكر قصته مع كلاب الصيد، وكذلك في هذه الأبيات التي يثني بها على النعمان ويمدحه، ويقول: إن نهر الفرات الذي وصفه وقدم صورته في أبيات عديدة ليس بأجودَ من المَلِك، فهذا تشبيه، لكنه تشبيه مقلوب، جعل المشبه به -وهو النهر- أقل جُودًا من الملك النعمان، وهذه مبالغة في وصف النعمان بالكرم وجزيل العطاء.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من قافية الأعشى، وبائية بشر بن أبي خازم الأسدي

عناصر الدرس

العنصر الأول : الأعشى وقافيَّته ١٦٩

العنصر الثاني : بشر بن أبي خازم الأسدي وبائيَّته ١٧٨

الأعشى وقافيته

الأعشَى: هو ميمون بن قيس، وُلِدَ في قرية "منفوحة" من اليمامة في قومه بني قيس بن ثعلبة، وهم بطن من بطون بكر بن وائل بن ربيعة؛ ولُقِبَ بالأعشى لضعف بصره، ويكنى بأبي بصير؛ تفاؤلًا له بشفاء بصره، ويُلقب بصنَّاجة العرب؛ لأنه كان يُتغنى بشعره، وكان في شعره كثيرٌ من الموسيقى والنغم، وكان في أول عهده راوية لخاله المسيب بن علس، وعُرف عن الأعشى أنه انتقل وسافر كثيرًا.

وكان يذهب إلى الملوك وإلى الأمراء يمدحهم بشعره؛ فقد مدح الغساسنة والمناذرة، وكثيرًا من الأمراء والملوك؛ لينال عطاءهم، ويذكر الرواة أنه زار بلاد الفرس، وبلاد النبيط، ونجران، وبعضهم يذكر أنه سافر إلى الحبشة، وقد كانت هذه الرحلات والأسفار عاملًا مؤثرًا في شعره؛ إذ منها أفاد كثيرًا من الخبرات والثقافة، وفي شعره كلمات فارسية كثيرة.

وكان الأعشى شاعرَ الخمرة في عهده بلا منازع؛ لولوعه بها، وإبداعه في وصفها، ووصف مجالسها؛ كما وصف مجالس الغناء واللهو، وهو -مع ذلك شاعر- قبلي، يشير بانتصارات قبيلته ويسجل أمجادها، ويهجو أعداءها، وكان للأعشى تصرف في جميع أغراض الشعر؛ فهو يصف ويتغزل، ويمدح ويهجو.

واشتُهر الأعشى شهرة عظيمة في عصره، وكان لشعره أثرٌ كبيرٌ بدليل قصته المشهورة مع الْمُحَلَّق الكلابي، وتزويجه بناته الثماني بعد أن مدحه الأعشى، وصارت قصيدته التي مدحه بها في الناس.

ولما بُعِثَ الرسول محمد ﷺ كان الأعشى حيًّا يرزق، وأراد أن يذهب إليه ويمدحه ويعلن إسلامه، ولكن قريشًا حالت بينه وبين ذلك، ويقال: إن أبا سفيان بن حرب لَمَّا وجد الأعشى عازمًا على الذهاب إلى الرسول ﷺ قال له: إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك، وكلها بك غافق ولك موافق، قال وما هن؟ قال أبو سفيان: الزنا، والقمار، والربا، والخمر؛ فعدَلَ عن وجهته، وأهدته قريش مائة من الإبل، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضًا عن الرسول ﷺ ودعوته. فلما كان بقاع "منفوحة" رَمَى به بعيره فقتله، وكان موته في السنة السابعة من الهجرة النبوية الشريفة.

وعن توسع الأعشى في وصف الخمر ومجالسها، والفرق في ذلك بينه وبين معاصريه الجاهليين، يقول الدكتور "شوقي ضيف": وحقًّا نجد عند الجاهليين تعرضًا كثيرًا للخمر، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم، على نحو ما نرى في معلقة طرفة، أما عند الأعشى؛ فإننا نجدها في فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله، ونحس كأنها لذته من الدنيا؛ فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربيها، وكأنه يقدسها تقديسًا، فهي وثنه وصنمُه، ولذلك لم يكد يسمع من قريش -كما أسلفنا- أن الرسول ﷺ يحرمها حتى كَفَّ عن لقائه، وانصرف لساعته، وهو يجيد وصفها إجادةً لفتت القدماء إليه، فقالوا: إنه أشعر الجاهليين إذا طرِب -يقصدون: إذا شرب الخمر ووصفها- وهو وصف يفيض بالحيوية؛ إذ يجسم فيه بيئتها ومجالسها، وما ينشر فيها من الورود والرياحين، وما يقوم فيها من السقاة والمغنين والإماء الخليعات اللائي يلبسن الشفوف الرقيقة، وما يضرب عليه العازفون من آلات طرب؛ كالصنج، والعود... وغير ذلك.

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب؛ بل يصف وصفًا دقيقًا أوانيها وألوانها، وما تفعله بعقول شاربيها، وما تُحدث في قلوبهم من نشوة، مما يدل

على أنه كان مشغوفًا بها مفتونًا؛ بل سكيرًا مغرقًا في السكر، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المُجَّان في العصر العباسي أمثال أبي نواس، وفي الوقت نفسه يفترق من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم إسرافه في اللهو والمجون.

ويذهب الدكتور شوقي ضيف إلى: أن هذا جاءه من أثر الحضارات التي ألَمَّ بها في الحيرة وغير الحيرة، بحيث تحول مدمنًا لها، يلزم حوانيتها، فإن ولى وجهه نحو منازل قومه؛ حمَل منها ما يكفيه هو ورفاقُه هناك، فينهلون ويعلون ولا يفيقون، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها؛ وهم يصفقون استحسانًا لِمَا يقول.

كما يرجع الدكتور شوقي ضيف رقة الغزل التي نلاحظها عند الأعشى إلى تأثره بالحضارة أيضًا، فيقول: وهي صَبابة -يقصد رقة الغزل عنده- لا نعرفها عند الجاهليين؛ إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذي أثرت فيه الحضارة، وحولته دقيقَ الحس دقةً شديدةً، فإذا هو يتذلل في حبه ويخضع.

كما يلاحظ: أن الأعشى عندما يشبب بصاحبته تختلف طريقته عن طريق الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال، فهو لا يذهب بعيدًا مع الذكريات؛ لكنه يأخذ في وصف مفاتن محبوبته، فيصف بشرتها وشعرها وعوارضها، وتارةً يصف مِشيتها وحليها، وتارةً يصف تعلق الناس بطلعتها، وما تُغرق فيه من ترفٍ ونعيمٍ وعطورٍ.

والحقيقة: أن هذه المعاني كلها موجودة في شعر الأعشى، وقد صاغها بلغة رقيقة وبأسلوب يختلف في سهولته عن أسلوب الجاهليين.

والقصيدة خير تطبيق لِمَا قلناه، ومطلُعها:

أرقتُ وما هذا السُّهادُ المؤرِّقُ ❖ وما بيَ منْ سقمٍ وما بيَ معشقُ

وَلكِنْ أراني لا أزَالُ بحَادِثٍ ❖ أغادى بما لمْ يمسِ عندي وأ ـرقُ

فإنْ يمسِ عندي الشّيبُ والهمّ والعشى ❖ فَقَدْ بنّ مِنّي وَالسِّلامُ تُفَلَّقُ

و"السِّلامُ" أي: الحجارة.

وهو بعد هذا المطلع ينتقل إلى الكلام عن العبرة من الأيام، وأن الموت يأتي على كل الناس، فذكر في شعره كسرى، وعادي، والملك النعمان بن المنذر، وذكر أنهم جميعًا على ما كان لهم من غِنًى ومجد وملك، لم يحل بينهم كل ذلك وبين الموت.

يقول الأعشى:

فما أنتَ إنْ دامتْ عليكَ بخالدٍ ❖ كمَا لمْ يُخَلَّدْ قَبْلُ سَاسَا وَمُورَقُ

"ساسا" أو "ساسان": مؤسس دولة الساميين الفرس، ومورق: اسم لملِك من ملوك الروم.

وَكِسرَى شَاهِنشاهُ الذي سَارَ مُلكُهُ ❖ لَهُ ما اشتَهَى رَاحٌ عَتِيقٌ وَزَنْبَقُ

شاهنشاه: فارسية معناها: ملك الملوك، والراح: الخمر، والعتيق: الأصيل، والزنبق: نوع من الزهر.

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ❖ ورد بتيماء اليهودي أبلق

الأبلق: قصر لعادي هذا، يقول عنه:

بناه سليمان بن داود حقبة ❖ له أزج عال و ي موثق

الأزج: البناء المستطيل، والطي: البناء بالحجارة.

يقول عن هذا القصر:

يُوَازِي كُبَيْدَاءَ السّمَاءِ وَدُونَهُ ❖ بلاطٌ ودارات وكِلسٌ وخندقُ

لهُ درمكٌ في رأسهِ ومشارب ❖ ومِسْكٌ وَرَيْحَانٌ وَرَاحٌ تُصَفَّقُ

وحورٌ كأمثالِ الدُّمى ومناصفٌ ❖ وَقِدْرٌ وَ بَبّاخٌ وَصَاعٌ وَدَيسَقُ

الديسق: الخُوان من الفضة، يقول - بعد أن عَدَّدَ كل هذا النعيم الذي كان في قصر الأبلق:

فذاكَ ولمْ يعجزْ منَ الموتِ ربَّهُ ❖ وَلَكِنْ أتَاهُ المَوْتُ لا يَتَأَبّقُ

لا يهرب من الموت.

وَلَا المَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتَهُ ❖ بِإمّتِهِ يُعْطِي القُطُوطَ وَيَأفِقُ

ويجبى إليهِ السّيلحونَ ودونها ❖ صَرِيفُونَ في أنْهَارِهَا وَالْخَوَرْنَقُ

وَيَقْسِمُ أمْرَ النّاسِ يَوْمًا وَلَيْلَةً ❖ وَهُمْ سَاكِتُونَ وَالمَنِيّةُ تَنطِقُ

ويأمرُ لليحموم كلَّ عشية ❖ بقتٍّ وتعليقٍ وقد كادَ يُسنقُ

يذكر النعمان بن المنذر وما كان له من ملك عظيم. وقوله: بإمته: أي بنعمته، ويعطي القطوط: أي: يعطي الحظوظ والأنصبة، ويأفق: أي: يعطي بعضًا أكثر من بعض، والسيلحون: مَوْضع بين القادسية والكوفة كان من أملاك النعمان، وصريفون: اسم لقريتين كبيرتين في العراق، والخورنق: قصر شيده النعمان بالحيرة، واليحموم: اسمُ فَرَس النعمان، والقَت: ما تعلف به الدواب، وقد كاد يسنق: أي: يتخم من كثرة ما يأكل، هذا الفرس.

يقول الأعشى:

فذاكَ وما أنجى منَ الموتِ ربَّه ❖ بساباطَ حتى ماتَ وهوَ محزرقُ

يقول: إن كل ذلك لم ينجِّ النعمان من الموت، فقد مات في السجن - سجن ساباط - الذي سجنه فيه كسرى، وكلمة "محزرق" معناها: مُضيق عليه.

ثم انتقل الأعشى بعد ذلك إلى الحديث عن الفخر، وعن رفاقه الذين يسامرونه، وعن مجالس شربه ولهوه، فقال:

وَقَدْ أقْطعُ اليَوْمَ الطّويلَ بفِتْيَة ❖ مَسَاميحَ تُسقى وَالخِباءُ مُرَوَّقُ
ورَادِعَة ٍ بالمِسْكِ صَفْرَاءَ عِنْدَنَا ❖ لجَسّ النّدامَى في يَدِ الدّرْعِ مَفتَقُ

يصف الغانية التي تغني -أو التي تضرب على العود- في مجلس لهوه وشربه.

إذا قُلتُ غَنّي الشَّربَ قامَت بمِزهَرٍ ❖ يَكادُ إذا دارَت لَهُ الكَفُّ يَنطِقُ

ثم قال الأعشى مفاخرًا:

فما أنا عمّا تعلمونَ بجاهلٍ ❖ ولا بشباة جهلهُ يتدفّقُ

الشباة: الرجل السفيه.

وَمَا كُنتُ شاحِرْدا وَلكِنْ حَسِبتُني ❖ إذا مسحلٌ سدّى ليَ القولَ أنطقُ

يقول: ما كنت تلميذًا متعلمًا أو مبتدئًا في التعليم، فكلمة شاحِرْدا: كلمة فارسية، معناها: التلميذ.

... ... وَلكِنْ حَسِبتُني ❖ إذا مسحلٌ سدّى ليَ القولَ أنطقُ

مسحل: اسم شيطان كان الأعشى يزعم أنه يُعينه على قول الشعر ويلقنه إياه.

يقول: "شريكان" -أي: هو ومسحل هذا:

شَريكانِ فيما بَينَنا مِن هَوادَةٍ ❖ صَفِيّانِ جِنّيٌّ وَإِنسٌ مُوَفَّقُ
يَقولُ فَلا أعيا لِشَيءٍ أقولُهُ ❖ كَفانيَ لا عَيٌّ وَلا هُوَ أخرَقُ
جِماعُ الهَوى في الرُشدِ أدنى إلى التُقى ❖ وَتَركُ الهَوى في الغَيِّ أنجى وَأوفَقُ

يقول الأعشى: إنه وهذا الجني متوافقان، هو ليس عييًّا، وشيطانُه كذلك ليس عييًّا، وليس بأخرق، وهما في الهوى متفقان، وهو يستقبل الشعر من هذا الجني.

ثم يقول الأعشى - بعد ذلك:

وكم دون ليلى من عدو وبلدة ❖ وسهب به مستوضح الآل يبرق
وأصفر كالحناء ـام جمامُه ❖ إذا ذاقهُ مستعذبُ الماءِ يبصقُ
وَإنّ امْرأً أسْرَى إلَيْكِ وَدُونَهُ ❖ فَيَافٍ تَنُوفاتٌ وَبَيْداءُ خَيْفَقُ
لَمحْقُوقَة ٌ أنْ تَسْتَجيبي لِصَوْتِهِ ❖ وأنْ تعلمي أنّ المعانَ موفَّقُ

يقول: إن امرأة اسمها "ليلى" يسافر إليها، فيقطع في سفره الفيافي البعيدة والصحراء المخوفة، ويمر على ماء آسن متغير، لونه أصفر يشبه الحناء، إذا ذاقه المرء ليشرب منه لا يستطيع استساغته، فيبصقه، وهو يعظم الحق على هذه المرأة، ويقول: إنها محقوقة أن تستجيب لصوته؛ إذ صار إليها من هذا البعد وسلك إليها كل هذه الفيافي المخوفة، ثم يقول الأعشى:

لَعَمرِي لَقد لاحَتْ عُيُونٌ كَثيرَة ٌ ❖ إلى ضَوْءِ نَارٍ في يَفَاعٍ تُحَرَّقُ
تُشَبّ لمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ❖ وَبَاتَ عَلى النّارِ النّدَى وَالْمُحَلَّق
رضيعيْ لبانٍ ثديَ أمًّ تحالفا ❖ بأسْحَمَ داجٍ عَوْضُ لا نَتَفَرّقُ
يداكَ يدا صدقٍ فكفٌّ مفيدة ❖ وأخرى إذا ما ضُنّ بالزّادِ تنفقُ
ترَى الجُودَ يَجرِي ظاهرًا فوْقَ وَجهه ❖ كمَا زَانَ مَتنَ الهِنْدُوَانيّ رَوْنَقُ

وهذه الأبيات يقال: إنها هي التي رَوجت بنات الْمُحَلَّق، يقال: إن الْمُحَلَّق هذا كان رجلًا فقيرًا وعنده بنات كثيرات، ولما نزل عليه الأعشى؛ أكرم وفادته وذبح له، فقال الأعشى مادحًا إياه هذه الأبيات، فاشتهر أمر هذا الرجل، وعرف بالكرم بين الناس، وذهب الخطاب، فتزوجوا بناته.

وقوله: "وبات على النار الندى والْمُحَلَّق": كناية عن تلازم الكرم والرجل، فهو والكرم متلازمان.

وقوله :

تَرى الجُودَ يَجرِي ظاهرًا فوْقَ وَجهه ❖ كمَا زَانَ مَتنَ الهِنْدُوَانيِّ رَوْنَقُ

يقول : إن علامات الكرم تزين وجهه ، كما يزدان السيف الهندواني برونقه الذي يزيده جمالًا. ثم يقول الأعشى :

وأما إذا ما أوّبَ المحلُ سرحهمْ ❖ ولاحَ لهمْ منَ العشيّاتِ سملقُ

نَفَى الذَمَّ عَنْ آلِ الْمُحَلَّقِ جَفنَةٌ ❖ كَجابيَةِ الشّيْخِ العِرَاقيِّ تَفْهَقُ

يقول : إذا المَحْل والفقر أرجع الدواب ونظر الناس حولهم ، فلم يجدوا إلَّا قاعًا صفصفًا لا نباتَ فيه ، في هذه الحالة : آلُ الْمُحَلَّق ينقذون الناس من مجاعتهم ، ويقدمون لهم الجَفنة العظيمة من الطعام التي يفيض الطعام منها. "نَفَى الذم عن آل الْمُحَلَّق جفنةٌ" : والجفنة : إناء عظيم يوضع فيه الطعام ، ويشبهها الأعشى بالجابية -جابية الشيخ العراقي- وتفهق : أي : تفيض ، والجابية معناها : الحوض الضخم ، الشيخ العراقي : قيل : إنه أراد به كسرى.

يَرُوحُ فَتى صِدْقٍ وَيَغْدُو عَلَيهمُ ❖ بمِلْءِ جِفَانٍ مِنْ سَدِيفٍ يُدَفَّقُ

السديف : شحم السنام.

وَعَادَ فَتى صِدْقٍ عَلَيْهِمْ بجَفنَةٍ ❖ وسَوْداءَ لأيًا بالمَزَادَةِ تُمْرَقُ

السوداء : أراد بها القِدر المسودة لكثرة الطبخ فيها ؛ فهو هنا يقدم لنا صورة للفتيان الذين يذهبون ويجيئون بجفان الطعام المملوءة العظيمة يقدمونها للناس.

ترى القومَ فيها شارعينَ ودونهمْ ❖ من القَوْمِ وِلدانٌ من النّسلِ دَرْدَقُ

دردق : أي : أطفال ، يقول : إن القوم يمدون أيديهم في هذه الجفان ، يتناولون منها ما يريدون من الطعام ، وحولهم وِلدان كأنهم يخدمونهم. ثم يقول الأعشى :

ـويلُ اليدينِ رهطهُ غيرُ ثنية ❖ أشمُّ كريمٌ جارُهُ لا يرهَّقُ

وهذا ثناء على الْمُحَلَّق، ثم يقول في آخر القصيدة:

كذلكَ فافعلْ ما حييتَ إليهم ❖ وَأَقْدِمْ إذا ما أعيُنُ النّاسِ تَبْرَقُ

وأعين الناس تبرق: كناية عن التأخر إذا وجب التقدم، ولا يتأخر إذا وجب التقدم إلا الجبناء والبخلاء.

وبهذه القصيدة مدح الأعشى الْمُحَلَّق، ورفع من شأنه، وروجت هذه القصيدة لبناتِ الْمُحَلَّق فتزوجن.

لعلك تلاحظ: أن هذه القصيدة ليست غريبة في ألفاظها ككثير من القصائد التي مرت عليك، فاللغة رقيقة وسهلة، ويبدو أن الأسفار التي قام بها الأعشى وغشيانه للممالك وقصور الملوك، رقَّقَ طبعه، وهذب لغته، وجعلها لغة سهلة وصياغة رقيقة -على نحو ما رأينا.

ومن أثر ذلك أيضًا: أننا نجد ألفاظًا فارسيةً ليست عربية في هذه القصيدة، ونجد كذلك ألقابًا لملوك الفرس: كسرى، وشاهِنْشاه... وغير ذلك، ووجدنا فيها إشارات تاريخية تدل على الثقافات التاريخية للأعشى، فقد ذكر -بالإضافة إلى كسرى، وإلى ساسان، ومورق ملك الروم: عاديًا وقصره الذي ذكر أن سليمان هو الذي بناه، وكل هذا من الإشارات التاريخية التي تدل على الثقافة التي حصلها الأعشى من خلال أسفاره ورحلاته. ولعله مما يلفت النظر أيضًا: إشارة الأعشى إلى الجِني الذي يلقنه الشعر، وقد سماه "مِسحلةً".

ومن الجدير بالملاحظة أيضًا في هذه القصيدة: أبياته التي مدح بها الْمُحَلَّق، والصورة التي قدمها للولائم التي يقدمهما هذا الرجل للفقراء والموعزين، وقد كان المدح من أكثر الموضوعات التي قال فيها الأعشى، ومعاني المديح عنده لا

تفترق عن المعاني العامة في مدائح الجاهليين ؛ فهو يمدح بالكرم والوفاء والشجاعة ، وإعانة الضعفاء ، إلى غير من الصفات التي مدحه بها.

لكن الأعشى أسرف على نفسه في المديح ، والاستجداء به ، والتكسب بالشعر ، فَغَضَّ ذلك من مكانته ؛ فهو في المديح يصدر عن رغبة في العطاء ، وقد يكون ذلك من أثر الحضارات التي ألم بها في طوافه ، فإننا نجده يطوف في أطراف الجزيرة العربية ، يمدح السادة والأمراء ، ذاكرًا ما يفيضون عليه من الإبل والجياد والإماء ، وصحاف الفضة ، وثياب الخَز ، والديباج ، منوهًا في أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مبقٍ على شيء من نفسه.

ومن الجدير بالذكر أيضًا عن هذا الشاعر : أنه شاعر الخمر واللهو والغناء ، وصف مجالسها كثيرًا في شعره ، ومن العجيب أن تقترن وفاته بما يدل على رغبته في الاستمرار عليها ، فَلَمَّا أراد أن يسلم وأعلمه القرشيون أن الإسلام يحرم عليه الزنا والخمر والربا والقمار ، عاد عن فكرة إسلامه ورجع إلى قومه ؛ فمات مقتولًا في الطريق ؛ إذ رمت به ناقته فماتَ.

بشر بن أبي خازم الأسدي وبائيَّتُه

بشر بن أبي خازم الأسدي : هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف ، من قبيلة أسد ، شاعر فارس فحل جاهلي قديم ، شهد حرب أسد وطيئ ، وشهد هو وابنه نوفل بن بشر الحلف بينهما.

وفي حياة بشر بن أبي خازم حادثة طريفة ؛ فقد ذكروا أنه كان يهجو أوس بن حارثة بن لَأْم الطائي ، وكان شريفًا في قومه ، وذكر أمه في بعض هجائه ، فأسرته بنو نبهان من طيئ ، فركب أوس إليهم ، فاستوهبه منهم ، وقد نذر ليحرقنه إن

قدَر عليه. ولَمَّا وقع بشر في يده، عزم على أن ينفذ نذره فيه، فحبسه، فلما علمت أمه "سُعدَى" بذلك، سألته عن نيته، وماذا يريد أن يفعل مع هذا الشاعر؛ فأخبرها، فقالت له: قبح الله رأيك، أكرم الرجل وخل عنه -أي: اتركه- فإنه لا يمحو ما قال غير لسانه، أي: لا يمحو هجاءه فيك غيرُ مدحه لك. فسمع أوس نصيحة أمه، وخلى سبيل بشر، فأقسم بشر أن يجعل مكان كل قصيدة هجا بها أوسًا قصيدةً يمدحه بها.

وظلت الحياة ببشر بن أبي خازم يغير مع قومه، ويحارب في صفوفهم، ويتغنَّى بأمجادهم ويسجل انتصارات بني أسد، حتى إذا كان في غارة على الأبناء من بني صعصعة بن معاوية، جالت الخيل ومر بشر بغلام من بني وائلة، فقال له بشر: استأسر، فقال له الوائلي: لتذهبَنَّ أو لأرشقنَّك بسهم من كِنانتي، فأَبَى بشر إلا أسره، فرماه الفتى بسهم قاتلٍ، فاعتنق بشر فرسه، وأخذ الغلام فأوثقه، فلما كان في الليل أطلقه بشر من وثاقه، وخلى سبيله، وقال: أعلم قومَك أنك قتلت بشرًا.

وقبل أن يموت قال قصيدة رَثَى بها نفسه، وذكر فيها ابنة له تسمَّى عميرة، قال:

أسائلة عميرة عن أبيها ❖ خلال الركب تعترف الركابا

ثم قال مخاطبًا ابنته:

فإن أباك قد لاقى غلامًا ❖ من الأبناء يلتهب التهابا
وإن الوائلي أصاب قلبي ❖ بسهم لم يكن نُكسًا لُغابا
فرجِّي الخير وانتظري إيابي ❖ إذا ما القارظ العنزي آبَا

والقارظ العنزي: يُضرب المثل به في عدم العودة؛ فكأنه أراد أن يقول لها: إنه لن يعود، ثم قال في نهاية قصيدته التي رثى بها نفسه:

فمن يكُ سائلًا عن بيت بشر ❖ فإن له بجنب الرده بابًا
ثوى في ملحدٍ لا بد منه ❖ كفى بالموت نأيًا واغترابا

وهكذا مات بشر مقتولًا، وهكذا رثى نفسه.

أما قصيدته فمطلعها:

عفت من سليمى رامة فكثيبها ❖ وشطت بها عنك النوى وشعوبُها
وغيَّرها ما غيَّر الناسَ قبلها ❖ فبانت وحاجات الفؤاد تصيبها

أما مناسبة القصيدة وموضوعها: فقد قالها بشر يسجِّل بها ما كان في يوم النسار، وكان من أمر هذا اليوم: أنَّ بني ضبة حالفت بني أسد على بني تميم، وكان معهم في الحلف طيئ وعدي، وكانت ضبة أصابت من بني تميم نفرًا فهربت إلى بني أسد، فحالفوهم على أن يقاتلوا العرب ثلاث سنين معهم، فلما بلغ بني تميم حِلْفُ ضبةَ، بعثت إلى بني عامر بالنسار -والنسار: أجبل متجاورة- فحالفوهم، وقالت بنو أسد لضبة: بادروا بني عامر بالنسار قبل أن تصير إليهم بنو تميم، ففعلوا، فقتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، فناشدتهم بنو عامر، وقالوا: هذه أموالنا نشاطركم، فرَضُوا بذلك وكفوا عنهم، وشاطروهم.

والقصيدة تبدأ -كما تبدأ أغلب القصائد في الشعر الجاهلي- بذكر الديار التي تركتها الحبيبة ورحلت:

عفت من سليمى رامة فكثيبها ❖ وشطّت بها عنك النوى وشعوبها

عفت: أي: درست، ورامة: بلد، وشطت: بعدت، والنوى: نية السفر، والشعوب: جمع شعب، وهو القبيلة أو البلد الذي شُعِبَ إليه، أي: ذُهب.

وغيَّرها ما غيَّر الناسَ قبلها ❖ فبانت وحاجات الفؤاد تصيبها

أي: تريدها. وهو من قول الله ﷻ: ﴿ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ [ص: ٣٦]، أي: حيث أراد. في (شرح المفضليات): قال الأصمعي: ومنه قولهم: أصاب الصواب فأخطأ الجواب: أي: أراد الصواب.

ثم يقول بشر:

ألم يأتها أن الدموع نطافة ❖ لعين يوافي في المنام حبيبها
تحدر ماء الغرب عن جرشية ❖ على جربة تعلو الدبار غروبها
بغرب ومربوع وعود تقيمه ❖ محالة خُطاف تصر ثقوبها
معالية لا هم إلا محجر ❖ وحرة ليل السهل من ولوبها

قوله: "ألم يأتها أن الدموع نطافة": أي: ألم تعرف محبوبته أن دموعه تسيل حزنًا على فراقها؟! ثم شبه دموعه التي تنهمر بماء يتحدر من دلو عظيمة في مزرعة، فالغرب: معناها الدلو العظيمة، والجرشية: ناقة منسوبة إلى جرش، وهي أرض باليمن، وأهلها يستقون على الإبل، والجِربة: المزرعة، والدِّبار: جمع دبرة، وهي القطعة منها، والغروب: جمع غرب، بمعنى الدلو، والمربوع: حَبْل فتل على أربع قوى، والعود: البعير المسن، والمحالة: البكرة، والخطاف: الحديد الذي في جانبيها. وقوله: معالية: يريد أنها تقصد العالية -رجع إلى ذكر المرأة- ومحجَّر: موضع، واللوب: جمع لَوبة، وهي الحَرة، هذا قوله:

معالية لا هم إلا محجر ❖ وحرة ليل السهل منها ولوبها

ثم يقول:

رأتني كأفحوص القَطاة ذؤابتي ❖ وما مسها من منعم يستثيبها

يريد: أنه صلع حتى صار رأسه كأفحوص القطاة، يقول: لم يكن ذهاب شعري لأني أُسرت فجذت ناصيتي؛ لأنهم كانوا كذلك يفعلون: إذا أسر

أحدهم رجلًا شريفًا، جز رأسه، أو فارسًا جز ناصيتَه. ثم يفتخر بشر بقومه وأيامهم، فيقول:

أجبنا بني سعد بن ضبة إذ دَعَوا ❖ ولله مولى دعوة لا يجيبها
وكنا إذا قلنا هوازنُ أقبلي ❖ إلى الرشد لم يأتِ السدادَ خطيبُها
عطفنا لهم عطف الضروس من الملا ❖ بشهباء لا يمشي الضراء رقيبها
فلما رأونا بالنسار كأننا ❖ نَشاص الثريا هيجتها جنوبها
فكانوا كذات القِدر لم تدر إذ غلت ❖ أتنزلها مذمومة أم تذيبها

قوله: "ولله مولى دعوة لا يجيبها"، أي: صاحب دعوة لا يجيب إذا دعي، وهو هنا ذم، كما تقول: لله أنت ألَا أجبت؟! والسداد: القصد والصواب في الأمر، "عطفنا لهم" أي: عطفنا لهم بمكروه وشر، والضروس، معناها: الحرب الشديدة، وهو تمثيل بالناقة السيئة الخلق، والمَلا: الصحراء، والشهباء: الكتيبة التي علتها ألوان الحديد، والضِّراء: ما واراك من الشجر، يقال: فلان يمشي الضراء: إذا مشي مستخفيًا فيه، الرقيب: الناظر. يقول: نحن خرجنا لهم للحرب لا نختل ولكننا نجاهد، النسار: موضع، نَشاص الثريا: ما ارتفع من السحاب بنوئها، شبه الكتيبة في كثرتها بهذا السحاب. وقوله:

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت ❖ أتنزلها مذمومة أم تذيبها

يشبه حيرة أعدائهم عندما واجهوهم بحيرة امرأة تطبخ السمن، فنزل عليها ضيف، فأصبحت في حيرة من أمرها؛ أتنزل القدر وتقدم للضيف قِراه، أم تتم إنضاجها؟ فهو يشبه حيرة الأعداء بحيرة هذه المرأة.

ثم يقول بشر مفصلًا ما فعلوه بأعدائهم:

قطعناهم فباليمامة فرقة ❖ وأخرى بأوـاس تهر كليبها

نقلناهم نقل الكلاب جراءها ❖ على كل معلوب يثور عكوبها
لحوناهم لحو العِصي فأصبحوا ❖ على آلة يشكو الهَوان حريبها
لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم ❖ وأدرك جري المبقيات لُغوبها
جعلن قشيرًا غايةً يهتدى بها ❖ كما مد أشطان الدلاء قليبها

اليمامة وأوطاس: موضعان، وكليب: جمع كلب، أي: يهرون مثل هرير الكلاب، نقلناهم: خافوا حربنا فانتقلوا من بلدهم، والجراء: جمع جرو: وهو الكلب الصغير، والمعلوب: الطريق الموطوء المعبد، العُكوب: الغبار، وأنَّث الضمير لتأنيث الطريق، اللحو: قشر العُود، يريد أخذنا جميع ما لهم، الآلة: الحالة، الحريب: الذي سُلب مالُه.

وقوله:

لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم ❖ ....

معناه: قتلناهم من الصباح إلى الليل، والمبقيات: اللائي تبقي بعضَ جريها تدخره، واللغوب: الإعياء.

قوله:

جعلن قشيرًا غايةً يهتدى بها ❖ ....

الضمير في "جعلن" يعود إلى خيل بني أسد -قبيلة الشاعر- يقول: إن خيلهم جعلت همها بني قشير؛ إذ كانت الحرب من أجلهم وكانوا آخر الناس، الأشطان: الحبال الطويلة، القَليب: البئر، يقول: قصدنا إليهم لا نلتوي يمينًا ولا شمالًا كما مُد الحبل في البئر.

ثم يقول بشر:

إذا ما لحقنا منهم بكتيبة ❖ تُذُكِّر منها ذحلها وذنوبها
بني عامر إنا تركنا نساءكم ❖ من الشلِّ والإيجاف تدمى عجُوبُها
عضاريطنا مستبطنو البيض كالدُّمى ❖ مضرَّجة بالزعفران جيوبُها
تبيت النساء المرضعات برَهوة ❖ تفزَّع من خوف الجَنان قلوبها
دعوا منبت السيفَين إنهما لنا ❖ إذا مضر الحمراء شبت حروبُها

قوله:

إذا ما لحقنا منهم بكتيبة ❖ تُذُكِّر منها ذحلها وذنوبها

المعنى: أنه إذا ذكرت الذحول -وهي الثارات- كان أشد للقتال.

في الأبيات التي جاءت بعد ذلك: الشل: الطرد، والإيجاف: السير الشديد، والعجوب: جمع عجب، وهو آخر العُصعص، يريد أنهن -أي: نساء الأعداء- حملن على غير وِطاء وأسرع بهن السير، فدميت عجوبُهن. العضاريط: التباع والأُجراء، والرهوة: ما ارتفع من الأرض وما انخفض. أي: إن نساء الأعداء فررن فاستترنَ فيما انخفض من الأرض، أو مَن أفلت منهنَّ عَلَا وارتفع إلى مكان عالٍ؛ لينظر مِن شدة الحذر والخوف، والجَنان، معناها: القلب، "السيفان" في قوله: "دعوا منبت السيفان إنهما لنا"، المراد بهما: ساحلَا البحر.

نلاحظ: أن هذه القصيدة من شعر الحماسة والفخر، وأكثر شعر بشر بن أبي خازم ينحو هذا المنحى. ومن الجدير بالملاحظة: أن الشعر يجيد التعبيرَ عن معاني هذا الغرض؛ فهو يصف شجاعة قومه وحسن بلائهم في الحرب، ويصف ما حدث لأعدائهم من هزائمَ وانكسار، وهو يسلك سبيلَ التصوير في تعبيره عن هذه المعاني.

انظر مثلًا إلى قوله:

قطعناهم فباليمامة فرقة ❖ وأخرى بأو ـاس تهر كليبها

وإلى قوله:

نقلناهم نقل الكلاب جراءها ❖ ....

وإلى قوله:

لحوناهم لحوَ العِصي فأصبحوا ❖ على آلة ....

إلى آخره.

فكلها تسلك سبيل الاستعارة.

ولاحظ أيضًا التشبيه في قوله:

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت ❖ أتنزلها مذمومة أم تذيبها

ولاحظ أيضًا قوله:

عضاريطنا مستبطنو البيض كالدُّمى ❖ ....

وفيه استعارة.

.... ❖ مضرَّجة بالزعفران جيوبها

وهذه الصورة التي يرسمها قوله:

تبيت النساء المرضعات برهوة ❖ تفزَّعُ من خوف الجَنان قلوبها

وهي تريكَ نساءَ الأعداء في حالة الخوف والفزع والفرار.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من نونيَّة المثقب العبدي، وداليَّة عمرو بن معدي كرب

عناصر الدرس

العنصر الأول	: المثقب العبدي ونونيّته	١٨٩
العنصر الثاني	: عمرو بن معدي كرب وداليّته	١٩٨

المثقـــب العبـــدي ونونيتـــه

والمثقِّب -بكسر القاف: اسمه عائذ، ويقال: عائذ الله بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن عوف من أسد بن ربيعة بن نزار، شاعر فحل قديم جاهلي، كان في زمن الملك عمرو بن هند؛ ولُقِبَ بالمثقِّب لقوله في القصيدة له:

ظَهَرنَ بِكِلَّةٍ وَسَدَلنَ أخرى ❖ وَثَقَّبنَ الوَصاوِصَ لِلعُيونِ

والقصيدة نونية، أي: حرف الرَوِيِّ فيها هو النون، يقول المثقب العبدي فيها:

أفا طِمُ قَبلَ بَينِكِ مَتِّعيني ❖ وَمَنعُكِ ما سَأَلتُ كَأَن تَبيني

فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ ❖ تَمُرُّ بِها رِياحُ الصَيفِ دوني

فَإِنّي لَو تُخالِفُني شِمالي ❖ خِلافَكِ ما وَصَلتُ بِها يَميني

إِذًا لَقَطَعتُها وَلَقُلتُ بيني ❖ كَذَلِكَ أجتَوي مَن يَجتَويني

وهو في هذه الأبيات يخاطب محبوبته فاطمة: "أفاطم"، وهذا منادى مرخم، أي: حذفت منه تاء التأنيث. "قبل بَينِك" أي: قبل فراقك، "متعيني": يطلب منها أن تمتعه، قبل أن تفارقه.

فَلا تَعِدي مَواعِدَ كاذِباتٍ ❖ تَمُرُّ بِها رِياحُ الصَيفِ دوني

خص رياح الصيف بالذكر؛ لأنها لا خير فيها، إنما تأتي بالغبار والعجاج، ثم يقول لها: إنه لو تخالفه يده الشمال كما تخالفه محبوبته هذه؛ "إذًا لقطعتها ولقلت: بيني" أي: اذهبي. "كذلك أجتوي من يجتويني": كذلك أفارق من أفارقه؛ فالاجتواء معناه: الكراهة والاستثقال.

ثم تساءل المثقب عن النساء الراحلات، وفيهن فاطمة هذه، ووصف رحلتهن فقال:

لِمَن ظُعُنٌ تَطالَعَ مِن ضُبَيبٍ ❖ فَما خَرَجَت مِنَ الوادي لِحينِ
مَرَرنَ عَلى شَرافَ فَذاتِ رجلٍ ❖ وَنَكَّبنَ الذَرانِحَ باليَمينِ

وهذه أسماء أماكن: شرف، وذات رجل، والذرانح.

وَهُنَّ كَذاكَ حينَ قَطَعنَ فَلجًا ❖ كَأَنَّ حُدوجَهُنَّ عَلى سَفينِ
يُشَبَّهنَ السَفينَ وَهُنَّ بُختٌ ❖ عُراضاتُ الأَباهِرِ وَالشُئونِ
وَهُنَّ عَلى الرَجائِزِ واكِناتٌ ❖ قَواتِلُ كُلَّ أَشجَعَ مُستَكينِ

"فلج" أيضًا: اسم مكان أو طريق أو وادي، و"الحمول" أي: الهوادج، كان فيها النساء أو لم تكن، و"السفين": جمع سفينة، و"البخت": جمال طوال الأعناق، "عُراضات": جمع عُراضة، والعراض: هو العريض المفرط، كما يقال: طوال، أي: طويل جدًّا، والأباهر: أراد بها الظهور، و"الشئون": القنوات التي تجري فيها الدموع من الرأس إلى العينين، و"الرجائز": مراكب النساء، الواحدة رجازة، واكنات: مطمئنات، الأشجع: الطويل. يقول: "يقتلن" أي: هؤلاء النساء، يقتلن كل أشجع، ولكنه يستكين -أي: يخضع لهن- والقتل هنا مجازي بالتأكيد؛ لا يقتلن حقيقة، المراد به ما يحدث للرجال من خضوع في الحب، ثم شبه النساء بالغزلان، فقال:

كَغِزلانٍ خَذَلنَ بِذاتِ ضالٍ ❖ تَنوشُ الدانِياتِ مِنَ الغُصونِ

خذلن، أي: تخلفن عن صواحبهن، وأقمن على أولادهن، والضال: نوع من شجر السدر، وتنوش أي: تتناول. ويستمر في الكلام على النساء، فيقول:

ظَهَرنَ بِكِلَّةٍ وَسَدَلنَ أُخرى ❖ وَثَقَّبنَ الوَصاوِصَ لِلعُيونِ

الكلة: الستر الرقيق، سدلن أخرى: أرسلنها، والوصاوص: البراقع الصغار، واحدها وصواص؛ فأراد أنهن حديثات الأسنان فبراقعهن صغار، وثقبن

الوصاوص أي: جعلن في البراقع فتحات للعيون، وبهذا البيت لقب الشاعر بالمثقب.

يقول أيضًا عن النساء:

وَهُنَّ عَلَى الظِلامِ مُطَلَّبَاتٌ ❖ طَوِيلاتُ الذَوائِبِ وَالقُرونِ

"الظِّلام" بكسر الظاء، معناه: الظلم، و"مُطَلَّبَات" أي: مطلوبات أي: نحن - يقصد الرجال- مع ظلم النساء إيانا وتمنعهن نطلبهن، والقرون خصل الشعر أو الضفائر.

ثم يقول:

أَرَينَ مَحاسِنًا وَكَنَّ أُخرى ❖ مِنَ الأَجيادِ وَالبَشَرِ المَصونِ
وَمِن ذَهَبٍ يَلوحُ عَلَى تَريبٍ ❖ كَلَونِ العاجِ لَيسَ بِذي غُضونِ
إِذا ما فُتنَهُ يَومًا بِرَهنٍ ❖ يَعِزُّ عَلَيهِ لَم يَرجِع بِحينِ
بِتَلهِيَةٍ أَريشُ بِها سِهامي ❖ تَبُذُّ المُرشِقاتِ مِنَ القَطينِ
عَلَونَ رَباوَةً وَهَبَطنَ غَيبًا ❖ فَلَم يَرجِعنَ قائِلَةً لِحينِ
فَقُلتُ لِبَعضِهِنَّ وَشُدَّ رَحلي ❖ لِهاجِرَةٍ نَصَبتُ لَها جَبيني
لَعَلَّكِ إِن صَرَمتِ الحَبلَ مِنّي ❖ كَذاكِ أَكونُ مُصحِبَتي قَروني

قوله: "أرين محاسنًا وكنن أخرى..." إلى آخر الأبيات: "كنن"، أي: أخفين، الأجياد: جمع جيد وهو العنق، والتريب: جمع تريبة، وتجمع ترائب، وهو عظام الصدر موضع القلادة. والغضون تثني الجلد، فُتْنَه أي: تركنه وخلفنه، والرهن: في البيت المراد به قلبه، يقول: إذا صارت بين أيديهن وملكنه: لم يرجع إليه، أي: لم يرجع قلبه إليه، ولم يتخلص منهن. قوله: "بتلهية..." إلى آخره: التلهية: تفعِلة من اللهو. "أريش بها سهامي"، راش السهام: ألزق عليها

الريش، وأراد بالتلهية: محبوبته، وأنه يتغنى بذكر محاسنها، تَبُزُّ، أي: تسبق وتغلب. "المرشقات": اللواتي تمد أعناقها، وتستشرف للنظر، "القطين": الخدم والجيران والتباع، يعني: أنها تتفوق عليهن في الحسن والجمال، "الرباوة": ما ارتفع من الأرض. و"الغيب": ما اطمأن منها، "القائلة": وقت القيلولة، وهي نصف النهار، و"الهاجرة": نصف النهار عند اشتداد الشمس.

قوله: "لعلك إن صرمت الحبل مني"، صرمت الحبل، أي: قطعت الوصل. و"مصحبتي": تابعتي. وقرونه، أي: نفسه، أي: إن قطعت الوصل أطعت نفسي، وقطعت وصلك.

ثم يقول المثقب:

فَسَلِّ الهَمَّ عَنكَ بِذاتِ لَوثٍ ❖ عُذافِرَةٍ كَمِطرَقَةِ القُيونِ

يقول: "سلِّ الهمَّ عن نفسك": وأذهبه وحاول نسيانه عن طريق ركوبك لناقتك القوية الشديدة وارتحالك بها، يقول عن هذه الناقة: "إنها كمطرقة القيون". والقيون: هم الحدادون، يشبه الناقة بمطرقة الحداد، يريد وصفها بالقوة والصلابة، ويصفها كما وصف الشعراء قبله هذه الناقة بقوله:

بِصادِقَةِ الوَجيفِ كَأَنَّ هِرًّا ❖ يُباريها وَيَأخُذُ بِالوَضينِ
كَساها تامِكًا قَرِدًا عَلَيها ❖ سَوادِيُّ الرَضيحِ مَعَ اللَجينِ
إِذا قَلِقَت أَشُدُّ لَها سِنافًا ❖ أَمامَ الزَورِ مِن قَلَقِ الوَضينِ
كَأَنَّ مَواقِعَ الثَفِناتِ مِنها ❖ مُعَرَّسُ باكِراتِ الوِردِ جُونِ
يَجُدُّ تَنَفُّسُ الصُعَداءِ مِنها ❖ قُوى النِسعِ المُحَرَّمِ ذي المُتونِ
تَصُكُّ الحالِبَينِ بِمُشفَتِرٍّ ❖ لَهُ صَوتٌ أَبَحُّ مِنَ الرَنينِ
كَأَنَّ نَفِيَّ ما تَنفي يَداها ❖ قِذافُ غَريبَةٍ بِيَدَي مُعينِ

تَسُدُّ بدائِمِ الخَطَراتِ جَثْلٍ ❖ خَوايَةَ فَرجِ مِقلاتٍ دَهينِ
وتَسمَعُ لِلذُبابِ إِذا تَغَنّى ❖ كَتَغريدِ الحَمامِ عَلى الوُكونِ
فَأَلقَيتُ الزِمامَ لَها فَنامَت ❖ لِعادَتِها مِنَ السَدَفِ المُبينِ
كَأَنَّ مُناخَها مُلقى لِجامٍ ❖ عَلى مَعزائِها وَعَلى الوَجينِ
كَأَنَّ الكورَ وَالأَنساعَ مِنها ❖ عَلى قَرواءَ ماهِرَةٍ دَهينِ
يَشُقُّ الماءَ جُؤجُؤُها ويَعلو ❖ جَوارِبَ كُلِّ ذي حَدَبٍ بَطينِ
جَدَت قَوداءَ مُنشَقًّا نَساها ❖ تَجاسَرُ بِالنُخاعِ وبِالوَتينِ
إِذا ما قُمتُ أَرحَلُها بِلَيلٍ ❖ تَأَوَّهُ آهَةَ الرَجُلِ الحَزينِ
تَقولُ إِذا دَرَأتُ لَها وَضيني ❖ أَهَذا دينُهُ أَبَدًا وَديني
أَكُلُّ الدَهرِ حَلٌّ وَارتِحالٌ ❖ أَما يُبقي عَلَيَّ وَما يَقيني
فَأَبقى با لِي وَالجِدُّ مِنها ❖ كَدُكّانِ الدَرابِنَةِ المَطينِ
ثَنَيتُ زِمامَها وَوَضَعتُ رَحلي ❖ وَنُمرُقَةً رَفَدتُ بِها يَميني
فَرُحتُ بِها تُعارِضُ مُسبَطِرًّا ❖ عَلى صَحصاحِهِ وَعَلى المُتونِ
إِلى عَمرٍو وَمِن عَمرٍو أَتَتني ❖ أَخي النَجَداتِ وَالحِلمِ الرَصينِ

في هذه الأبيات جميعًا، يصف المثقب العبدي ناقته: "فسلِّ الهم عنك بذات لوث": اللوث: الشدة، والعذافرة: الشديدة القوية، والقيون: الحدادون -كما ذكرنا- يصف بذلك ناقته، وأنه يتسلى عن محبوبته بالسفر إن قطعت وصله.

"الوجيف": سير سريع، "يباريها": يسير معها، الرضين: للرجل بمنزلة الحزام للسرج، يريد كأن بجانبها هرًّا -أي: قطًّا- يناوشها؛ فهي تبغي النجاة منه، يصفها بالسرعة. "التامك": المشرف الطويل، "القرض": المتلبد، يعني: سنامها، "السوادي": نسبة إلى سواد العراق، يريد به: العلف، وأنه هو الذي نمى

سنامها، "الرضيح": النوى المدقوق، "اللجين"، أي: ما تلجن، يعني: تلزج من ورق أو علف أو غيره. "السناف": خيط أو حبل دقيق من المنخر إلى الحزام، معرس: مكان التعريس: وهو النزول آخر الليل، والجون: السود، أراد بهن القطا، يبكرن بالورود إلى الماء، شبه ما مس الأرض من ناقته بتعريس من قطا فحصن الأرض و"معرس القطا": أخفى. "يحز" أي: يقطع، و"الصعداء": النفس المردود إلى الجوف، و"النسع": سير يضفر من الجلد، و"قواه"، أي: طاقاته التي ضفر منها، والمحرَّم: الذي دفع ولم يليَّن، و"ذو المتون"، أي: ذو القوى، يقول: إذا زفرت؛ فامتلأ جوفها بنفسها قطعت النسع بنفَسها. "الحالبان": عرقان يكتنفان السرة. و"المشفتر": أي: المتفرق، يعني: الحصى، و"البحة": صوت فيه غلظ، أراد: أنها تزج بالحصى في سيرها، فتصك بها حالبيها.

قوله:

كَأَنَّ نَفِيَّ ما تَنفي يَداها ❖ قِذافُ غَريبَةٍ بِيَدَي مُعينِ

شبه ما تنفي يداها -أي: تلقيه وتبعده من الحصى بسبب سرعتها: بحجارة تقذف بها ناقة غريبة أتت حوضًا غير حوضها لتشرب منه؛ فرُميت. قوله: "تسد بدائم الخطران جثل"، دائم الخطران: يعني ذنبها، وخطرانه: حركته، والجثل: الكثير الشعر، والخواية في البيت: معناها الفرجة، والمقلاة: التي لا يبقى لها ولد، والدهين: الناقة القليلة اللبن.

قوله:

وَتَسمَعُ لِلذُبابِ إِذا تَغَنّى ❖ كَتَغريدِ الحَمامِ عَلى الوُكونِ

يريد بالذباب هنا: حد نابها، أي: صوته إذا صرفت أي: صوتت بأنيابها، ويجوز أن يكون ذلك في وقت الخصب؛ فتسمع صوت الذباب في الرياض -يمكن

أن يفسر الكلام على وجهين- والوكون: جمع وكن: وهو عش الطائر، السدف: الليل، والسدف: النهار أيضًا، والمراد به في قوله:

فَأَلقَيتُ الزِمامَ لَها فَنامَت ❖ لِعادَتِها مِنَ السَدَفِ المُبينِ

المراد به هنا: الضوء. "المعزاء": الموضع الكثير الحصى. و"الوجين": ما غلظ من الأرض وكان فيه ارتفاع، شبه موقع سفناتها، أي: مواقع أقدامها وآثارها بموقع الجام إذا ألقي.

"الكور": كور الرحل: وهو خشبه وأداته، "الأنساع": جمع نسع: وهو السير، "القرواء" في كلامه معناها: السفينة الطويلة القرى، أي: الطويلة الظهر، والمأهرة: أي: السابحة، و"الدهين": المدهونة، و"الجؤجؤ": الصدر، و"الغوارب" من كل شيء: أعلاه، والحدب: ارتفاع الموج، والبطين: البعيد الواسع، شبه الناقة بسفينة يشق الماء صدرها، قوله: "غدت قوداء... إلى آخره" القوداء: الطويلة العنق. "منشقًا نساها"، وذلك إذا سمنت انفلقت اللحمتان اللتان في الفخذين، فيظهر النسا بينهما، و"النسا": عرق. "تجاسر": تمضي، و"الوتين": عرق في القلب.

قوله: "إذا ما قمت أرحلها بليل"، أرحلها: أي: أضع عليها الرحل، "تأوه آهة الرجل الحزين"، يقول: إن الناقة تصدر صوتًا يشبه صوت الرجل المتوجع المتألم، عندما يضع الرحل عليها ليلًا؛ لأنها تعرف أنها ستسافر سفرًا متعبًا، وسيرحل عليها رحلة طويلة:

تَقولُ إِذا دَرَأتُ لَها وَضيني ❖ أَهَذا دينُهُ أَبَدًا وَديني

هنا يتخيل الشاعر ناقته كأنها تتكلم، بعد أن ذكر أنها تتأوه؛ أخبر أنه إذا شد رحله بالحزام عليها ومده، قوله:

تَقولُ إِذا دَرَأتُ لَها وَضيني ❖ أَهَذا دينُهُ أَبَدًا وَديني
أَكُلُّ الدَهرِ حَلٌّ وَارتِحالٌ ❖ أَما يُبقي عَلَيَّ وَما يَقيني

تخيل الشاعر ناقته تتكلم، وألقى على لسانها هذا الاستفهام الإنكاري التعجبي، أهذا دينه أبدًا وديني؟! أكل الدهر حل وارتحال؟! أما يبقي علي ذلك الرجل وما يقيني تعب السفر والارتحال؟! هكذا تخيل الشاعر ناقته تقول.

.... وَضيني ❖ أَهَذا دينُهُ أَبَدًا وَديني
أَكُلُّ الدَهرِ حَلٌّ وَارتِحالٌ ❖ أَما يُبقي عَلَيَّ وَما يَقيني

وقوله:

فَأَبقى با لِي وَالجِدُّ مِنها ❖ كَدُكّانِ الدَرابِنَةِ المَطينِ

"باطلي": أي: ركوبي في طلب اللهو والغزل، ركوبي إياها، وجدها: جدها في السير وسرعتها، والدكان: الدكة المبنية للجلوس عليها، والدرابنة: البوابون، الواحد "دربان" بتثليث الدال دُربان أو دِربان أو دَربان: فارسي معرب، و"المطين" أي: المطلي بالطين، يريد أنها: وإن أتعبها في لهوه؛ فإنها ضخمة قوية:

ثنيت زمامها ووضعت رحلي ❖ ونمرقة رفدت بها يميني

النمرقة: الوسادة، رفدت، أي: أعنت يعني، أنه اعتمد على وسادة.

فَرُحتُ بِها تُعارِضُ مُسبَطِرًّا ❖ عَلى صَحصاحِهِ وَعَلى المُتونِ

"المسبطر": الطريق الممتد. و"تعارض": تأخذ في عرضه، أي: تسير بإزائه، كأنها تختصره مخافة أن تضل، و"الصحصاح": ما استوى من الأرض، و"المتون": جمع متن: وهو ما صلب من الأرض وغلظ... بعد أن فرغ من الكلام على ناقته أخبر أنه توجه بها إلى عمرو، ويبدو أن عمرًا هذا هو عمرو بن هند الملك، فقال -كأنها كانت هبة له من عمرو:

إِلى عَمرٍو وَمِن عَمرٍو أَتَتني ❖ أَخي النَجداتِ وَالحِلمِ الرَصينِ
فَإِمّا أَن تَكونَ أَخي بِحَقٍّ ❖ فَأَعرِفَ مِنكَ غَثّي مِن سَميني
وَإِلّا فَاِطَّرِحني وَاِتَّخِذني ❖ عَدُوًّا أَتَّقيكَ وَتَتَّقيني
وَما أَدري إِذا يَمَّمتُ وَجهًا ❖ أُريدُ الخَيرَ أَيُّهُما يَليني
أَأَلخَيرُ الَّذي أَنا أَبتَغيهِ ❖ أَمِ الشَرُّ الَّذي هُوَ يَبتَغيني

يقول لعمرو: إما أن تكون أخي بحق؛ فأعرف منك غثي أو سميني: أعرف نصحك من غشك، و إلا تفعل ذلك فاطرحني، واتخذني عدوًا، أي: اترك مودتي، واتخذني عدوًّا أتقيك وتتقيني.

وهذا البيت والأبيات السابقة التي قالها المثقب، وهو يتحدث عن محبوبته، كأنه أراد بها أن يصف لنا نفسه، وأنه ذو شمم وإباء، وأنه لا يقبل إلا المعاملة المتكافئة، لا يحب من محبوبته أن تهجره، وتقطع صلتها به، ثم هو يدوم على ودها، كذلك لا يقبل من الملك أن يعامله معاملة أقل من معاملة الأخ بحق، وهو في كل ذلك يخبر أنه مستعد؛ لأن يتحمل مسئولية قراره بهجر من يهجره؛ حتى إنه قال لمحبوبته:

فَإِنّي لَو تُخالِفُني شِمالي ❖ خِلافَكِ ما وَصَلتُ بِها يَميني
إِذًا لَقَطَعتُها وَلَقُلتُ بيني ❖ كَذَلِكَ أَجتَوي مَن يَجتَويني

فالرجل لا يقبل من أحد أن يخالفه في وده، ثم يقول كلامًا شريفًا عاليًا، يظهر عجز الإنسان عن معرفة الحقيقة في أي اتجاه يتجهه يريد به الخير، فقد يحصل الشر من حيث أراد الخير:

وَما أَدري إِذا يَمَّمتُ أمرًا ❖ أُريدُ الخَيرَ أَيُّهُما يَليني

أيهما يكون قريبًا مني.

أَأَلخَيرُ الَّذي أَنا أَبتَغيهِ ❖ أَمِ الشَرُّ الَّذي هُوَ يَبتَغيني

وهـذه القـصيدة تتسم بوحـدة موضـوعية إلى حـدٍّ بعيـدٍ ؛ لأن المعـاني الـتي أراد الشاعر التعبير عنها معان مترابطة، ولعل نهايتها في خطابه لعمرو مشبهة بدايتها في خطابه لمحبوبته، وفي القصيدة صور جزئية من التشبيه والاستعارة في وصف النساء، وفي وصف الناقة، يسهل على المراجع أن يتعرف عليها.

عمـرو بـن معـدي كـرب وداليتـه

عمرو بن معديكرب : هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدي، فارسٌ وسيدٌ من فرسان الجاهلية وسادتها، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ فأسلم وبايع لقومه على الإسلام، وعاش حتى شهد القادسية، ونهاوند ؛ فأبلى في الأولى بلاءً حسنًا، وقتل في الثانية آخر أيام عمر > .

وكان عمرو عظيم الخِلقة حتى إن عمر بن الخطاب > تعجب من ذلك وقال : "الحمد لله الذي خلقنا وخلق عَمْرًا"، ويروى أنه عده بألفٍ حين أمد به سعد بن أبي وقاص في القادسية، وكان لعمرو سيف اسمه "الصمصامة" من أشهر سيوف العرب، ومعظم أشعاره في الحماسة، وهو يحدث فيها عن أيام قومه وبلائه معهم من غير تزيد ولا إسراف، ومن صفاته التي عرف بها أنه أحد من يصدق عن نفسه في شعره ؛ لقوله في هذا الشعر :

ولقد أجمعُ رِجليَّ بها ❖ حَذَرَ الموتِ وإنّي لَفَرورُ
ولقد أعطِفُها كارهةً ❖ حين للنفس من الموت هَريرُ
كلُّ ما ذلك منّي خُلُقٌ ❖ وبكلٍ أنا في الرَّوع جديرُ

يحدث عن فرسه، وأنه قد يستحثها للفرار كما يعطفها على الموت، وهذا كلام من جمع إلى شجاعته وإقدامه حذرًا، وحزامة، وإلى جرأته وتهوره

رفقًا وأصالة، ثم يكون عارفًا بوقت كل منها، والحال الموجبة لاختيار بعضها.

ومناسبة القصيدة: أن عمرًا لاقى مع قومه وحلفائهم من جرم بني الحارث بن كعب مع حلفائهم من نهد، وكان من أسباب هذا اللقاء -لقاء الحرب- فيما روى الترمذي: أن جرمًا قتلت رجلًا من بني الحارث، ثم تحولت إلى بني زبيد -قوم عمرو- فأقبل بنو الحارث يطلبون بدم صاحبهم، ومعهم بنو نهد؛ فالتحم الفريقان في يوم مشهود، ثم إن جرمًا لم تثبت في المعركة؛ بل فرت، كما أن زبيدًا لم تغنِ غناءً كبيرًا، ولم تثبت في الحرب حتى صار عمرو كأنه يقاتل وحده، وبقيت ذكرى فرار قومه ومن معهم، وبقائه وحده ماثلة في نفسه، وكان يفتخر بثباته وحده في هذا اليوم، ومن شعره الذي يفتخر فيه بنفسه، هذه القصيدة التي تقع في سبعة عشر بيتًا يقول فيها:

لَيْسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ❖ فاعْلَمْ وإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

إِنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ❖ ومَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدَا

أَعْدَدْتُ لِلحَدَثانِ سا ❖ بِغَةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى

نَهْدًا وذا شُطَبٍ يَقُـ ❖ ـدُّ البَيْضَ والأَبْدَان قَدَّا

وَعِلْمِتُ أَنِّي يومَ ذا ❖ كَ مُنازِلٌ كَعْبًا ونَهْدَا

قَوْمٌ إِذا لَبِسُوا الحَدِيـ ❖ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وقِدَّا

كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي إلى ❖ يَوْمِ الهِياجِ بِما اسْتَعَدَّا

لَمَّا رَأَيْتُ نِساءَنا ❖ يَفْحَصْنَ بالمَعْزاءِ شَدَّا

وبَدَتْ لَمِيسُ كأَنَّها ❖ بدر السَّماءِ إِذا تَبَدّى

وبَدَتْ مَحاسِنُها التي ❖ تَخْفَى وكانَ الأَمْرُ جِدّا

نازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ ❖ أرَ مِن نِزالِ الكَبْشِ بُدّا
هُمْ يَنْذِرُونَ دَمِي وأنْـ ❖ ذِرُ إنْ لَقِيتُ بأنْ أشُدّا
كَمْ مِن أخٍ لِيَ صالِحٍ ❖ بَوَّأْتُهُ بِيدَيَّ لَحْدا
ما إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْـ ❖ ـتُ ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنْدا
ألْبَسْتُهُ أثوابَهُ وخُلِقْـ ❖ ـتُ يومَ خُلِقْتُ جَلْدا
أُغْنِي غَناءَ الذَّاهِبِيـ ❖ ـنَ أُعَدُّ لِلأعْداءِ عَدّا
ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُمْ ❖ وبَقِيتُ مِثْلَ السَّيفِ فَرْدا

وقد شرح الدكتور السعيد عبادة هذه القصيدة شرحًا وافيًا ومتميزًا، وجعل لها عنوانًا هو: "جمال البطولة"؛ ذلك أن الشاعر بدأ القصيدة بتعريف الجمال، فقال:

لَيسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ❖ فاعْلَمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدا
إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ❖ ومَناقِبٌ أوْرَثْنَ مَجْدَا

فتعريف الجمال في نظره لا يرجع إلى الزي، ولا إلى الهيئة؛ وإنما الجمال في نظره معادن، أي: أصول، ومناقب، أي: صفات ومكارم، "أورثن مجدًا" أي: جلبن المجد.

ثم بعد ذلك أخبر عن نفسه بأنه أعد للنوائب، ومصائب الأيام درعًا واسعة سابغة وفرسًا نشيطًا قويًّا:

أعْدَدْتُ لِلحَدَثانِ سا ❖ بِغَةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى

"عداء علندى": فرسًا كثير الجري، "نهدًا وذا شطب": صفة أخرى للموصوف المحذوف: "فرسًا عداء علندى نهدًا"، وذا شطب، المراد به: السيف، والشطب: الطرائق التي تكون فيه، يقد البيض، أي: يقطع البيض، والبيض هنا: جمع بيضة: وهي غطاء الرأس من حديد يلبسه المحارب ليحمي رأسه، والأبدان، المراد بها: الدروع القصيرة على قدر الجسد.

ثم أخبر عن أعدائه الذين يلاقيهم في الحرب، ووصفهم بأنهم أقوياء:

وَعلِمتُ أنّي يومَ ذا ❖ كَ مُنازِلٌ كَعْبًا ونَهْدَا
قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الحَدِيـ ❖ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وقِدَّا

و"تنمروا" أي: تشبهوا بالنمور، و"حلقًا وقدّا": الحلق: الدروع، والقِدّ: نوع منها، والمعنى: أنهم قوم شداد إذا لبسوا الدروع تشبهوا بالنمر في أفعالهم عند القتال.

كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي إلى ❖ يَوْمِ الهِيَاجِ بما اسْتَعَدَّا

كل امرئ يذهب إلى القتال بما استعد له. ثم قال -مشيرًا إلى غيرته على حريمه، واستبساله في استنقاذهم من الأسر ومن الذل:

لَمَّا رَأَيْتُ نِساءَنا ❖ يَفْحَصْنَ بالمَعْزاءِ شَدَّا

"يفحصن" أي: يؤثرن، والمعزاء: الأرض الصلبة، و"شدًّا" أي: عدوًّا، أي: يؤثرن في الأرض الصلبة لشدة جريهن.

وبَدَتْ لَمِيسُ كأنّها ❖ بدرُ السَّماءِ إذا تَبَدّى
وبَدَتْ مَحاسِنُها التي ❖ تَخْفَى وكانَ الأَمْرُ جِدّا

أي: بدت هذه المرأة -التي اسمها لميس- يبدو أنها كانت محجبة؛ فسفرت في وقت الفزع، وكشفت وجهها، وظهرت كأنها بدر السماء.

لما حدث ذلك:

نازَلْتُ كَبْشَهُمُ ولَمْ ❖ أرَ مِن نِزالِ الكَبْشِ بُدّا

لما رأيت الغارة قد اشتدت، ورأيت نساءنا يجرين ويؤثرن في الأرض الصلبة لشدة جريهن، وبدت لميس سافرة عن وجهها كأنها بدر السماء، وبدت محاسنها التي لم تكن تبدو، وصار الأمر جدًّا؛ لما حدث ذلك؛ أنفت، وقصدت رئيس

الأعداء، وكان لا بد من منازلته لتفريج الشدة؛ فقوله: "نازلت" جواب "لما" التي جاءت في البيت السابق: "لما رأيت نساءنا نزلت".

هُمْ يَنْذِرُونَ دَمِي ❖ وأَنْذِرُ إِنْ لَقِيتُ بأَنْ أَشُدّا

يقول: إن أعداءه كانوا يعرفون شجاعته، وكانوا حراصًا على قتله؛ فقد نذروا دمه، وهو ينذر أن يستبسل وأن يقاتل، وأن يثبت إذا لقيهم.

بعد أن أشار إلى موقفه في الحرب؛ أشار إلى جلده، وأنه على الرغم من نوائب الدهر، وفقد إخوانه الذين كان يثق فيهم، يقول: إنه على الرغم من ذلك لا يجزع، ولا يهون.

يقول:

كَمْ مِن أخٍ لِيَ صالحٍ ❖ بَوَّأْتُهُ بيدَيَّ لَحْدا

ما إِنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعْـ ❖ ـتُ ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنْدا

أَلْبَسْتُهُ أَثْوابَهُ وخُلِقْـ ❖ ـتُ يومَ خُلِقْتُ جَلْدا

أُغْنِي غَناءَ الذَّاهِبِيـ ❖ ـنَ أُعَدُّ لِلأَعْداءِ عَدّا

ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُمْ ❖ وبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدا

"بوَّأته" أي: أنزلته، و"لحدًا" أي: قبرًا، والكلام من قوله: "كم من..." إلى آخره، يحتمل أمرين: إما الاحتجاج بإقدامه على الأعداء، وبذل نفسه للموت؛ بأنه مما صبر عليه ولم يجزع منه حين ابتلي بفقد من سبقوه من إخوانه الصالحين الذين تولى تكفينهم ودفنهم بيديه، والذين لا يزال يغني غناءهم، ويعد للأعداء من بعدهم. وإما البيان لجميل صبره على ما ابتلي به من فقد هؤلاء الإخوان الصالحين، والجزع، معناه: عدم الصبر، والهلع: أفحش الجزع، والزند: يستعمل في الشيء القليل، يريد أن يقول: إنه لم يجزع، ولم يهلع لفقدان من

فقده؛ ولو جزع وهلع لم يرد بكاه شيئًا، والجلد: القوي الشديد، والغَناء: النفع والكفاية، والذاهبون: الذين مضوا من عشيرته.

وقوله:

ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُمْ ❖ وبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدا

شبه نفسه بالسيف منفردًا، لا يجتمع معه غيره في غمده، أو أنه بقي لنفاذه في الأمور كالسيف القاطع.

نلاحظ على هذه القصيدة ترابط أجزائها، وتلاحمها، وهي ليست طويلة جدًّا، وهذا ساعد الشاعر على أن يكون شعوره فيها واحدًا مضطردًا، وأن تكون بنيتها الفنية قريبة من التكامل؛ فالشعور الساري في القصيدة من أولها إلى آخرها واحد، هو شعور الفارس الواثق من نفسه، المفتخر بما عنده من مآثر ومكرمات، تجعله يرى الجمال فيها، وأن الجمال ليس بالزي، وليس بالمظهر، وإنما الجمال في هذه الصفات النفسية التي يتمتع هو بقدر كبير منها.

ونلاحظ أن ألفاظ القصيدة خلاصة صافية من معجم شاعر فارس، ذي حس مرهف، ودراية كاملة باللغة؛ فقد اختار للمعاني الألفاظ التي تناسبها، وهي ألفاظ واضحة لا غموض فيها ولا غرابة، وذلك كله دال على سلامة طبعه، ودال على قدرته الفنية، وثقافته اللغوية.

والجمل في القصيدة محكمة النسج قوية البناء، تسير على نهج صحيح وفصيح، لا تعقيد فيها ولا حشو ولا غموض ولا التواء.

وقد عبر بالجملة الاسمية في بعض المواضع للدلالة على الثبوت والاستمرار، لكنه أكثر من التعبير بالفعلية لما في الفعل من قوة النقل والتصوير والدلالة على التجدد.

والتعبير الحقيقي شائع في القصيدة ؛ لأن الرجل يخبر عن نفسه بما هو فيها ، وفي بعض الصور نجده يستخدم المجاز كالتشبيه والكناية أحيانًا ، من ذلك : تشبيهه للميس ببدر السماء ، ولنفسه بعد أحبته بالسيف.

ومن الكناية قوله : "لما رأيت نساءنا..." إلى آخره ، وفي ذلك كناية عن شدة الحرب ؛ لأن الحرة لا تذهل عن حيائها وسترها وتبدو زينتها إلا في المواقف الشديدة الصعبة. وفي قوله :

ذَهَبَ الذينَ أُحِبُّهُمْ ❖ وبَقِيتُ مَثَلَ السَّيْفِ فَرْدا

مقابلة : حيث قابل بين ذهاب الأحبة وبقائه متفردًا ، فلخص غرض القصيدة كلها في هذه المقابلة ؛ لأن غرض القصيدة هو الحديث عن نفسه مع تجاهل قومه الذين لم يثبتوا في الحرب ، وفروا وتركوه وحده فثبت وقاتل.

وقوله -في بداية القصيدة:

لَيْسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ ❖ فاعْلَمْ وإنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

إنَّ الجَمالَ مَعادِنٌ ❖ ومَناقِبٌ أَوْرَثْنَ مَجْدَا

يصلحان لأن يكونا من الحكمة ، وأن يستشهد بهما في مواقف التعبير عن الجمال الحقيقي ، وفي مواطن تعليم النشء أن الجمال الذي يعتد به هو جمال الجوهر ، وليس جمال المظهر. ومما يمكن أن يعد من الحكمة كذلك قوله :

كُلُّ امْرِئٍ يَجْرِي إلَى ❖ يَوْمِ الهِياجِ بِما اسْتَعَدَّا

فهو صالح للتعبير عن الاستعداد لكل شيء بما يناسبه ؛ فالذي يذهب إلى الحرب يستعد لها بما يناسبها ، والذي يذهب لشيء غير الحرب يستعد له بما يناسبه.

وقوله -عن أعدائه:

قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الحَدِيـ ❖ ـدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وقِدًّا

اعتراف للخصوم بما عندهم من قوة، وهذا من صدق القول، ومما يرفع من قيمة الفارس؛ لأن الذي ينتصر على القوي يكون أقوى منه، والذي ينتصر على الشجاع يكون أكثر منه شجاعة، ولا فضل لقوي يتغلب على ضعيف، أو شجاع أو يقهر جبانًا.

ومع الشجاعة التي كان عمرو بن معديكرب يتصف بها ومع جرأته، وثباته في الحرب، وتجربته لها؛ فإن عمر بن الخطاب < سأله عن الحرب فقال: مرة المذاق، إذا شمرت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن ضعف عنها تلف، وهي كما قال الشاعر:

الحربُ أوّلَ ما تكونُ فُتيَّة ❖ تسعى بزينتها لكلِّ جَهولِ
حتى إذا استَعَرَت وشَبَّ ضِرامُها ❖ عادت عجوزًا غيرَ ذاتِ خليلِ
شمطاء جزت رأسها وتنكرت ❖ مكروهة للشم والتقبيل

وهذا الكلام من عمرو يكشف عن تجربته في الحرب، وعن رأيه فيها؛ فهو ليس مجرد فارس يخوض الغمار، ويحمي الذمار؛ بل هو فارس دقيق الملاحظة عميق التجربة، يستطيع -وقد ذاق الحرب- أن يصفها -على هذا النحو- وصف الناقد البصير: فجذابة في أول أمرها، مرة إذا شمرت عن ساقها، كالفتاة الصغيرة تستهوي كل مَن رآها؛ حتى إذا مضى بها السن وأدركها الكبر، عادت عجوزًا غير ذات خليل.

إذا تذكرنا إلى جوار هذا الكلام ما أسلفناه من وصفه بأنه كان صادقًا في تعبيره عن نفسه اتضح لنا أن الرجل يتصف بصفتين عظيمتين هما: العمق، والصدق، وقد دلت قصيدته التي قرأناها وشرحنا معانيها على هاتين الصفتين، بالإضافة إلى شجاعته وإقدامه وثباته في الحرب... رحم الله عمرو بن معديكرب.

تابع نصوص من الشعر الجاهلي: تحليل ودراسة مختارات من دالية دريد بن الصمة، ولامية العرب الشنفرى

عناصر الدرس

العنصر الأول : دريد بن الصمة الجشمي وداليّته ٢٠٩
العنصر الثاني : الشنفرى ولاميّة العرب ٢١٥

دريد بن الصمة الجشمي وداليَّتُه

دريد: هو دريد بن معاوية بن الحارث بن معاوية بن بكر بن علقة بن جداعة بن غزية بن جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وكلمة: "دُرَيد" تصغير أدرد، و"أدرد" أي: تحاتت أسنانه وسقطت، و"الصِّمَّةُ" لقب أبيه، وهي كلمة معناها: الرجل الشجاع، ويقال: إن الصمة من أسماء الأسد، وأمه: ريحانة بنت معديكرب الزبيدي. يقولون: إن أباه الصمة سباها في غارة له على بني زبيد، ثم تزوجها فولدت له بنيه ومنهم دريد، ويبدو أنها أيضًا كانت شاعرة، إذ يذكر ابن قتيبة أنها حضت دريدًا بشعر لها على الطلب بثأر أخيه، وقد خلا شعر دريد من الإشارة إليها، لكنه أشار إلى هذه المطالبة بالثأر، ووعده إياها بأنه سيأخذه بقوله:

تَكِلتِ دُرَيدًا إِن أَتَت لَكِ شَتوَةٌ ❖ سِوى هَذِهِ حَتّى تَدورَ الدَوائِرُ

أي: حتى تقوم الحرب، وآخذ بثأر أخي.

وتحدثت الأخبار عن إخوة أربعة له هم: عبد الله، وعبد يغوث، وقيس، وخالد، وقد قتلوا جميعهم، وكان مقتل عبد الله في غارة له على غطفان، ويبدو أن عبد الله هذا كان آثرهم عند دريد، وقد كان شريكًا له في هذه الغارة التي قتل فيها، والقصيدة التي سندرسها تشير إلى عبد الله هذا.

أما أبناء دريد؛ فتشير المصادر إلى اثنين من الأبناء هما: ابنه سلمة، وابنته عمرة. ويقولون: كان كلاهما شاعرًا، وقد كان دُريد متزوجًا من امرأتين؛ أولاهما:

سمادير، وكنيتها أم معبد، ويبدو أن ابنيه كانا منها، وقد ذكروا أنه طلقها؛ لأنها تعرضت له باللوم حين رأته شديد الجزع لفقد أخيه، وراحت تصغر من شأنه لذلك؛ فأثاره هذا منها ودفعه إلى طلاقها. أما المرأة الثانية فيبدو أنه لم يطل عهده بها، وأنه فارقها، ولم يعش معها طويلًا.

ودريد من الشعراء المعمرين المخضرمين، عاش شطرًا من حياته في الجاهلية وأدرك الإسلام ولكنه لم يسلم، وكانت وفاته في يوم حنين من العام الثامن للهجرة، وقد خرجت جموع هوازن وثقيف، وخرج دريد مع هوازن أو أخرجته هي معها؛ لأنه كان في ذلك الوقت شيخًا كبيرًا ذاهب البصر، لا مكان له في الحرب، وإنما أخذهم إياه معهم كانت للتيمن، والانتفاع برأيه وخبرته.

ويقال: إن الذي قتله غلام مسلم اسمه ربيعة بن رفيع بن أهبان السلمي.

وقد تصرف دريد في فنون الشعر، وقال في الأغراض كلها، وعرف النقاد في القديم وفي الحديث مكانته بين الشعراء، وممن تعرضوا للحكم على شاعريته: أبو الفرج الأصفهاني، فقال في ترجمته: شاعرٌ فحلٌ، كان أطول الفرسان الشعراء غزوًا وأشعرهم. وقال عنه الأصمعي: دُريد بن الصِّمة من فحول الفرسان. ومنهم من يجعله أشعر الفرسان، ويعقبه بعنترة، ثم خفاف بن ندبة، ثم بعد ذلك يأتي غيرهم من الشعراء الفرسان.

أما قصيدته، فيقال في مناسبتها: إن أم معبد كانت زوجته، ولما قُتل أخوه، ورأت جزع زوجها دُريد الشديد عليه لامته، وعاتبته فطلَّقها، وقال هذه القصيدة.

أما القصيدة فيقول فيها:

أَرَثَّ جَدِيدُ الحَبْلِ مِنْ أُمِّ معبدِ ❖ بعاقِبَةٍ وأَخْلَفَتْ كلَّ موْعِدِ

وبانَتْ ولَمْ أَحْمَدْ إلَيْكَ جِوارها ❖ ولَمْ ترْجُ فينا رِدَّةُ اليَوْمِ أوْ غَدِ
مِنَ الخَفِراتِ لا سَقوطًا خِمارُها ❖ إذا بَرَزَت ولَا خَروجَ المُقَيَّدِ
وكُلَّ تَباريحِ المُحِبِّ لَقيتهُ ❖ سِوى أنَّني لم ألقَ حَتفي بمَرصَدِ
وأنّيَ لم أهلِك سُلالًا ولَم أمُت ❖ خُفاتًا وكُلًّا ظَنَّهُ بيَ عُوَّدي

وفي هذه المقدمة ذكر أن صلته بأم معبد انقطعت، وأنها ذهبت، ولم ترج منه أو فيه ردة، لا في اليوم ولا في الغد، وأثنى على هذه المرأة بأنها حيية: "من الخفرات"، وأنها لا يسقط خمارها إذا برزت، ولا يبرز كعبها ولا يظهر، ويذكر أن تباريح المحب لقيها وجربها، لكنه لم يلق حتفه بعد ولم يمت.

ثم يتوجه بالكلام إلى زوجته التي لامته على حزنه الشديد على أخيه، فيقول:

أعاذِلَ مَهلًا بَعضُ لَومِكِ وَاقصِدي ❖ وَإِن كانَ عِلمُ الغَيبِ عِندَكِ فَارشِدي
أعاذِلَتي كُلُّ امرِئٍ وَابنُ أُمِّهِ ❖ مَتاعٌ كَزادِ الراكِبِ المُتَزَوِّدِ
أعاذِلَ إنَّ الرُزءَ في مِثلِ خالِدٍ ❖ وَلا رُزءَ فيما أهلَكَ المَرءُ عَن يَدِ

وهو في هذه الأبيات يطلب من امرأته أن تتمهل، وأن تدع لومها إياه وأن تتخفف من ذلك، ويخبرها بأن كل امرئ وأخيه لا بد أنهما يفترقان، كما يخبرها أن المصيبة في مثل أخيه مصيبة كبيرة، وأن إهلاك المال أو نفاد المال لا يعد من المصائب إذا قورن بفقد الأخ. ثم يذكر دريد موقفًا له مع قومه، نصحهم فيه وبصرهم، ولكنهم لم يستجيبوا له فقال:

وقلتُ لِعراضٍ وأصحابِ عَارِضٍ ❖ ورَهطِ بني السَّوداءِ والقوم شُهَّدي
علانيةً ظُنُّوا بألفَي مُدَجَّجٍ ❖ سراتُهُمُ في الفارسيّ المُسرَّدِ
وَقُلتُ لَهُم إنَّ الأَحاديث هذه ❖ مُطَنَّبَةٌ بَينَ السِتارِ فَثَهمَدِ
فَما فَتِئوا حَتّى رَأوها مُغيرَةً ❖ كَرِجلِ الدبى في كُلِّ رِبعٍ وَفَدفَدِ

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيلَ قُبلًا كَأَنَّها ❖ جَرادٌ يُباري وِجهَةَ الريحِ مُغتَدي
أَمَرتُهُمُ أَمري بِمُنعَرَجِ اللِوى ❖ فَلَم يَستَبينوا الرشد إِلّا ضُحى الغَدِ
فَلَمّا عَصوني كُنتُ مِنهُم وقد أرى ❖ غِوايَتَهُم وَأَنَّني غَيرُ مُهتَدِ
وما أَنا إِلّا مِن غَزِيَّةَ إِن غَوَت ❖ غَوَيتُ وَإِن تَرشُدُ غَزيَّةُ أَرشَدِ

في هذه الأبيات يحكي دريد لنا موقفًا: أنه كان مع قومه في يوم من أيام الحرب، وأنه نصح قومه وبصرهم وأخبرهم أن القبائل التي تحاربهم مخيمة بين جبل النسار وجبل ثهمد، وأخبرهم أنهم إذا لم يبدءوا بمهاجمة أعدائهم؛ فإن أعداءهم سيهاجمونهم، وسيفعلون بهم الأفاعيل؛ لكن القوم لم يستجيبوا له:

أَمَرتُهُمُ أَمري بِمُنعَرَجِ اللِوى ❖ فَلَم يَستَبينوا الرشد إِلّا ضُحى الغَدِ

ولما كان ضحى الغد قد جاء، كان القوم قد هاجموهم وجاءوا إليهم بجنود كالجراد:

وَلَمّا رَأَيتُ الخَيلَ قُبلًا كَأَنَّها ❖ جَرادٌ يُباري وِجهَةَ الريحِ مُغتَدي

ومع أنهم عصوه؛ لكنه رأى نفسه واحدًا منهم، ورأى أن ضلالهم ضلال له ورشدهم رشد له:

وما أَنا إِلّا مِن غَزِيَّةَ إِن غَوَت ❖ غَوَيتُ وَإِن تَرشُدُ غَزيَّةُ أَرشَدِ

وهذا البيت يُتمثل به للدلالة على أن الشاعر في الجاهلية كان يقدم قبيلته على نفسه، وكان الواحد منهم يذهب إلى حيث أرادت القبيلة أن تذهب، وأنه يقدم رأي الجماعة رأيه حتى لو كان رأيه مصيبًا، ورأي الجماعة مخطئًا، ثم ينتقل دُريد إلى الحديث عن أخيه عبد الله الذي قُتل في غارة كان هو معه فيها، يقول:

دَعاني أَخي وَالخَيلُ بَيني وَبَينَهُ ❖ فَلَمّا دَعاني لَم يَجِدني بِقُعدَدِ
أَخٍ أَرضَعَتني أُمُّهُ من لِبانِها ❖ بِثَديِي صَفاءٍ بَينَنا لَم يُجَدَّدِ
تَنادوا فَقالوا أَردَتِ الخَيلُ فارِسًا ❖ فَقُلتُ أَعَبدُ اللَهِ ذَلِكُمُ الرَدي

غداة دعاني وَالرِماحُ تَنوشُهُ ❖ كَوَقعِ الصَياصي في النَسيجِ المُمَدَّدِ
وَكُنتُ كَذاتِ البَوِّ ريعَت فَأَقبَلَت ❖ إِلى جِلدٍ مِن مَسكِ سَقبٍ مُقَدَّدِ
فَطاعَنتُ عَنهُ الخَيلَ حَتّى تَنَددت ❖ وَحَتّى عَلاني حَالِكُ اللَونِ أَسوَدِ

وقوله : "وكنت كذات البوِّ ريعت..." إلى آخره. يخبر أنه لما ذهب لإنقاذ أخيه وجده قد مزق كل ممزق ، لكنه طاعن القوم وحاربهم ، ووصف هذا الطعان ، فقال :

عِنَانُ امرِئٍ آسى أَخاهُ بِنَفسِهِ ❖ وَيَعلَمُ أَنَّ المَرءَ غَيرَ مُخَلَّدِ
فَما رِمتُ حَتّى خَرَّقَتني رِماحُهُم ❖ وَغودِرتُ أَكبو في القَنا المُتَقَصِّدِ

ثم يذكر أخاه عبد الله ويثني عليه بما كان فيه من الشجاعة والإقدام ، فيقول :

وإِن يَكُ عَبدُ اللَهِ خَلّى مَكانَهُ ❖ فَما كانَ وَقّافًا وَلا طائِشَ اليَدِ
وَلا بَرِمًا إِن ما الرِياحُ تَناوَحَت ❖ بِرَ ب العِضاهِ وَالضَّريع المُعَضَّدِ
كَميشُ الإِزارِ خارِجٌ نِصفُ ساقِهِ ❖ صَبورٌ عَلى العَزاءِ طَلّاعُ أَنجُدِ
رَئيسُ حُروبٍ لا يَزالُ رَبيئَةً ❖ مُشيحًا عَلى مُحقَوقِفِ الصُلبِ مُلبِدِ
صَبُور على رزء المُصيباتِ حافِظٌ ❖ مِنَ اليَومِ أَدبارَ الأَحاديثِ في غَدِ
تَراهُ خَميصَ البَطنِ وَالزادُ حاضِرٌ ❖ عَتيدٌ وَيَغدو في القَميصِ المُقَدَّدِ
وَإِن مَسَّهُ الإِقواءُ وَالجَهدُ زادَهُ ❖ سَماحًا وَإِتلافًا لِما كانَ في اليَدِ
لَهُ كُلُّ مَن يَلقى مِنَ الناسِ واحِدًا ❖ وَإِن يَلقَ مَثنى القَومِ يَفرَح وَيَزدَدِ
صَبا ما صَبا حَتّى عَلا الشَيبُ رَأسَهُ ❖ فَلَمّا عَلاهُ قالَ لِلباطِلِ ابعَدِ

في هذه الأبيات يصف دريد أخاه بأنه كان شجاعًا ، وكان كريمًا ، وكان صبورًا ، وكان رئيس حروب ، يتقدم قومه على فرس صلبة شديدة ، يستطلع لهم الأمر ، وكان في الحرب صبورًا ، وفي السلم كريمًا : "تراه خميص البطن والزاد حاضر" ؛ فيصفه بقلة الطعام مع اتساع الحال ، وكثرة الزاد كأنه يتعفف عن إشباع نفسه ،

ويبذل الطعام لغيره، "وإن مسه الإقواء والجهد" زاده سماحًا وإتلافًا لما كان في اليد، أي: في وقت الجهد، ووقت المشقة والفقر؛ فإن سماحه يزيد. وكان من شجاعته كفؤًا لمن يلاقيه من الأقران؛ فإن لاقى فردًا قتله، وإن لاقى الفرسان مثنى مثنى فرح بذلك؛ ثقة منه في شجاعته وقوته:

صَبا ما صَبا حَتّى عَلا الشَيبُ رَأسَهُ ❖ فَلَمّا عَلاهُ قالَ لِلباطِلِ ابعَدِ

يصفه بأنه استمتع بشبابه غاية الاستمتاع، وأنه أدرك في شبابه كل ما صبت إليه نفسه، بهذا التعبير المبهم الذي يترك للنفس أن تتخيل أبعد ما يمكن تخيله: "صبا ما صبا"؛ لكنه عندما علا الشيب رأسه، قال للباطل: ابعد. وأخذ نفسه بما يلائم الشيب ويناسبه من البعد عن اللهو والباطل، والالتزام بالحكمة والحق.

ثم يصف دريد حزنه على أخيه، وأن هذا الحزن هوَّنه عليه أنه لم يسئ إليه قط، ولم يتأخر عنه أبدًا، ولم يبخل عليه بما ملكت يده، كما هون هذا الحزن وخففه علمه أن أخاه سبقه، وأنه في أثره ذاهب، يقول:

وَهَوَّنَ وَجدي أَنَّني لَم أَقُل لَهُ كَذَبتَ ❖ وَلَم أَبخُل بِما مَلَكَت يَدي

وهون وجدي أنما هو فارط ❖ أمامي وأني وارد اليوم أو غد

و تكرار قوله: "وهون وجدي" دالٌّ على أن وجده وحزنه كان كبيرًا، وأن الذي هونه هو ما ذكرت، ثم يدعو دريد لأخيه بعدم البعد:

فَلا يُبعِدَنكَ اللَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا ❖ وَمَن يَعلُهُ رُكنٌ مِنَ الأَرضِ يَبعُدِ

يقول: إن الذي يموت ويُدفن يبعد لا محالة؛ لكنه سيظل ذاكرًا له، وهذا معنى دعائه في قوله: "فلا يبعدنك الله حيًّا وميتًا"، ثم يقول دريد:

وَإِن تُعقِبِ الأَيّامُ وَالدَهرُ تَعلَموا ❖ بَني قارِبٍ أَنّا غِضابٌ بِمَعبَدِ

يخاطب أعداءه الذين قتلوا أخاه، بأن قومه غضاب على معبد، وأنهم لن يتركوا ثأره. ثم يفتخر دريد بنفسه وبفرسه القوية، فيقول:

وَغارَةٍ بَينَ اليَومِ وَالليلِ فَلتَةٍ ❖ تَدارَكتُها رَكضًا بِسيدٍ عَمَرَّدِ
سَليمِ الشَظى عَبلِ الشَوى شَنِجِ النَسا ❖ طَويلِ القَرا نَهدٍ أَسيلِ المُقَلَّدِ
يَفوتُ طَويلَ القَومِ عَقدُ عِذارِهِ ❖ مُنيفٌ كَجِذعِ النَخلَةِ المُتَجَرِّدِ
إِذا هَبَطَ الأَرضَ الفَضاءَ تَزَيَّنَت ❖ لِرُؤيَتِهِ كَالمَأتَمِ المُتَبَدِّدِ
وَتُخرِجُ مِنهُ ضَرَّةُ القَومِ مصدقًا ❖ وَطولُ السُرى دُرِّيَّ عَضبٍ مُهَنَّدِ

قوله: "وغارة بين اليوم والليل"، تقدير الكلام: ورب غارة بين اليوم والليل. بمعنى: كم من غارة بين اليوم والليل قمت بها على فرس يشبه الذئب في سرعته وخفته. وقوله: "سليم الشظى..." إلى آخره. عدد فيه صفات هذا الفرس القوي الطويل السليم. وقوله: "يفوت طويل القوم عقد عذاره" كناية عن علو هذا الفرس وارتفاعه، وقوله: "منيف كجذع النخلة المتجدد" يشبهه بجذع النخلة العظيمة، ثم أخبر أن الأرض الفضاء تتزين وتفرح إذا هبط هذا الفرس فيها، ويخبر كذلك أنه إذا اجتمع القوم أو التقى الجيشان في الحرب؛ فإن هذا الفرس يجري جريًا طويلًا كثيرًا سريعًا حتى يخرج منه عرق كأنه السيف المهند في لمعانه.

هكذا رثى دريد ابن الصمة أخاه في هذه القصيدة، وهكذا افتخر بنفسه.

الشنفرى ولامية العرب

الشنفرى: قيل: إنه لقبٌ بمعنى غليظ الشفتين، وقيل: إنه اسمٌ للرجل، وفي اسمه خلافٌ، ويقال: إن اسمه عمرو وهو من بني الحارث بن ربيعة من الأزد، جاهلي، أحد صعاليك العرب وعدائيهم، يُضرب به المثل في سرعة العدو، فيقال: أعدى من الشنفرى، وهو ابن أخت الشاعر الصعلوك تأبط شرًّا، وقصيدته التي سنتوقف معها لامية، يقال لها: "لامية العرب"، ومطلعها:

أقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيّكُم ❖ فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ

وفيها يقدم الشنفرى صورة واضحة نموذجية لحياة الصعاليك، وما كانوا يتسمون به من قيم في مجتمعهم الخاص، وهو في مطلع قصيدته يخبر أنه راغب عن قومه إلى قوم سواهم، سيعاشرهم ويتخذ منهم قومًا يُساكنهم ويعيش معهم بدلًا من قومه، ذلك أنه يرى أن الأرض واسعة، وأنه إذا استشعر الذل أو المهانة في مكان؛ فإنه من الواجب عليه أن يرحل عنه:

وَفي الأَرضِ مَنأًى لِلكَريمِ عَنِ الأَذى ❖ وَفيها لِمَن خافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

لَعَمرُكَ ما بالأَرضِ ضيقٌ على امرئٍ ❖ سَرى راغِبًا أو راهِبًا وَهوَ يَعقِلُ

ثم يسمي قومه الذين سيعيش معهم ويعاشرهم، فيقول:

وَلي دونَكُم أَهلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ❖ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

"السيد": الذئب، و"عملس": سريع، و"الأرقط": الذي فيه سواد وبياض، و"ذهلول" أي: خفيف، و"عرفاء": الضبع الطويلة العرف، و"جيأل" من أسمائها؛ فهو يقول لقومه: إن لي غيركم أهلًا هم هؤلاء: الذئب، والضبع، يقول:

هُمُ الأَهلُ لا مُستَودَعُ السِرِّ ذائِعٌ ❖ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ

يفضلهم على قومه بهذا: أن مستودع السر عندهم لا يذيع، وأن الجاني عندهم لا يُخذل بسبب جريرته.

ثم يقول:

وكلٌّ أبيٌّ باسلٌ غير أنني ❖ إذا عرضت أولى الطرائدِ أبسل

وهنا يُفضل الشنفرى نفسه في الشجاعة على من ذكر من الذئب والضبع، فذكر أن كلًّا منهما باسل لكنه أبسل منهما.

وَإِن مُدَّتِ الأَيدي إِلى الزادِ لَم أَكُنْ ❖ بِأَعجَلِهِم إِذ أَجشَعُ القَومِ أَعجَلُ

يقول: إنه عفيفٌ يستطيع أن يتحكم في نفسه، وإن مُدت الأيدي إلى الزاد لا يكون عجولًا؛ لأن أجشع القوم هو أعجلهم.

وَما ذاكَ إِلاّ بَسطَةٌ عَن تَفَضُّلٍ ❖ عَلَيهِم وَكانَ الأَفضَلَ المُتَفَضِّلُ

وَإِنّي كَفاني فَقدُ مَن لَيسَ جازِيًا ❖ بِحُسنى وَلا في قُربِهِ مُتَعَلَّلُ

ثَلاثَةُ أَصحابٍ فُؤادٌ مُشَيَّعٌ ❖ وَأَبيَضُ إِصليتٌ وَصَفراءُ عَيطَلُ

يقول: إنه يغنيه عن الذين يتركهم أولئك الذين لا يجازون بالحسنى حسنى، ولا يكون في قربهم فائدة، استعاض عنهم بثلاثة أصحاب هم: قلبه الجريء القوي، وسيفه المجرد من غمده، وقوسه الطويلة.

ثم أخذ في وصف القوس خاصة، فقال:

هَتوفٌ مِنَ المُلسِ المُتونِ يَزينُها ❖ رَصائِعُ قَد نيطَت إِلَيها وَمِحمَلُ

"الهتوف": المصوتة، و"المُلس": التي لا عُقد فيها، و"الرصائع": سيور تزين بها القوس، و"نيطت" أي: علقت. و"المحمل": ما تحمل به.

إِذا زَلَّ عَنها السَهمُ حَنَّت كَأَنَّها ❖ مُرَزَّأَةٌ عَجلى تُرِنُّ وَتُعوِلُ

هذا في وصف القوس، يقول: إذا خرج منها السهم؛ سمعت لها صوتًا وحنينًا يُشبه صوت المرأة الكثيرة المصائب، التي تعول من الحزن.

ثم ينفي الشنفرى عن نفسه صفاتٍ سيئة؛ مفتخرًا بأنه بريء من هذه الصفات التي تنقص من شأن الرجال، فيقول:

وَلَستُ بِمِهيافٍ يُعَشّي سَوامَهُ ❖ مُجَدَّعَةً سُقبانُها وَهيَ بُهَّلُ

"المهياف": الذي يبعد بإبله لطلب المرعى على غير علم؛ فيعطشها. و"الثقبان": الصغار من الإبل، و"المجدعة": السيئة الغذاء؛ يصف نفسه بأنه لا يُعذب إبله بالإبعاد بها في المرعى؛ لأنه غير خبير.

وَلا جُبأ أكهى مُربٌّ بعِرسهِ ❖ يُطالِعُها في شَأنِهِ كَيفَ يَفعَلُ

الجُبَّأ: الجبان، والأكهى: الكدر الأخلاق، والأكهى: أيضًا البليد، والمرب: المقيم، يقول: إنه ليس كذلك ليس جبانًا، وليس كدر الأخلاق، وليس بليدًا، ولا يُقيم بجانب امرأته يستشيرها في ما يفعل.

وَلا خَرِقٍ هَيِّقٍ كَأَنَّ فُؤادَهُ ❖ يَظَلُّ بِهِ المُكّاءُ يَعلو وَيَسفِلُ

ينفي عن نفسه أن يكون كذلك؛ الخرق: الأحمق، والهيق: الجبان، ويصف هذا الهيق بأن فؤاده يعلو ويسفل في صدره من الخوف.

وَلا خالِفٍ دارِيَّةٍ مُتَغَزِّلٍ ❖ يَروحُ وَيَغدو داهِنًا يَتَكَحَّلُ

"الخالف": المتخلف والفاسد، و"الدارية": الذي لا يفارق البيوت، و"متغزل": الذي يغازل النساء، وكل هذه من الصفات التي ينفيها عن نفسه؛ لأنها لا تليق بمثله من الرجال الكرام.

وَلستُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دونَ خَيرِهِ ❖ أَلَفَّ إِذا ما رُعتَهُ اهتاجَ أَعزَلُ

"العل": الذي لا خير عنده، والصغير الجسم يشبه القراد، وكلمة "ألف"، معناها: عاجز لا يقوم بحرب، ولا يكرم ضيفًا، والأعزل: الذي لا سلاح معه؛ فهو ينفي عن نفسه أن يكون كذلك.

وَلستُ بِمِحيارِ الظَّلامِ إِذا انتَحَت ❖ هدى الهَوجَلِ العِسّيفِ يَهماءُ هَوجَلُ

المحيار: من الحيرة، وانتحت، أي: قصدت واعترضت، والهوجل: البليد، والعسيف: الماشي على غير هدى، و"يهماء" أي: لا علم بها، و"الهوجل":

الشديد المسلك، ينفي عن نفسه أن يكون متحيرًا في الصحراء إذا تحير غيره. ثم يقول الشنفرى -مثبتًا لنفسه صفات النُّبل:

أديمُ مِطالَ الجوعِ حَتّى أُميتَهُ ❖ وَأَضرِبُ عَنهُ الذِكرَ صَفحًا فَأَذهَلُ

"أديم" تقديره: أنا أديم؛ فهي جملة في موضع الخبر والمبتدأ محذوف. و"أديم مطال الجوع" أي: أصبر عليه حتى أميته وأذهل عنه ولا أفكر فيه.

وَأَستَفُّ تُربَ الأَرضِ كَي لا يَرى لَهُ ❖ عَلَيَّ مِنَ الطَولِ امرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

يقول: إنه لا يسمح لأحد أن يتفضل عليه بطعام، وأنه يفضل أن يستف التراب على أن يتفضل عليه أحد.

ثم يقول:

وَلَولا اجتِنابُ الذَأمِ لَم يُلفَ ❖ مَشرَبٌ يُعاشُ بِهِ إِلّا لَدَيَّ وَمَأكَلُ

يقول: لولا أنه يتجنب الذم واللوم لاستطاع أن يكون عنده كل مشرب يلتذه الناس، وأن يكون عنده كل مأكل يحرص عليه الناس... يستطيع أن يكون غنيًّا؛ لكنه لا يريد أن يكسب الغنى إلا عن طريق شريفة، لا يكون مذمومًا بسببها.

وَلَكِنَّ نَفسًا مُرَّةً لا تُقيمُ بي ❖ عَلى الذَأمِ إِلّا رَيثَما أَتَحَوَّلُ

هذا استدراك معناه: زيادة صفة على الصفات المتقدمة؛ فنفسه العفيفة التي لا تقيم به على الذام -أي: على الملام والذم- تحول بينه وبين الحال التي يمكن أن يذم بسببها:

وَأَطوي عَلى الخُمصِ الحَوايا ❖ كَما انطَوَت خُيوطَةُ مارِيٍّ تُغارُ وَتُفتَلُ

"الخمص": الجوع، و"الحوايا": ما يحوى في البطن. و"الخيوطة": الخيط، و"الماري": الفاتل، و"تغار" أي: تُفتل وتُحكم.

وَأَغدو عَلى القوتِ الزَهيدِ كَما غَدا ❖ أَزَلُّ تَهاداهُ التَنائِفُ أَطحَلُ

"الزهيد": القليل، و"الأذل": صفة من صفات الذئب. و"التنائف": واحدتها تنوفة، وهي الأرض أو الصحاري والبيداء، و"الأطحل": الذي في لونه كدرة. يقول: إنه يغدو -أي: يصبح- مكتفيًا بالقوت الزهيد.

ثم يصف الذئب الذي شبه به نفسه في قوله: "كَما غَدَا أَزَلُّ..."؛ يصف هذا الذئب وحياته مع رفاقه من الذئاب، فيقول:

غَدا طاوِيًا يُعارِضُ الريحَ هافِيًا ❖ يَخوتُ بِأذنابِ الشِعابِ ويَعسَلُ

الطاوي: الجائع، وهافيًا، أي: يذهب يمينًا وشمالًا من شدة الجوع، و"يخوت" أي: يخطف، و"الشعاب": مسايل صغار، وأذنابها: أواخرها، ويعسل أي: يمر مرًّا سهلًا سريعًا.

فَلَمّا لَواهُ القوتُ مِن حَيثُ أَمَّهُ ❖ دَعا فَأَجابَتهُ نَظائِرُ نُحَّلُ

الضمير راجع إلى هذا الذئب الذي ذكره قبل، لواه أي: دفعه، وأمَّه أي: قصده، ونُحل: ضوامر، "أجابته نظائر": أجابته ذئاب مماثلة له.

ثم يصف هذه الذئاب التي وصفها في البيت السابق بأنها نحل، فيقول:

مُهَلهَلَةٌ شِيبُ الوُجوهِ كَأَنَّها ❖ قِداحٌ بِكَفَّي ياسِرٍ تَتَقَلقَلُ

"مهلهلة" أي: رقيقة اللحم، و"الياسر": الذي يضرب بالقداح.

مُهَرَّتَةٌ فوهٌ كَأَنَّ شُدوقَها ❖ شُقوقُ العِصِيِّ كَالِحاتٌ وبُسلُ

"مهرتة فوه" أي: مشقوقة الفم، و"البسل": الكريهة المرأى، و"الشجاع": باسل، و"مهرتة": نعت لنظائر، أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هي، و"كالحات" و"بسل": نعتان لفوه، وفوه: معناها واسعة الأفواه.

ثم يقول الشنفرى -عن هذا الذئب ورفاقه:

فَضَجَّ وَضَجَّت بالبَراح كَأنَّها ❖ وَإيّاه نوحٌ فَوقَ عَلياءَ ثُكَّلُ

"البراح": الأرض الواسعة، و"العلياء": البقعة، والفاعل في "ضج": ضمير مستتر يعود على "الأزل"، بمعنى الذئب الذي ذكر في بيت سابق، والضمير في "ضجت" للذئاب النظائر النُّحل التي جاءت لهذا الذئب، كأنها: كأن هذه الذئاب، وإياه: وهذا الذئب؛ كأنهم نساء ثكل ينحن، شبه صوت الذئاب بصوت نساء تنوح، وهذه الذئاب تضج من الجوع.

ثم يقول:

وَأغضى وَأغضَت وَاتَّسى وَاتَّسَت بِهِ ❖ مَراميلُ عَزّاها وَعَزَّتهُ مُرمِلُ

"المراميل": الذين لا أقوات لهم، وأغضى وأغضت مثل: ضج وضجت، واتسى -بالتشديد: افتعل من الأسوة، وهي الاقتداء.

شَكا وَشَكَت ثُمَّ ارعَوى بَعدُ وَارعَوَت ❖ وَلَلصَّبرُ إن لَم يَنفَعِ الشَكوُ أجمَلُ

شكا هو الجوع، أي: الذئب، ونظائره شكت أيضًا، ثم ارعوى وارعوت، وصبر وصبرت؛ لأن الصبر -كما يقول: "إن لم ينفع الشكو أجمل".

وَفاءَ وَفاءَت بادِراتٌ وَكُلُّها ❖ عَلى نَكَظٍ مِمّا يُكاتِمُ مُجمِلُ

"النكظ": شدة الجوع، و"بادرات" أي: مُستعجلات، وكلمة "كلها" مبتدأ، وخبرها قوله: مُجْمِل، "وفاء وفاءت بادرات": بادرات: حال، والفاعل في "فاء" للذئب، وفي "فاءت" للذئاب، وكلها على نقذ مما يكاتم مجمل: وكل من هذه الذئاب على الرغم مما يعانيه من الجوع متجمل ومتحمل وصابر... والشنفرى في هذه الأبيات يتحدث عن نفسه وعن رفاقه من الصعاليك أمثاله؛ فالذئاب معادل موضوعي للصعاليك.

ثم رجع بالحديث إلى نفسه، فقال:

وَتَشربُ أسآرِيَ القَطا الكُدرُ بَعدَما ❖ سَرَت قَرَبًا أحناؤُها تَتَصَلصَلُ

و"أحناؤها" أي: جوانبها، والضمير يعود إلى القطع، و"تتصلصل" أي: تصوت، يقول: إن هذه القطا ترد الماء بعد أن يرد هو؛ فإذا تسابقا إلى الماء سبقها.

هَمَمتُ وَهَمَّت وَابتَدَرنا وَأَسدَلَت ❖ وَشَمَّرَ مِنّي فارِطٌ مُتَمَهِّلُ

أسدلت أي: كفت عن العدو، أي: هذه الطيور -طيور القطا- كفت عن العدو؛ لأنها رأته يسبقها، وفارط القوم: المتقدم عليهم، و"همت" فعل ماض، والضمير فيه راجع إلى القطا، يعني: أنه وإياها قصدا الورد -أي: الشُّرب- فسبقها إليه.

فَوَلَّيتُ عَنها وَهيَ تَكبو لِعَقرِهِ ❖ يُباشِرُهُ مِنها ذُقونٌ وَحَوصَلُ

يقول: إنه غادر القطا وهي تتساقط إلى الماء لتشرب.

ثم يقول الشنفرى:

فَإِن تَبتَئِس بِالشَنفَرى أُمُّ قَسطَلٍ ❖ لَما اِغتَبَطَت بِالشَنفَرى قَبلُ أَطوَلُ

"تبتئس" أي: تلقى بؤسًا من فراقه، و"القسطل": الغبار، و"أم القسطل" المراد: الحرب، وقوله: "لما اغتبطت": جواب قسم محذوف، يقول: إن تبتئس الحرب لفراقي إياها وقتًا؛ فقد اغتبطت كثيرًا بي قبل ذلك.

ثم يخبر عن نفسه فيقول:

طَريدُ جِناياتٍ تَياسَرنَ لَحمَهُ ❖ عَقيرَتُهُ لِأَيِّها حُمَّ أَوَّلُ

"تياسرن" أي: اقتسمن لحمه، و"عقيرته": نفسه، و"طريد الجنايات": يعني نفسه بذلك.

تَنامُ إِذا ما نامَ يَقظى عُيونُها ❖ حِثاثًا إِلى مَكروهِهِ تَتَغَلغَلُ

"تنام" الفاعل فيه يعود إلى الجنايات، و"حثاثًا" أي: سراعًا، يقول: إذا قصر الطالبون عني بالأوتار؛ لم تقصر الجنايات؛ فجناياته تطلبه.

وَإِلفُ هُمومٍ ما تَزالُ تَعودُهُ ❖ عِيادًا كَحُمّى الرِبعِ أَو هِيَ أَثقَلُ

يقول: إنه إلف أو آلف للهموم، متعود عليها، تعوده وتزوره كحمى الربع -نوع من الحمى- أو هي -هذه الهموم- أثقل من هذه الحمى.

يقول:

إِذا وَرَدَت أَصدَرتُها ثُمَّ إِنَّها ❖ تَثوبُ فَتَأتي مِن تُحَيتٍ وَمِن عَلُ

يقول -عن الهموم: إنها إذا وردت عليه أذهبها، ثم إنها ترجع إليه بعد ذلك من تحت ومن فوق.

ثم يقول الشنفرى:

فَإِمّا تَرَيني كَابِنَةِ الرَملِ ضاحِيًا ❖ عَلى رِقَّةٍ أَحفى وَلا أَتَنَعَّلُ

فَإِنّي لَمَولى الصَبرِ أَجتابُ بَزَّهُ ❖ عَلى مِثلِ قَلبِ السِمعِ وَالحَزمَ أَفعَلُ

"ابنة الرمل": البقرة الوحشية، و"ضاحيًا" أي: بارزًا للبرد والحر، و"الرقة": يريد رقة الحال، و"أحفى" أي: أسير بلا نعلين. وقوله: "لا أتنعل": وصف مؤكد. وقوله: "إني لمولى الصبر": المولى: هو الولي، أي: صاحب الصبر، وأجتاب: أقطع، والسمع: ولد الذئب من الضبع، وأجتاب: من جبت القميص: إذا قطعته لتلبسه، أي: ألبس الصبر شديد النفس، و"الحزم أفعل"، أي: أفعل الحزم.

وَأُعدِمُ أَحيانًا وَأَغنى وَإِنَّما ❖ يَنالُ الغِنى ذو البُعدَةِ المُتَبَذِّلُ

فَلا جَزِعٌ مِن خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ ❖ وَلا مَرِحٌ تَحتَ الغِنى أَتَخَيَّلُ

يقول: إنه يجرب الفقر أحيانًا، ويأتيه الغنى أحيانًا، ولا ينال الغنى إلا ذو الهمة البعيدة، ويثني على نفسه بأنه لا يجزع عند الفقر، ولا يختال ولا يتبطر عند الغنى.

وَلا تَزدَهي الأَجهالُ حِلمي وَلا أُرى ❖ سئولًا بِأعقابِ الأَقاويلِ أُنمِلُ

"الأجهال": جمع جهل، وأنمل أي: أنم، يترفع بنفسه عن أن يكون خفيفًا يستخفه الأجهال، أو أن يكون سئولًا وأن يكون نمامًا.

ثم يصف الشنفرى مغامرة له في ليلة شاتية قاسية البرد، وصفها بقوله:

وَلَيلَةِ نَحسٍ يَصطَلي القَوسَ رَبُّها ❖ وَأَقطُعَهُ اللائي بِها يَتَنَبَّلُ

يقول: إنها ليلة باردة صاحب القوس؛ أشعل فيها النار ليتدفأ عليها؛ لكنه يخبر عن نفسه في هذه الليلة، فيقول:

دَعَستُ عَلى غَطشٍ وَبَغشٍ وَصُحبَتي ❖ سُعارٌ وَإِرزيزٌ وَوَجرٌ وَأَفكُلُ

"الإرزيز" أي: الثبوت، والوجر: الخوف، والأفكل: الرعدة.

ثم يصف فعله في هذه المؤامرة، فيقول:

فَأَيَّمتُ نِسوانًا وَأَيتَمتُ إِلدَةً ❖ وَعُدتُ كَما أَبدَأتُ وَاللَيلُ أَليَلُ

ويستمر الشنفرى إلى آخر هذه القصيدة العجيبة يصف حياته وحياة إخوانه من الصعاليك وصفًا دقيقًا مؤثرًا، ويثبت له ولهم شجاعة وإقدامًا ونبلًا منقطع النظير.

بهذا نكون قد انتهينا من النصوص الجاهلية التي تساعدك على تصور الحياة العربية في العصر الجاهلي بكل جوانبها واتجاهاتها وعادات الناس فيها وأخلاقهم، السيئ منها والحسن.

النثر الجاهلي: أنواعه وموضوعاته

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الخطابة في الجاهلية	٢٢٧
العنصر الثاني :	الوصايا، والأمثال، وسجع الكهان	٢٣١

الخطابة في الجاهلية

النثر:

والنثر هو قسيم الشعر، والقسم الثاني من قسمي الأدب.

النثر: هو الكلام البليغ المؤثر، الذي يُعبِّر به المتكلم عن مواقفه وعواطفه بأسلوب متميزٍ، لكنه لا يتقيد فيه بالوزن والقافية، لا يتقيد بنظامٍ موسيقيٍّ معين كما هو الحال في الشعر.

المصادر التي نأخذ منها مادة النثر الجاهلي:

إن النثر الجاهلي لم يحظَ بالعناية التي حظي بها الشعر، ولم تكن الرواية في النثر دقيقة متصلة موثقة كما كان الشأن بالنسبة للشعر، ويبدو أن ذلك راجعٌ إلى أن النثر أصعب في حفظه من الشعر، ولأن العرب كانوا يعتمدون على الذاكرة والرواية فإنهم استطاعوا أن يحتفظوا بكثير من نصوص الشعر سهّل عليهم ذلك الوزن والقافية، ولم يستطيعوا أن يحتفظوا بقدر مماثل من النثر.

لكن هناك طائفة جيدة من خطب العرب وأمثالهم وصلت إلى الرواة وعلماء اللغة والأدب ودوّنوها، وهي تحمل روح العصر الجاهلي، وتدل بوضوح على طرائق النثر الجاهلي وفنونه وموضوعاته.

وقد بدأ تدوين النثر الجاهلي في عهد معاوية بن أبي سفيان < ؛ إذ ألَّف عبيد بن شرية كتابًا في الأمثال، وبعد ذلك وَضَعَ المفضل الضبي كتابًا في أمثال العرب كذلك، ثم بعد ذلك ألَّف أبو عبيد القاسم بن سلام كتابًا شرحه من بعده أبو

عبيد البكري باسم (فصل المقال في شرح كتاب الأمثال)، وما زالت المؤلفات تتوالى في الأمثال حتى ألَّف أبو هلال العسكري كتابه (جمهرة الأمثال)، ثم ألّف الميداني كتابه (مجمع الأمثال)، وقال في مقدمته: إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتابًا.

واحتفظت كتب الأدب العامة وكتب الأمالي بطائفة كبيرة من خطب العرب الجاهليين وحِكمهم ووصاياهم؛ فإننا نجد -في (البيان والتبيين) و(العقد الفريد) و(الكامل) وغير هذه الكتب- طائفة جيدة من خطب العرب وأمثالهم وحِكمهم ووصاياهم.

والنثر الجاهلي وردنا في عدة فنون هي: الخطابة والوصايا والأمثال وسجع الكهان والقصص.

الخطابة:

كانت الخطابة فنًّا مزدهرًا جدًّا في العصر الجاهلي، وكان ازدهار الخطابة عند الجاهليين راجعًا إلى عدة عوامل؛ منها الخصومات والمنازعات المستمرة والنداء بالحرب مرة والدعوة إلى السلم مرة، وفي كل هذه المواقف كانوا يستخدمون الخطب للتأثير والإقناع والوصول إلى ما يريدون، ومن هذه العوامل أيضًا المجالس والمنتديات الأدبية، فقد كانت هذه المجالس والمنتديات ميادين يُظهر فيها الخطباء براعتهم وبلاغتهم ومقدرتهم على الكلام، وكان من هذه العوامل أيضًا التفاخر والتنافر، وكانت الخطابة وسيلة من الوسائل التي يتفاخرون بها ويتنافرون.

ولقد احتفظت كتب الأدب بأسماء كثيرين من الخطباء الذين كانت لهم منزلة معروفة في قومهم بسبب قدرتهم على الخطابة وتفوقهم فيها، واستخدمت

الخطابة في تحميس الجيوش وتشجيع الجند وحثهم على الاستبسال، واستخدمت كذلك في محافل استقبال الوفود وفي مناسبات الزواج، واستخدمت في الدعوة إلى السلم، ونبذ العداوة والإصلاح بين القبائل المتحاربة لتضع الحرب أوزارها، واستخدمت أيضًا في النصح والإرشاد والتوصية بما يراه الخطيب صالحًا لمن يخطب فيها.

ومن خطبائهم المشهورين الذين احتفظت لنا المراجع بأسمائهم: كعب بن لؤي الجد السابع للنبي ﷺ ويذكرون أنه كان يخطب على العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البِّر، وأنه لم مات أكبروا موته وأرخوا به إلى عام الفيل، ومن خطبائهم المشهورين كذلك قيس بن خارجة خطيب حرب داحس والغبراء، ومنهم خويلد بن عمر الغطفاني خطيب حرب الفجار، وقس بن ساعدة خطيب عكاظ، وأكثم بن صيفي حكيم العرب وقاضيها. وفي (البيان والتبيين) أسماء غير هذه كثيرة.

وكانوا يعدون الخطابة زعامة وصفة تُكسب صاحبها المجد والسيادة، وكانت لهم تقاليد؛ إذ كان الخطيب يخطب على راحلته أو على مكان مرتفع. وقد اعتجرت عمامته على رأسه، وأمسك بعصاه أو قوسه في يده، وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وانطلاق اللسان، ويعيبون عليه التنحنح والارتعاش والتعثر في الكلام.

وجاءت أكثر خطبهم موشّاة بالسجع والجناس، وبعضها يخرج إلى النثر المرسل دون التزام بشيء من ذلك، لكنهم على أي حال كانوا يعنون بفصاحة الكلمة وتجويد الأسلوب ووضوح البرهان ونصاعة الحجة؛ لأنهم يريدون من خطبهم التأثير في العقل والوجدان معًا.

ومن خطب الجاهليين التي احتفظت بها كتب الأدب: خطبة هاشم بن عبد مناف في الإصلاح بين القرشيين والخزاعيين، خطب فيهم فقال: "أيها الناس، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد، ولكلٍّ في كلٍّ حلفٌ يجب عليه نصرته وإجابة دعوته، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم، يا بني قصي، أنتم كغصني شجرة أيهما كُسر أوحش صاحبه، والسيف لا يُصان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أغضبه اللجاج أخرجه إلى البغي. أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهر عبر، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول يتجنبكم السفهاء، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم، وحاموا عن الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق؛ فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة؛ فإنها تضيع الشرف وتهدم المجد، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظةٌ لمن انتفع به".

ومن خطبهم كذلك: خطبة أبي طالب في زواج محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بخديجة بنت خويلد، وكان ذلك قبل بعثته ﷺ قال أبو طالب: "الحمد الله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل، وجعل لنا بلدًا حرامًا وبيتًا محجوجًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمدًا بن عبد الله ابن أخي مَن لا يوزن به فتى إلا من قريش إلا رجح عليه برًّا وفضلًا وكرمًا وعقلًا ومجدًا ونبلًا، وإن كان في المال قلب فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصداق فعليّ".

ومن خطبهم كذلك: خطبة قس بن ساعدة في سوق عكاظ والتي قال فيها: "أيها الناس، اسمعوا وعوا، مَن عاش مات ومَن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت، ليل داجٍ، ونهار ساجٍ، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة، إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تُركوا فناموا؟!".

الوصايا والأمثال وسجع الكهان

ومن وصاياهم: وصية أكثم بن صيفي التميمي لقومه وبنيه، والتي يقول فيها: "يا بني تميم، لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي، إن بين حيزومي وصدري لكلامًا لا أجد له مواقع إلا أسماعكم، ثم قال: الهوى يقظان، والعقل راكد، والشهوات مطلقة، والحزم معقول، ولن يعدم المشاور مرشدًا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمّع سُمع به، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، ومن سلك الجدد أمِن العثار، يا بني تميم، الصبر على زرع الحلم أعذب من جني ثمر الندامة، ومن جعل عِرضه دون ماله استُهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان، والكلمة مرهونة ما لم تنجم من الفم، فإذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب".

ومن وصاياهم: وصية امرأة عوف بن محلم الشيباني أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس، وكان عمرو بن حج ملك كندة -جد امرئ القيس الشاعر- قد خطبها إلى أبيها، فلما كان يوم البناء بها -أي: يوم الزواج- أوصتها أمها وصية لم تدعْ شيئًا من تأديب المرأة إلا ذكرته لها؛ قالت:

"أي بنية، إن الوصية لو تُركت لفضل تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلقن ولهن خُلق الرجال، أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجتِ وعُشّك الذي فيه درجتِ إلى وكرٍ لم تعرفيه وقرين لم تألفيه، فكوني له أمَة يكن لك عبدًا، واحفظي له خصالًا عشرًا يكن لك ذخرًا:

أما الأولى والثانية: فالصحبة بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة: فالتفقُّد لموضع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشمّ منك إلا أطيب ريح، وأما الخامسة والسادسة: فالتفقُّد لوقت منامه وطعامه، فإن حرارة الجوع مَلهبة وتنغيص النوم مَغضبة، وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حُسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير، وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمرًا ولا تُفشين له سرًّا؛ فإنك إن عصيتي أمره أوغلتي صدره، وإن أفشيتي سرّه لم تأمني غدره، ثم إياكِ والفرح بين يديه إذا كان مهتمًّا، والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا، واعلمي أنك لا تَصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يخير لكِ". هذه نماذج من خطبهم.

ومن صور النثر الجاهلي: المنافرة:

وهي: التحاكم إلى شريف من الأشراف من حكمائهم الموثوق بهم في نزاع حول الشرف والمكانة والسيادة بين اثنين ليفصل بينهما، ويقضي لأيهما بالسيادة والشرف وعلو المكانة على صاحبه، وكانت الحمية الجاهلية وحب السيادة عندهم من الدوافع إلى هذه المنافرة.

ومن المنافرة ما وقع بين علقمة بن علاثة وعامر بين الطفيل العامريين ؛ فقد ذكروا أنهما تنازعوا الرياسة والشرف والزعامة، وتفاقم بينهما الأمر واستشار بينهما الشر، حتى قال عامر لصاحبه: والله إني لأكرم منك حسبًا، وأثبت منك نسبًا، وأطول منك قصبًا -والمراد بالقصب هنا المجد والمنبت الأصيل- فقال علقمة: أنا خير منك أثرًا، وأعزّ منك نفرًا، وأشرف منك ذكرًا، فقال عامر: أنافرك وإني والله لأركب منك في الحماة وأقتل منك للكماة وخير منك للمولى والمولاة، فقال علقمة: أنافرك وإني والله لبرّ وإنك لفاجر، وإني لولود وإنك لعاطر، وإني لوفي وأنك لغادر، ففيما تفاخرني يا عامر؟! فقال عامر: أنافرك وأنا أنشر منك أمة، وأطول منك قمّة، وأحسن منك لمة، وأبعد منك همة، وطال بينهما الكلام وتواعدا على الخروج إلى من يحكم بينهما، وكان مع علقمة بنو خالد ومع عامرًا بنو مالك، وجعلا يطوفان أحياء العرب والناس يأبون الحكم بينهما خوفًا من وقوع الشرّ بين الحيين.

إلى أن وصلا إلى رجل يسمى هَرِم بن قطبة الفزاري، فقال لعامر: لأحكمن بينكما ثم لأفصلن فأعطياني موثقًا أطمئن إليه أن ترضيا بما أقول وتُسلما بما قضيت، وأمر بنيه أن يفرقوا جماعة الناس خوفًا من الفتنة، ثم جعل يرجئهما ويمهلهما أسبوعًا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه فشرع يخوّف كل واحدًا منهما من صاحبه إذ استدعى كل منهما بمفرده سرًّا من غير أن يعرف الآخر، فقال لعامر: قد كنت أرى لك رأيًا وإن فيك خيرًا، وما حسبتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك، أتنافر رجل لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه؟! فما الذي أنت به خير منه، وكذلك فعل مع علقمة، حتى أصبح كل واحد منهما لا همّ له إلا أن يسوي الرجل بينه وبين صاحبه، ثم دعاهما بعد ذلك والناس مجتمعون فقال: قد تحاكمتما إليّ وأنتما عندي كركبتي البعير الأجرم -المكتنز الذي دار

لحمه عظمه- تقعان إلى الأرض معًا وتقومان معًا، وليس فيكما أحد إلا وفيه ما ليس في صاحبه، فرضيا بحكمه وانصرف كل واحدًا منهما إلى قومه، واستطاع هَرِم بحكمته وكياسته أن يرضي كل منهما ولم يفضل أحدًا منهما على صاحبه.

وقد امتدت الحياة بهرم إلى أيام عمر بن الخطاب > فسأله عمر: أيهما كنت منفرًا؟ أي: كنت مفضلًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لو قلتها الآن لعادت جذعة يعني الحرب أو الفتنة، فقال له عمر: إنك لأهل لموضعك من الرياسة؛ يريد الإشادة بحكمته.

أما الحكمة: فهي قول موجز، يتضمن حُكمًا مسلمًا ناتجًا عن تجربة وخبرة حاثًّا على الفضائل، كافًّا على الرذائل، وهي تدل على فصاحتهم العالية وبلاغتهم المتينة، فإنهم يصوغون المعاني الكبرى في ألفاظ وجيزة.

من ذلك قولهم: "رُب أخ لك لم تلده أمك"، وقولهم: "آخر الدواء الكي"، وقولهم: "آفة الرأي الهوى"، "ليس من العدل سرعة العزل"، "ليس بيسير تقويم العسير"، "مقتل الرجل بين فكّيه"، "إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد"، "لو أنصف المظلوم لم يبقَ فينا ملوم"، "حافظ على الصديق ولو في الحريق"، "لا جماعة لمن اختلف"، "أسرع العقوبات عقوبة البغي"، "خير الأعوان من لم يراءِ بالنصيحة"، "شرّ الملوك مَن خافه البريء".

وكما أن الحكمة تدل على بلاغتهم العالية فإن الأمثال كذلك.

والأمثال: جمع مثل، وهو عبارة وجيزة قصيرة، تتضمن معنًى معينًا.

والمثل له مورد وله مضرب، فمورده الحادثة التي ارتبطت به أول ما قيل، ومضربه الحوادث المشابهة للحادثة للتي قيل فيها، وكثيرٌ من الأمثال بقي ونُسي مورده، وبعضها ظل مذكورًا ومورده كذلك مذكور.

ومن أمثال العرب التي وردتنا قولهم: "تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها"؛ يضرب في صيانة المرء الكريم لنفسه عن المكاسب الخسيسة. وقولهم: "المقدرة تُذهب الحفيظة"، "مقتل الرجل بين فكيه"، "إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه"، "من استرعى الذئب ظلم"، "في الجريرة تشترك العشيرة"، "وقد يأتيك بالأخبار ما لم تزوِّد"، "كذي العري يكوى غيره وهو راتع"، "كالمستجير من الرمضاء بالنار"، "يخبط خبط عشواء"، "المنية ولا الدنية"، "تحت الرغوة اللبن الصريح"، "هدنة على دخن"، "رمتني بدائها وانسلّت".

ومن أمثالهم أيضًا: "حبك الشيء يُعمي ويصم"؛ يضرب للتغاضي عن المساوئ فيما يحبه الإنسان أو فيمن يحبه، وقولهم: "يداك أوكتا وفوك نفخ"، يُضرب لمن يقع في شر أعماله.

ومن أمثالهم أيضًا: "جزاء سنمار"، وهذا مثل مورده مذكور، ذكروا أن رجلًا روميًّا بنى للنعمان بن امرئ القيس اللخمي قصر الخورنق بالكوفة، فلما أتمّه قال سنمار: إني أعرف حجرًا لو زال لانهدم هذا القصر، فقال له النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ قال: لا، فقال: لا جرم لأدعنه وما يعرفه أحد، ثم أمر به فرمي من أعلى القصر فخرّ ميتًا، فضرب العرب به المثل لمن يُجزى بالإحسان إساءة.

وبعض الأمثال يأخذ صورة فرضية؛ وذلك كالأمثال التي رُويت على لسان بعض الطير أو بعض الحيوان، فقد زعموا أن أرنبًا التقطت ثمرة فاختلسها منها الثعلب، فانطلقت به إلى الضبّ تشكوه فنادته الأرنب -أي: نادت الضب- فقال: سميعًا دعوتي، قالت: أتيناك لنحتكم إليك، قال: عادلًا حكّمتما، قالت: فاخرج إلينا، قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت: إني وجدت ثمرة، قال: حلوة فكليها، قالت: فاختلسها الثعلب فأكلها، قال: لنفسه بغى الخير، قالت:

فلطمته لطمة قال: بحقك أخذتي، قالت: فلطمني أخرى، قال: حرّ انتصر، قالت: فاقضِ بيننا، قال: قضيت، فذهبت أقواله كلها أمثالًا.

وواضح من هذا أن الحادثة التي ورد فيها المثل يمكن أن تكون حقيقية ويمكن أن تكون متخيلة.

ومن صور النثر الجاهلي: "سجع الكهان":

والكهان: طائفة من الناس رجالًا أو نساءً، كانوا يزعمون أنهم يعرفون بعض الغيب، وكانوا الناس يذهبون إليهم فيما أشكل عليهم من أمورهم يستشيرونهم فيها.

وكان من الكهان من يزعم أن له تابعًا من الجن يسترق له السمع ويلقيه إليه ليخبر به الناس، ومنهم من كان يعتمد فيما يقول به على مقدمات تظهر له تشبه الفِرَاسة وحسن التوقع، وعلى أي حال فإن لهم أسلوبًا عرفوا به، يتسم بعدم وضوح الدلالة وبكثرة الاختلاف والتأويل عندما يراد تفسير كلامه، كما يتسم أسلوبهم في سجعهم بكثرة اليمين والحلف بالظواهر الطبيعية المختلفة.

والأخبار التي تحيط بالكهان والكهانة تحمل ما يمكن استغرابه أو التعجب منه، فمن كهانهم رجل يسمى سطيح بن ربيعة الذئبي، يقولون: إنه كان يدرج كما يدرج الثوب، فلم يكن فيه عظم إلا الجمجمة، وأن وجهه كان في صدره ومنهم شق بن الصعب، ويقولون: إنه كان شطر إنسان، ومن كهانهم -بل يقال: إنه أكهنهم- رجل يسمى عزى بن أبي حية، ومن كلامه الذي ينسب إليه: والأرض والسماء والعقاب والصقعاء واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشراء، للمجد والسناء.

ومن أخبار الكهانة والكهان: ما روي في قضية هند بنت عتبة؛ فقد قالوا: إنها كانت في الجاهلية زوجًا للفاكه بن المغيرة المخزومي، وكانت داره مثابة يغشاها الناس، فاطلع عليها زوجها يومًا وهي نائمة وقد خرج من عندها رجل فاتهمها

به واستلحقها بأبيها، وفشا الخبر عنها، فخرج بها أبوها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها، وأخرج معها نسوة من قومها، وأقبلوا جميعًا ومعهم زوجها في جماعة من قومه على الكاهن، فلما شارفوا داره رأى عتبة من ابنته انكسارًا وتغيرًا، فقال لها: يا بنية، لا تكتميني من أمرك شيئًا، فإن كان ما بك -أي: ما ظهر عليك- لريبة نرجع ولا بأس عليك، فقالت هند -وكانت عاقلة: لا والله يا أبتِ، ما ذاك لريبة ولا فاحشة، ولكنكم تقدمون على بشر يُخطِئ ويصيب، وأخشى أن يسمني بسمة تبقى عليَّ وصمة عارٍ آخر الدهر، قال: سأبلوه لكي -أي: سأختبره لكي- ثم خبّأ خبيئًا وأقبلوا حتى أتوا الكاهن فسأله عما خبأ له فقال الكاهن: ثمرة في كمرة، فقال: أفصح، قال: حبة بُرٍّ في إحليل مهر، قال: صدقت، ثم استنظروه في أمر النسوة فجعل يتصفحهن واحدة واحدة حتى أقبل على هند، فقال: انهضي غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكًا يقال له معاوية.

هذا ما ورد عن سجع الكهان في العصر الجاهلي.

ولما نزل القرآن وتحيّر العرب في أمر بلاغته، وأخذوا يتخبطون وهم يحاولون عدم الانقياد له وعدم التسليم لحكمه ووصفوا القرآن مرة بأنه شعر، ومرة بأنه كهانة، ولقد نفى الله ﷻ كل ذلك عن القرآن، وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا.

ومن صور النثر الجاهلي: "القصص والأساطير":

وأكثر قصصهم تدور حول أيامهم وحروبهم وما سجله أبطالهم فيها من بطولات وانتصارات، وما لحق بعض القبائل فيها من هزائم وانكسارات، وقد ظلوا يروون هذه القصص ويتناقلونها حتى جاء عصر التدوين، فتضمنتها كتب الأدب والتاريخ، كما تدور بعض القصص حول المحبين والعشاق.

من ذلك مثلًا: قصة المرقش الأكبر الشاعر وصاحبته أسماء بنت عوف، يقولون: إنه عشقها وهو غلام وذهب لخطبتها من أبيها، لكن الأب اعتذر له بحداثة سنه،

وأنه لم يُعرف بعد بالشجاعة والإقدام والبطولة ؛ فانطلق المرقش إلى بعض الملوك يمدحه وبقي عنده زمنًا ، وفي هذه الأثناء أصاب عوفًا والد أسماء زمانٌ شديدٌ ، وأتاه رجل أرغبه في المال وطلب منه الزواج من ابنته على مائة من الإبل ، فزوّجه إياها ورحل بها الرجل إلى أهله ، وقال أخوة المرقش : لا تخبروه بخبرها حين يرجع ، بل قولوا له : إنها ماتت ؛ يخافون عليه من الحقيقة ، ولما عاد المرقش وسأل عن أسماء قال له إخوته : إنها ماتت ، وكانوا قد ذبحوا كبشًا وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه ، فلما سألهم عن قبرها أخذوه إلى المكان الذي فيه عظم هذا الكبش وقالوا : هذا قبرها.

ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يزور قبرَ هذا الكبش على أنه قبر محبوبته ، ثم خرج يطلب أسماء ويبحث عنها ، وبعد مغامرات تعرف على راعٍ يعمل عند زوجها فتوسّل إليه أن يخبره عنها ويحدّثه بخبرها ، فقال الراعي : إني لا أستطيع أن أدنو منها ولكن جاريتها تأتيني كل ليلة فأحلب لها عنزًا فتحمل لبنها إليها. فقال له المرقّش : خذ خاتمي هذا ، فإذا حلبت فألقه في اللبن ، فإنها ستعرفه وإنك مصيب بذلك خيرًا لم يصبه راعٍ قط إن أنت فعلت ذلك.

فأخذ الراعي الخاتم ، ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز- طرح الخاتم فيه فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء ، فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته وكذلك كانت تصنع ، فقرع الخاتم ثنيتها -بعض أسنانها- فأخذته واستضاءت بالنار فعرفته فقالت للجارية : ما هذا الخاتم؟ قالت : ما لي به علم ، فأرسلتها إلى مولاها أي زوجها ، فأقبل فزعًا فقال لها : لما دعوتني؟ قالت له : ادعُ عبدك راعي غنمك واسأله عن أمر هذا الخاتم ، فلما قصّ الراعي ما حدث عرفت أسماء أن الخاتم هو خاتم المرقّش ، فطلبت من زوجها أن يُسرع في طلبه ، فركب فرسه وحملها على فرسٍ آخر وسارا حتى وجداه ، فاحتملاه إلى أهلهما فمات عند أسماء.

ومن قصص الجاهليين ما ينحو نحوًا أسطوريًّا، ومعنى أسطوري: أن القصة لا ترجع إلى أحداث واقعية وإنما ترجع إلى شيء خرافي متخيل.

من ذلك ما زعموه أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما يرعيانها، فأجدبت بلادهما وكانا قريبين من وادٍ فيه حية قد حمته من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو إني أتيت هذا الوادي المكلئ -أي: الذي فيه عشب- فرعيت فيه إبلي وأصلحتها؟ فقال له أبوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدًا لم يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟! قال: فوالله لأهبطن، فهبط ذلك الوادي فرعى إبله به زمانًا، ثم إن الحية لدغته فقتلته، فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي، فهبط ذلك الوادي فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك؟! فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي فتكون به، وأعطيك ما بقيت دينارًا في كل يوم؟ قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم، قال: فإني أفعل، فحلف لها وأعطاها المواثيق ألا يضيرها وجعلت تعطيه كل يوم دينارًا، فكثر ماله ونمت إبله حتى كان من أحسن الناس حالًا، ثم إنه تذكر أخاه وتذكر ما كان قال من قبل، فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي، فعمد إلى فأس فأحدها ثم قعد وتربص بالحية، فمرت به فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت جحرها، فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها فأثّر فيه. فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأى ذلك منها خاف من شرّها وندم، فقال لها: هل لكِ في أن نتعاهد ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت: كيف أعاهدك وهذا أثر فأسك، وأنت فاجر لا تبالي بالعهد.

فكان حديث الحية والفأس مثلًا مشهورًا من أمثال العرب، وهذه قصة أسطورية كما ترى.

تابع النثر الجاهلي: تحليل ودراسة نصوص منه

عناصر الدرس

العنصر الأول	: خطبة هاشم بن عبد مناف	٢٤٣
العنصر الثاني	: وصية أمامة بنت الحارث	٢٥٢

خطبة هاشم بن عبد مناف

خطبة هاشم بن عبد مناف في الإصلاح بين القرشيين والخزاعيين بدأها بقوله:

"أيها الناس، نحن آل إبراهيم وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة وسكان الحرم":

وهو في هذا يرُد القوم إلى أصولهم، ويذكرهم بأنهم ينحدرون من أصول واحدة، فأبوهم إبراهيم، وهم أبناء إسماعيل، وهم أبناء النضر بن كنانة، وهم أبناء قصي بن كلاب، ثم يذكُر لهم أنهم أرباب مكة وسكان الحرم، وهو بهذا كأنه من البدء يبين لهم أنه لا يليق بهم أن يختلفوا.

"لنا ذروة الحسب والنسب"، والذروة: هي القمة وأعلى شيء؛ يخبرهم بأنهم من الحسب والنسب في أعلى مكان.

"لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن المجد": أي: أصله.

"ولكلٍّ في كلٍّ حلف يجب عليه نصرته وإجابة":

لكل من الفريقين عند صاحبه حق يجب رعايته وعهدٌ يجب الوفاء به، وكل فريق يجب عليه أن يجيب دعوة الآخر، وأن ينصره، ثم استثنى من ذلك بقوله:

"إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم":

فإذا كانت الدعوة إلى عقوق عشيرة -العشيرة هي الأقارب- أو إذا كانت الدعوة إلى قطع رحم، أو كان الفعل يؤدي إلى شيء من ذلك- فإنه لا إجابة ولا نصرة، وبهذا يبين الرجل أنه حريص على الحق وحريص على الرحم، فإذا كان بين

القوم ما يدعو إلى عقوق أو يدعو إلى قطيعة رحم أو يدعو إلى باطل- فإنه لا ينبغي على أحد أن يعين أحدًا في شيء من ذلك.

ثم قال: "يا بني قصي، أنتم كغصني شجرة، أيهما كُسر أوحش صاحبه":

نلاحظ في هذا النداء أنه يردّهم إلى الجد القريب؛ لم يقل: يا بني إبراهيم ولا يا بني إسماعيل، وإنما قال: يا بني قصي، فهذا جدّ أقرب، وذكرهم له في هذا المقام أسرع، وقوله: "أنتم كغصني شجرة" هذا تشبيه؛ يشبه الفريقين أو القبيلتين؛ لأنهما يرتدان إلى أصول واحدة يشبههما بغصني شجرة، وأغصان الشجرة ترتد إلى جذر واحد؛ "أيهما كُسر أوحش صاحبه": هذه الصورة قامت على التشبيه، وهي صورة صحيحة ومعبّرة، تبين أن القبيلتين أيهما حدث فيه مكروه فإن ذلك يؤثر على القبيلة الأخرى؛ لأنهما مثل غصني الشجرة، والغصنان من الشجرة إذا كسرا أحدهما فإن الغصن الآخر لا بد أنه تصيبه بذلك وحشه.

ثم قال: "والسيف لا يصان إلا بغمده":

أي: كل منكما سيف وصاحبه غمدٌ له؛ يريد أن كل منكما يجب عليه أن يحافظ على صاحبه كما يحافظ الغمد على السيف، والسيف لا يُصان إلا بغمده، وغمد السيف هو جرابه الذي يحفظ فيه ويوضع فيه.

"ورامي العشيرة يصيبه سهمه":

مَن يقذف عشيرته وأقاربه وقومه ويرميهم بسهم، فإن هذا السهم يرتد إليه ويصيبه. "ومَن أغضبه اللجاج أخرجه إلى البغي":

اللجاج: هو الجدال الكثير، والكلام الطويل، كلٌّ يخاصم أخاه ويريد أن يغلبه، فكثرة اللجاج وطول الجدل يمكن أن يسبب غضبًا، وهذا الغضب يؤدي إلى البغي، أي: الظلم.

ثم قال: "أيها الناس"، وفي هذا النداء تنبيه لهم.

"الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز":

نلاحظ أن هذه جمل قصيرة، تتكون كل منها من كلمتين اثنتين: مبتدأ وخبر "الحلم شرف"، والحلم: هو ضبط النفس عند الغضب، وكبح جماحها وعدم الاستجابة لما يثيرها. "والصبر ظفر": عطف قوله: "الصبر ظفر" على قوله: "الحلم شرف"، والصبر أيضًا مبتدأ، وظفر خبر، والصبر: هو حمل النفس على ما تكره، والظفر: هو الفوز، يقول لهم: الحلم ضبط النفس وعدم استجابتها لما يثيرها ويغضبها -هذا شرف وسيادة، والصبر ظفر-، مَن يتحكم في نفسه ويقدر على قيادتها وكبح جماحها هو الفائز الظافر، "والمعروف كنز": فعل الخير وبذل المعروف كنز يبقى لصاحبه، يُذكر به عند الله، ويُذكر به عند الناس، وفي قوله: "المعروف كنز" تشبيه يجعل المعنوي محسوسًا، فالكنز هو ما يكنزه الناس ويدخرونه من الأموال؛ لينتفعوا به في وقت الحاجة، فشبّه به المعروف وهو فعل الخير.

"والجود سؤدد":

الجود هو الكرم، والسؤدد السيادة، والجملة أيضًا مبتدأ وخبر.

"والجهل سفهٌ":

أيضًا؛ جملة من مبتدأ وخبر.

"والأيام دولٌ" :

الأيام دول : الأزمان متغيرة ؛ يومٌ لك ويوم عليك ، وهي أيضًا مبتدأ وخبر.

"والدهر عِبر" : أي : الزمن مملوء بالعبر ومملوء بالدروس ، والعاقل من يستفيد من هذه العبر وتلك الدروس.

"والمرءُ منسوب إلى فعله" :

كل واحد من الناس منسوبٌ إلى فعله ، عمله باقٍ يُذكر به ويُنسب إليه ، ويوضح هذه الجملة بقوله : "ومأخوذ بعمله".

"والمرء منسوبٌ إلى فعله ومأخوذٌ بعمله" :

ونلاحظ أن بين هاتين الجملتين وقع سجع ، فنهاية الجملة الأولى كلمة "فعله" تشبه نهاية الجملة الثانية "بعمله".

ثم يقول : "فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد" :

اصطنعوا : فعل وفاعل ، والمعروف : مفعول به. اصطنعوا : فعل أمر ، وتكسبوا : فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر ، تكسبوا : فعل وفاعل ، والحمد : مفعول به ، وكأن الجملة تجعل كسب الحمد والثناء مرتبطًا باصطناع المعروف ؛ من يريد مدحًا وحمدًا وثناءً عليه أن يعمل المعروف.

"ودعوا الفضول ؛ يتجنبكم السفهاء" :

أيضًا "دعوا" : فعل أمر ، وواو الجماعة فاعل ، والفضول : مفعول به ، ويتجنبكم السفهاء -أيضًا: فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر ، والسفهاء : فاعل ، وكأنه اشترط لتجنب السفهاء أن يترك الإنسان الفضول وهو ما لا طائل تحته.

"وأكرموا الجليس يعمر ناديكم":

أيضًا جملة فعلية، بدأت بفعل الأمر، أكرموا: فعل وفاعل، والجليس: مفعول به، و"يعمر ناديكم"؛ يعمر: فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، وناديكم: فاعل. إذا أردتم أن يعمر ناديكم فأكرموا جلساءكم؛ هذا معنى الكلام.

"وحاموا عن الخليط يرغب في جواركم":

إذا دافعتم عمن يخالطكم ويجاوركم ويعاشركم- أحب الناس جواركم ورغبوا في التقرب منكم، أما إذا لم تحاموا عن الخليط ولم تحاموا عن الجيران فإن الناس سترغب عن جواركم وتبتعد عنكم.

"وأنصفوا من أنفسكم يُوثق بكم":

أيضًا الجملة جاءت فعل أمر وجواب الأمر، أنصفوا: فعل وفاعل، من أنفسكم: جار ومجرور، يُوثق: فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر..

"وعليكم بمكارم الأخلاق؛ فإنها رفعة":

"عليكم بمكارم الأخلاق": أسلوب إغراء؛ يدعوهم إلى التزام مكارم الأخلاق والحرص عليها، وقوله: "فإنها رفعة": تعليل؛ أي: التزموا واحرصوا على مكارم الأخلاق؛ لأن مكارم الأخلاق ترفع أصحابها.

"وإياكم والأخلاق الدنيئة":

هذا أسلوب تحذير، فقوله: "عليكم بمكارم الأخلاق" أسلوب إغراء، وقوله: "وإياكم والأخلاق الدنيئة" أسلوب تحذير. والتحذير يكون من الأشياء السيئة، وهو هنا يحذّرهم من أن يتلبسوا بالأخلاق الدنيئة والصفات السافلة النازلة أو السيئة، إياكم وإياكم وإياكم والأخلاق الدنيئة.

وقوله بعد ذلك: "فإنها تضيع الشرف وتهدم المجد":

تعليل؛ أي: لأن التلبس بالأخلاق الدنيئة والصفات المرذولة يُضيعُ الشرف ويهدم المجد، وفي قوله: "تهدم المجد"، تصوير للمجد على أنه بنيانٌ محسوسٌ، وأن الأخلاق السيئة تهدمه وتزيله.

"وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته":

ساق الكلام هنا بأسلوب التوكيد باستخدام "إن"الداخلة على الجملة الاسمية، والنهنهة معناها: الزجر والإبعاد والتأديب، "وإن نهنهة الجاهل" أي: تأديبه والأخذ على يده، والجاهل هنا معناها: الطائش الذي يجر على نفسه وعلى قومه ما لا تُحمد عواقبه، "وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته" أي: أسهل من تحمّل نتائج أفعاله الوخيمة.

"ورأس العشيرة يحمل أثقالها":

الكبير في قومه مسئول عنهم، ويحمل تبعات ما يأتيه أبناءُ قبيلته وأفراد عشيرته.

"ومقام الحليم عظة لمن انتفع به":

مقام الحليم ينتفع به العقلاء الذين يتدبرون وينتفعون بالعبر والمواعظ التي تمر عليهم.

النص الثاني: خطبة عبد المطلب بن هاشم سفير قومه إلى اليمن:

حين حرّرها سيف بن ذي يزن ملكها من الأحباش؛ فهزّ ذلك الحادث العظيم قلوب العرب، فذهب وفدٌ من قريش لتهنئة الملك سيف بن ذي يزن، وكان على رأس الوفد عبد المطلب بن هاشم، قال في خطبته:

"أيها الملك، إن الله أحلّك محلًّا رفيعًا، صعبًا منيعًا، باذخًا شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته، وعزّت جرثومته، ونبل أصله وبسق فرعه في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت -أبيت اللعن- رأس العرب وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي به تنقاد، وعامودها الذي عليه العماد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولم يهلك من أنت خلَفُه، ولن يخمُل من أنت سلفه، نحن -أيها الملك- أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجنا بكشفك الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة".

نلاحظ على هذه الخطبة أن عبد المطلب يبدأها بالتوجه إلى الملك: "أيها الملك"؛ لأن الكلام لتهنئته، وهو المقصود به، فناسب أن يبدأ بتوجيه النداء إليه في قوله: "أيها الملك".

ثم قال: "إن الله أحلك محلًّا رفيعًا صعبًا منيعًا باذخًا شامخًا":

نلاحظ في هذا الكلام، "إن الله": أسلوب مؤكد بـ"إن"، ولفظ الجلالة اسم إن منصوب وعلامة نصبه الفتحة، وخبر إن الجملة الفعلية التي أتت بعد ذلك: "أحلك محلًّا رفيعًا"، والمحل الرفيع المقصود به المكانة التي فيها الملك سيف بن ذي يزن، "محلًّا رفيعًا" أي: مكانة عالية، "صعبًا منيعًا": صعبًا لا يستطيع أكثر الناس الوصول إلى هذه المكانة،. "باذخًا شامخًا": باذخًا: أي عظيمًا، وشامخًا: مرتفعًا عاليًا. وصف المحل بأنه رفيع، وأنه صعب، وأنه منيع، وأنه باذخ، وأنه شامخ، محلًّا: مفعول به للفعل أحل، وهو مفعول ثانٍ؛ لأن "أحلك": أحل فعل ماضٍ، والفاعل مستتر تقدير هو يعود إلى لفظ الجلالة، والكاف في أحلك ضمير في محل نصب مفعول أول، وهي عائدة إلى الملك، ومحلًّا مفعول ثانٍ، ورفيعًا صفة للمفعول الثاني، وصعبًا صفة ومنيعًا صفة، وباذخًا صفة، وشامخًا صفة، ونلاحظ الجناس والسجع بين رفيعًا ومنيعًا، وباذخًا وشامخًا.

وقوله: "وأنبتك منبتًا طابت أرومته وعزّت جُرثومته":

الأرومة: الأصل، أي: أنشأك الله في منبت أصيل طيب، والجرثومة: الأصل أيضًا، وعزت أي: اتصفت بالعزة؛ يريد أن يقول للملك: أنت من أصل طيب عزيز منيع، فجملة: "وعزّت جرثومته" معطوفة على "طابت أرومته". وكلتاهما في محل نصب نعت لمنبت؛ أنبتك منبتًا يتصف بأنه طابت أرومته وعزت جرثومته.

"ونبل أصله وبسق فرعه":

جملتان معطوفتان على ما قبلهما، وهما أيضًا في موضع النعت للمنبت؛ "أنبتك منبتًا طابت أرومته وعزت جرثومته ونبل أصله وبسق فرعه".

وقوله: "نبل أصله وبسق فرعه" تصوير لهذا الأصل بالشجرة الطيبة ذات الأصل الثابت والفروع الباسقة العالية.

"في أكرم معدن وأطيب موطن":

نلاحظ هنا أن كلمة "معدن" تنتهي بالنون، وكلمة "موطن" أيضًا تنتهي بالنون، وجملة "طابت أرومته" وجملة "عزت جرثومته" بينهما تشابه في النهاية كالتشابه بين معدن وموطن، وهذا ما يسمى سجعًا.

ثم يقول للملك: "فأنت أبيت اللعن":

أبيت اللعن: تحية ودعاء، كان الجاهليون يدعون به لساداتهم وأشرافهم وملوكهم؛ "أبيت اللعن" أي: تنزّهت عن السب والشتم واللعن، فهي جملة اعتراضية -"أبيت اللعن" فعل وفاعل ومفعول- لا محل لها من الإعراب، اعترضت بين المبتدأ والخبر.

"أنت رأس العرب":

اعترضت الجملة بين المبتدأ والخبر، فجاء الكلام: "فأنت -أبيت اللعن- رأس العرب". "رأس العرب" خبر المبتدأ "أنت"، وفصلت جملة الدعاء بينهما.

"فأنت -أبيت اللعن- رأس العرب وربيعها الذي به تخصب":

هذا تشبيه شبهه، فرأس كل شيء أعلاه، شبهه بالرأس وشبهه بالربيع وهو الفصل الذي يكون فيه الخصب، وهذا كناية عن شرفه في العرب وعن كرمه وإغداقه وسماحة نفسه.

"وملكها الذي به تنقاد":

هذه جملة جاءت على سبيل الحقيقة، فهو ملكها الذي به تنقاد، لكنه وصفه باستخدام الاسم الموصول وصلته ليدل على مكانته فيهم، وأنهم يستجيبون وينقادون له.

و"عمودها"، أي: عمود العرب.

"وعمودها الذي عليه العماد"، وقوله: "وعمودها الذي عليه العماد" شبه الملك بالنسبة للعرب بالعمود بالنسبة للخيمة.

ثم أثنى عليه بقوله: "سلفك خير سلف"، والسلف هم الجدود والآباء.

"وأنت لنا بعدهم خير خلف"، والخلف هو الذرية التي تأتي من الجدود والآباء؛ يُثني على جدوده وآباءه ويثني عليه.

"ولن يهلك من أنت خلَفُه"، يعني السابقون -جدودك وآباؤك- لم يهلكوا، ولن يندثر من التاريخ ذكرهم؛ لأنك أنت خلفهم.

"ولن يخمل من أنت سلفه"، ذريتك من بعدك لن يخمل ذكرها؛ لأنك وفّرت لهم من المجد ما يكفيهم.

ثم قال: "نحن -أيها الملك- أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته":

يعرِّفه بنفسه وبقومه الذين تحدث باسمهم، وهم وفد قريش.

"أشخصنا إليك الذي أبهجنا"، أي: جاء بنا إليك الذين أبهجنا؛ وهو انتصار الملك على الأحباش. "أبهجنا" أي: أدخل البهجة إلى نفوسنا.

"بكشفك الكرب الذي فدحنا"، أي: باسترداد ملكك وانتصارك على الأحباش، وكان احتلال الأحباش لليمن كربًا فدح العرب جميعًا وأحزنهم.

"فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة"، والتهنئة تكون في الخير، أما المرزئة فهي المصيبة.

وتلاحظ في الفقرة السابقة الجناس والسجع بين الألفاظ: سلف وخلف، ونهايات الجمل كقوله: ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه.

وصية أمامة بنت الحارث

وهي وصية امرأة عوف بن محلم الشيباني أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس عند زواجها: قالت لها: "أي بنية":

أي: أداة نداء، وبنية: تصغير ابنة، والتصغير في هذا المقام يدل على الإشعار بقرب البنت من أمها، وأنها تدلّلها؛ لأنها ما زالت صغيرة، لم تقل: يا ابنتي، وإنما قالت: "أي بنية"، وتستخدم "أي" للنداء على القريب، فالنداء بأي والتصغير كلاهما يدلان على قرب البنت من أمها قربًا حقيقيًّا مكانيًّا وقربًا نفسيًّا معنويًّا.

ثم ساقت الكلام في أول وصيتها بأسلوب مؤكد، فقالت: "إن الوصية لو تُركت لفضل أدبًا تركت لذلك منك":

فأثنت بذلك على ابنتها ومدحتها بأنها مؤدبة، ولو أن الوصية تركت لأدب أحد لتركت بسبب أدبها، ثم استدركت وقالت:

"ولكنها -أي: الوصية- تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل":

وبهذه الحكمة العالية من المرأة استأنست بنتها وجعلتها مستعدة لقبول نصيحتها، فلم تنفرّها منها، ولم تشعرها بأن الوصية لها؛ لأنها ناقصة في الأدب، لم تفعل شيئًا من ذلك. ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها كنتِ أغنى الناس عنه؛ إذًا لو كانت الوصية تترك لزيادة الأدب لتركت وصية هذه البنت. ولو كانت امرأة تستغني عن الزوج لغنى أبويها وحاجتهما إلى البنت لكانت هذه البنت أغنى الناس عن الزواج.

واستدركت أيضًا وقالت: "ولكن النساء للرجال خلقنَ، ولهن خلق الرجال":

هذه سنة الحياة، خلق الله ﷻ النساء ليتزوجن الرجال، وخلق الرجال للنساء، وما دامت هذه سنة الله في خلقه فإنك -أيتها البنت الغالية الكريمة العزيزة المؤدبة- ستتزوجين.

ثم تكرر النداء بصيغة التصغير: "أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجتِ، وعُشك الذي فيه درجتِ": شبهت البيت الذي ستخرج منه بالعش الذي تبدأ فيه الطيور حياتها.

"إلى وكرٍ"، وكلمة "وكر" معناها أيضًا: عش.

"إلى وكر لم تعرفيه"، ستتركين بيتك الذي نشأت فيه إلى بيت جديد عليك.

"وقرينٍ"، المراد به الزوج الذي ستعاشره.

"لم تألفيه"، ونلاحظ بين الجملتين سجعًا، وبين تعريفه وتأليفه جناسًا.

ثم توصيها بما يجب عليها أن تكون عليه؛ فتقول: "فكوني له أمة يكن لك عبدًا":

كوني: فعل أمر، والياء اسم كن، وأمَة: خبرها، وجملة: "يكن لك عبدًا"؛ يكن: فعل مضارع مجزوم في جواب الأمر، أي: إن تكوني له أمَة يكن لكِ

عبدًا، فالجملتان مرتبطتان ببعضهما ارتباط الجواب بالشرط، ونلاحظ المقابلة بين الجملتين: "كوني له أمَة، يكن لكِ عبدًا"، والمراد التشبيه؛ يعني: كوني مثل الأمَة مطيعة منقادة يكن لكِ مثل العبد المملوك.

"واحفظي له خصالًا عشرًا يكن لك ذخرًا":

هنا سجع بين جملة احفظي له خصالًا عشرًا يكن لكي ذخرًا، نهايتا الجملتين متفقتان في الراء المفتوحة.

"أما الأولى والثانية: الصحبة بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة":

أيضًا نلاحظ السجع بين الجملتين.

"وأما الثالثة والرابعة: فالتفقُّد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح":

أيضًا نلاحظ السجع بين الجملتين.

"وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة":

نلاحظ الأسلوب المؤكد بـ"إن" في قولها: "فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة"، ونلاحظ السجع بين الجملتين.

"وأما السابعة والثامنة: فالاحتفاظ بماله، والإرعاء على حشمه وعياله":

أيضًا نلاحظ السجع بين الجملتين: "الاحتفاظ بماله، والإرعاء على حشمه وعياله".

"ملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير":

أيضًا المناسبة بين التقدير والتدبير.

"وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمرًا، ولا تفشين له سرًّا؛ فإنك إن عصيتي أمره أوغرتي صدره، وإن أفشيتي سرّه لم تأمني غدره":

نلاحظ السجع بين الجمل: "فلا تعصين له أمرًا، ولا تفشين له سرًّا"؛ "فإنك إن عصيتي أمره أوغرتي صدره": هذا أسلوب شرط؛ "إن عصيتي أمره" هذا هو الشرط، وجوابه: "أوغرتي صدره"، "وإن أفشيتي سره لم تأمني غدره".

"ثم إياكِ والفرح بين يديه إذا كان مغتمًّا، والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا":

هذا أسلوب تحذير، "إياكِ" أي: احذري أن تفعلي هذا، يحذرها من الفرح أمام زوجها إذا كان حزينًا، وتحذرها من الكآبة عنده إذا كان فرحًا، وهذا أمر تقع فيه كثير من النساء. لا تبالي بالحالة النفسية لزوجها، فتُظهر الغم في وقت فرحه، وتظهر الفرح في وقت حزنه، وذلك من قلة العقل عند المرأة التي تفعل ذلك، هذه المرأة العربية في العصر الجاهلي تحذّر ابنتها من أن تقع في هذا، وفي هذا الكلام في هاتين الجملتين مقابلة بين الفرح بين يديه إذا كان مغتمًّا والكآبة بين يديه إذا كان فرحًا.

"واعلمي، أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ":

نلاحظ الجناس بين رضاه ورضاكِ، والطباق بين أحببتِ وكرهتِ، والجناس أيضًا بين هواه وهواكِ.

وأنهت الوصية بقولها: "والله يخير لكِ":

أي: الله يختار لكي الخير.

ثم قالت في نهاية الوصية: "واعلمي، أنكِ لا تَصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ والله يخير لكِ":

علقت وصولها إلى ما تحبه من السعادة مع زوجها والراحة عنده على إيثارها رضا زوجها على رضاها، وتفضيلها هواه على هواها ؛ فيما أحبت وفيما كرهت، ونلاحظ في هذه الخاتمة أنها ساقت المعنى -الذي أشرت إليه- في أسلوب صارم : "لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه..." إلى آخر ما قالت، وأنهت الوصية بالدعاء لها بأن يختار الله لها الخير بقولها : "والله يخير لكِ".

هذه وصية غالية من امرأة حكيمة لابنتها عند زواجها، وما أحرى نساءنا في هذا العصر أن يتعلمن من هذه الوصية ما فيها من حكم بالغة، وأن تأخذ كل امرأة نفسها بها، وأن توصّي بها ابنتها إذا أوشكت على الزواج.

والحق : إن ما جاء في هذه الوصية من نصائح أسدتها الأم لابنتها- يتفق مع ما جاء به الإسلام من ضرورة رعاية الزوجة لحقوق زوجها، وطاعتها له، والمحافظة على بيته وولده وماله، فهذه الرعاية وتلك المحافظة هما سبيل المرأة إلى امتلاك قلب زوجها والحصول على تقديره واحترامه وحبه وإكرامه، فالرسول ﷺ يقول : ((كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته))، ومن ضمن من خصهم بالذكر في هذا الحديث الشريف المرأة ؛ حيث قال : ((والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها، ومسئولةٌ عن رعيتها)).

ومن هذه الوصية وغيرها من النصوص التي درستها لك في هذا الدرس تعرف أن العرب لم يكونوا جميعًا أشرارًا، وأن حياتهم لم تكن شرًّا مطلقًا، بل كان فيهم مَن يحرص على الخير ويدعو إليه ويوصي به، وقد جاء الإسلام فأقرّهم على ما فيهم من خير، ودعاهم إلى الاستزادة منه، وربط هذا الخير الذي فيهم فطرةً وجبلة بالدين، ودعاهم إلى الرغبة فيما عند الله ﷻ من الجزاء على التمسك به ونشره والعمل به.

الأدب في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي
(ملامح التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي)

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : عصر البعثة النبوية والخلفاء الراشدين ٢٥٩

العنـــصر الثـــاني : قيام الدولة الأموية ٢٦٩

عصر البعثة النبوية والخلفاء الراشدين

لقد كانت بعثة الرسول محمدٍ ﷺ الحدثَ الأهم والأعظم في تاريخ البشرية كلها ؛ إذ إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله ﷺ للناس كافةً ، وأرسله رحمةً للعالمين ، وجعل الدين الذي دعا إليه هو الدين الخاتم ، ورسالته هي آخر وحيٍ من السماء إلى الأرض ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧].

وبالإسلام أنقذ الله سبحانه وتعالى البشريةَ كلها من عبادة الأوثان والأحجار والبشر إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وعلَّم الإسلام البشريةَ كلها منظومةً من القيم التي تحفظ للإنسان حريته وكرامته وإنسانيته ؛ بهذه القيم الشريفة النبيلة صاغ الإسلام من العرب أمةً جديدةً.

ومن المعروف أن الرسول ﷺ نشأ في العرب وبينهم ، نشأ في مكة ، وكان ﷺ أميًّا لا يعرف القراءةَ ولا الكتابةَ ، والأمية فيه ﷺ كمالٌ ، وفي غيره نقصٌ ؛ حتى لا يزعم زاعمٌ أن الرسول تعلم من أحد أو تتلمذ على أحد ؛ إنما كان ﷺ كما أخبر عن نفسه بقوله : ((أدبني ربي فأحسن تأديبي)).

ولما أذن الله سبحانه وتعالى لنور الإسلام أن يشرق على الدنيا كلها نزل جبريل # ، أمين الوحي- من السماء من لدن الله عز وجل على سيدنا محمدٍ ﷺ في غار حراء وهو يتأمل ويتحنث ؛ حيث كانت نفسه راغبة عما كان يفعله قومه ؛ فلم يسجد ﷺ لصنم ، ولم يقترف شيئًا مما كان يقترفه أهل الجاهلية.

نزل جبريل # مؤذِنًا ببدء مرحلة جديدة في تاريخ العرب وتاريخ الناس جميعًا ، نزل ليُعْلِمَ رسول الله ﷺ أن الله اصطفاه ليكون خاتم الرسل ويكون النذير البشير والسراج المنير ، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

هذه بداية بعثة رسول الله ﷺ إذ جاءه جبريل بوحي الله ﷻ وخاطبه:
((﴿ ٱقْرَأْ ﴾. قال: ما أنا بقارئ!. قال: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾. قال: ما أنا بقارئ!. قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾)) [العلق: ١ - ٥].

وتلا رسول الله ﷺ أولى آيات الوحي، أولى كلمات القرآن، تلاها مرددًا خلف جبريل # .

وأُمِر الرسول ﷺ في بداية الأمر أن ينذر عشيرته الأقربين، وظلت الدعوةُ إلى الإسلام سرًّا ينقلها الرسول ﷺ بين المقربين من أهل بيته وعشيرته؛ فكان أول مَن آمن به من النساء: زوجته الفاضلة أم المؤمنين خديجة < وكان أول مَن آمن به من الفتيان والشباب: علي بن أبي طالب < وكان أول مَن آمن به من الرجال: أبو بكر الصديق < .

واستمرت الدعوة سرًّا إلى أن أُذِن لرسول الله ﷺ أن يجهر بها: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]، فأعلن الرسول ﷺ إلى قريش كلها أنه رسول الله إليهم وإلى الناس كافة، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، والبعد عن عبادة الأصنام، ويدعوهم إلى العدل، وإلى المساواة، وإلى التكافل والتراحم والتناصح؛ فما كان من كبار القرشيين إلا أن صدوا عنه، واتهموه مرة بالكذب، ومرة بالجنون، وأخذوا يتطاولون عليه وعلى أصحابه الذين آمنوا معه، وعذبوا المستضعفين منه عذابًا شديدًا، وثبت المؤمنون على دينهم؛ حتى أُذِن للرسول ﷺ بأن يهاجر من مكة إلى المدينة، بعد أن مكث في مكة ثلاثة عشرة عامًا كانت مدة التربية والتمحيص للصفوف الأولى من المسلمين الذين حملوا دين الله أمانة في أعناقهم وقدموا في سبيله أنفسهم رخيصة يبتغون بذلك رضا الله ﷻ.

وفي هذه الفترة المكية نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ يُعلِّمه ويُعلِّمُ أصحابَه وأمتَه أصولَ العقيدة الصحيحة ممثلة في أولى ركائزها: وهي توحيد الله ﷻ وإفراده بالعبادة فهو ﷿ لا رب سواه ولا معبود بحقٍّ سواه، هو الرازق، وهو القادر، وهو المحيي، وهو المميت.

ولما ربيت هذه العقيدة في صفوف المؤمنين، وهاجر الرسول ﷺ بعد ذلك إلى المدينة المنورة، واستقبله أهلها بالسرور والترحاب، وأقام بينهم، وعلمهم القرآن الكريم وآداب الإسلام كلها، وآخى بين المهاجرين والأنصار؛ أرسى رسولُ الله ﷺ بذلك دعائمَ دولة جديدة في المدينة المنورة هي دولة الإسلام.

ومرت الأيام، والرسول ﷺ يعلم أصحابه ويربيهم، والمشركون في مكة يحاولون إطفاء نور الله بأفواههم، ويتربصون بمحمد ﷺ وأصحابه، ويهجمون عليهم في مدينتهم الآمنة المطمئنة التي نورها الله ﷻ برسوله وبدينه، وتقوم بين قوى الكفر وقوى الإيمان غزوات ومعارك، ويثبت الرسول ﷺ والمسلمون معه؛ حتى يُتم الله دينَه، وحتى يُظهر أمرَه، وحتى يرجع الرسول ﷺ إلى مكة فاتحًا بعد أن خرج منها مهاجرًا.

وبعد أن لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى خلفه من بعده أبو بكر > فسار على حكمه، والتزم سنته، واتبع طريقته، ولما ارتد بعض العرب عن الإسلام قاتلهم الصديق > ولم يهادنهم، ولما قالوا: إننا كنا ندفع الزكاة لمحمد رسول الله ﷺ فإذا ذهب محمد إلى ربه لن ندفعها لأحد من بعده. قاتلهم الصديق وقال قولته الشهيرة: "والله لو منعوني عقال بعير كانوا يدفعونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، والله لأقاتلن مَن يفرق بين الصلاة والزكاة". وهكذا عصم الله ﷻ دينه وحفظه بأبي بكر > .

وتولى الخلافة بعد أبي بكر عمر > فسار على المنهج نفسه، وملأ الدنيا عدلًا، وصار مضرب الأمثال في العدل بين الرعية والتواضع لهم والحكم بينهم بما أنزل الله.

ولما أدركت الوفاة عمر وصى قبل أن يلحق بربه أن يختار المسلمون خليفتهم من بين عدد من الصحابة الكرام حددهم عمر > وذكر معهم ابنه عبد الله بن عمر على أن يكون مستشارًا، وألا يختار خليفة من بعده. واجتمع الصحابة واختاروا خليفة لعمر هو عثمان بن عفان > وسار عثمان > على منهج أسلافه: يقيم شرع الله، ويحافظ على دينه، ويلتزم بسنه رسول الله ﷺ ولكن المسلمين امتُحِنوا محنة عظيمة بمقتل عثمان وتولي علي بن أبي طالب > بعده؛ إذ قام في الناس من يطالب بدم عثمان وظهر فيهم من يقول: إن علي بن أبي طالب > تساهل مع قتلته ولم يأخذ بثأره؛ فقامت في الناس فتنة.

وبايع قوم معاوية بن أبي سفيان > ليكون خليفة للمسلمين، وأصبح في الناس خليفتان: علي > ومعاوية > .

إلى هنا نتوقف لنقول: إن المسلمين في حياة الرسول ﷺ وتحت قيادته، وفي أثناء الخلافة الراشدة من بعده، ولا نجاوز القصد ولا نجافي الحق إذا قلنا: إن الإسلام بدل حياة العرب وغيرها، واستخرج منهم أمة جديدة غير تلك التي كانت تنتسب إلى الجهل، فيقال لهم: عرب الجاهلية.

لقد أضاء الإسلام القلوب، وأنار العقول، وعمر النفوس بما صحَّح من عقائد، وقوَّم من أخلاق، وشرع من نُظُم، وفرض من عبادات.

بالإسلام اجتمع شتات العرب، والتأم صدعهم، وأصبحوا أمة بعد أن كانوا قبائل شتى يغير بعضها على بعض للاستلاب والنهب.

وبالإسلام وصلت الوشائج الممزقة والأرحام المقطوعة، وعلت موازين الحق والعدل، ونمت في بيئة الصحراء نابتة الخير بعد أن استحياها غيث القرآن، وحاطها الرسول ﷺ ورعاها؛ وما زال بها حتى استحالت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ولا يعرف في تاريخ البشر وحياة الأمم حدث غير طبيعة المكان، وأعراف الزمان، وسجايا الإنسان في بضع سنين كما صنع الإسلام.

والأساس الذي بنيت عليه الحياة الجديدة تحت راية الإسلام: هو العقيدة - عقيدة التوحيد - التي أعادت للإنسان ذاته، وردت إليه حريته، وبصرته بقيمته، وكشفت له عن موقعه في الكون وموقفه من الكائنات، وهدته إلى إله واحد بعد أن كان مشتت الوجدان تائه اللب والجنان، بين آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر.

وبهذه العقيدة اقتلع الإنسان العرب من الوثنية والجاهلية، واستخرجهم من ظلمات الشرك والعصبية، ووصل أرضهم بالسماء، وجعلهم على هداية البشرية كلها خير الأمناء.

ولقد حدثتك عن مساوئ العرب قبل الإسلام، وبينت لك ما كان في هذه الحياة من مفاسد وضلال، وخلاصة القول فيها: أنها كانت ظلمات كثيفة، وصراعات عنيفة، وضلالًا مبينًا، استنقذهم الله منها بالإسلام، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

واشتملت عقيدة توحيد الله تعالى والإيمان به ربًّا خالقًا رازقًا محييًا مميتًا، بيده مقاليد كل شيء، يتصف بكل صفات الجمال والكمال والجلال على الإيمان

بكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خير وشره، واستتبع هذا الإيمان قيامًا بحق العبودية لله ﷻ بأداء فرائضه، وإقامة شرعه، واحترام حدوده، والدعوة إلى دينه؛ كما استتبع هذا الإيمان قيامًا بحقوق الأخوة الإيمانية انتماءً وإخلاصًا ووفاءً لجماعة المؤمنين، وقيامًا بحقوق الإنسانية كلها برًّا ورحمةً وعدلًا؛ بل قيامًا بحقوق الحياة النافعة - أينما كانت - في حيوان أو نبات.

وهذا التغير العظيم الذي شمل حياة العرب من أقطارها، وأخذها من جذورها، لم يتحقق إلا بجهدٍ جهيدٍ، وصبرٍ شديدٍ، وحلمٍ رشيدٍ، وحكمة عالية، وسياسة راقية، ورحمة وافية، اتصف بها من اصطفاه الله لتبليغ الناس رسالته محمدٌ ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وبالعقيدة الجديدة أصبح العرب مسلمين، يملكون تصورًا صحيحًا للكون والحياة، ويعرفون موضعهم من كون الله، ويدركون أن الله كرم الإنسان، وسخر له ما في الأرض جميعًا، وجعله سيدًا عليه، دون أن تتجاوز سيادته هذه حدودَ عبوديته لربه وخالقه ورازقه الواحد الأحد: الله ﷻ.

وفهم العرب معنى الحرية وذاقوا حلاوتها، وتعلموا أن حرية الإنسان لا تعني أن تكون حياته فوضى أو عبثًا، أو أن يظلم ويعتدي ويجور؛ بل إن حريته لا تكون ذات معنى إلا في حمى الإيمان بالله، وفي حدود شرعه الحكيم.

وبفضل التصور الصحيح؛ عرف العربي أن حياته منحة من الله ونعمة وهبها إياه امتحانًا وابتلاءً، وأنه لا يملك هذه الحياة بدءً ونهاية وتقديرًا وتدبيرًا غير واهبها، كما عرف أن الموت هو قدر الله المسلط على خلقه لحكمٍ بالغة؛ إذ به ينتقل

الإنسان من دار العمل والابتلاء إلى دار الحساب والجزاء، وهذا القدر الماضي لا يملك الإنسان رده، ولا يعرف وقته، ولا يستطيع منه فرارًا، ولا يمكنه تقديمه ولا تأخيره.

دفعت هذه العقيدة العرب إلى حياة جادة يتعلمون فيها ويعملون، ويرفعون راية الحق والعدل، وينشرون النور في كل مكان؛ متطلعين إلى غايات أسمى من شهوة الغلبة والظفر، وأرقى من احتواء الدنيا وكسب المال، على هذا آمنوا بالله ورسوله، وعلى هذا عاهدهم محمدٌ ﷺ وعلى هذا بايعوه.

إن الغاية التي من أجلها آمنوا، ومن أجلها عملوا وجاهدوا: هي الجنة التي وعدوا بها وعد الصدق من الله ﷻ في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

ولنعرف الفرق الكبير بين العرب قبل الإسلام والعرب بعده: نقرأ الآية التالية للآية السابقة؛ ففيها صفة هؤلاء المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم لله، ومن هذا الوصف ندرك أن القوم في ظل الإسلام أصبحوا غيرهم قبله، يقول ﷻ: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

ولم يرسم القرآن الكريم للمسلمين معالم العقيدة وفروضها فحسب؛ بل أرشدهم إلى طرق الفضيلة التي يستطيعون -إن تمسكوا بها- أن يقيموا مجتمعًا راقيًا فاضلًا، يعيش الجميع فيه متحابين متعاونين من أجل الخير.

والله ﷻ يصف عباده المؤمنين بصفات استطاع المسلمون الأوائل أن يحققوها في أنفسهم وفي مجتمعهم، يقول الله ﷻ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، وتعدد الآيات الصفات النبيلة لهؤلاء العباد؛ فهم ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، وهم كذلك لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴿وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وهم ﴿لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢]، وهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون بحق البر للآباء والأمهات، ويقومون بحق الأخوة الإيمانية بعضهم تجاه بعض، ويستمسكون بالأخلاق الراقية النبيلة، ويحافظون على المشاعر الإنسانية فيما بينهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١١- ١٢].

ويصحح الإسلام نظرتهم إلى المال؛ فيعلمهم أن المال وسيلة لتنمية الحياة وإسعاد الناس، ينبغي أن يكسبه الناس من الطرق المشروعة الحلال، وأن ينفقوه في وجوهه الصحيحة النافعة؛ فلا إسراف ولا تقتير، وجعل للفقير حقًّا في مال الأغنياء ودعاهم إلى أن يكونوا عدولًا منصفين من أنفسهم في كل معاملتهم؛ أمرهم أن يوفوا الكيل والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، ونهاهم عن أكل الربا والاستغلال، ودعاهم إلى الكرم والسخاء، ووعدهم الله على ذلك

الأجر العظيم والثواب الكريم: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ويضرب القرآن الكريم مثلًا للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله؛ فيشبه عملهم ذلك بالحبة التي أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، يقول القرآن: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن هنا وجدنا أغنياء الصحابة لا يعيشون لأنفسهم، ولا يكنزون المال، ولا ينفقونه في شهواتهم وملذاتهم؛ إننا نجد عثمان بن عفان > يجهز جيش المسلمين في غزوة تبوك بتسعمائة وخمسين بعيرًا، وأتم الألف بخمسين فرسًا، ونجد عبد الرحمن بن عوف > يتبرع بقافلة تجارية كبيرة قوامها سبعمائة راحلة، تحمل القمح والدقيق والطعام؛ فيجعلها كلها في سبيل الله.

وفي إطار هذه الحياة الفاضلة الجديدة التي صاغ الإسلام العرب على نظامها نجد المرأة تأخذ حقها بعد إن كانت مهضومة مظلومة، الله ﷻ يقول عن النساء: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ويقول: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣١]، وشدد الإسلام النكير على أولئك الذين كانوا يئدون بناتهم خشية العار أو خشية الفقر، ووصف مسلكهم وفعلهم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، ونبههم إلى أن كل موءودة ستأتي يوم القيامة تشهد على من وأدها: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

وحرم استخدام النساء سلعة رخيصة ممتهنة لقضاء الشهوات من غير ضابط أو رابط ؛ فحرم البغاء والزنا، ونظم الزواج، وجعله فريضة محببة إلى الله ونعمة من نعمه، وآية من آيات قدرته، وسنه من سنن دينه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

ولما خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع علم الناس أصول هذه الحياة الراقية النبيلة ؛ فكان مما قال: ((أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حقٌّ))، وكان مما قاله -في رد الناس إلى إعلاء قيم الحق، ونبذ قيم التفاخر والتنافر والتعالي بالأحساب والأنساب- قال ﷺ: ((أيها الناس، إن ربكم واحدٌ، وإن أباكم واحدٌ، كلكم لآدم وآدم من تراب ؛ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى)).

لقد أهلت هذه الصفات التي اكتسبها العرب من القرآن الكريم ومن الإسلام، أهلتهم لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس، وحملوا هذا الدين إلى غيرهم ؛ فخرجوا به من جزيرة العرب إلى بلاد فارس، وإلى بلاد الروم، وإلى بلاد مصر وبلاد الشام، ونشروا دين الله في الأرض من أقصاها إلى أقصاها ؛ لا يريدون بذلك إلا وجه الله ﷻ والفوز بالجنة والنجاة من النار.

وخرج المجاهدون يفتحون البلاد ويهدون العباد ؛ فما هي إلا سنوات قليلة وقد أشرق نور الإسلام على بلاد كثيرة خارج الجزيرة العربية، وظل المسلمون في ذلك العهد، عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، مستمسكين بالحق، يدعون إلى الله على بصيرة، يجاهدون في سبيله، ويعلون كلمته، ويدعون الناس إليه ؛ يترفعون عن الصغائر، لا تستهويهم الدنيا بزخرفها، ولا تستعبدهم السلطة ببريقها.

وتوافرت للدولة الفتية موارد اقتصادية غنية وثرة جعلتها دولة ذات كفاية وإنتاج، يعملون، ويجتهدون، ويربحون، ويتاجرون، ولا يستعبدهم المال؛ بل ينفقونه في سبيل الله؛ يكتسبونه من الأوجه المشروعة، وينفقونه في الأوجه التي أمرهم الله ﷻ بالإنفاق فيها من غير إسراف ولا تبذير.

لقد حرم الله ﷻ عليهم البخل والشح، وحرم عليهم الإسراف وإنفاق المال فيما لا يرضيه، حرم عليهم الخمر، وحرم عليهم الميسر، وحرم عليهم كل الموبقات.

قيام الدولة الأموية

وظلت الأمور صورة مضيئة للدولة الفتية: الراعي والرعية، إلى أن حدثت الفتنة، والفتنة بدأت بمقتل عثمان > واختلاف الناس من بعد ذلك في شأن قتله ومن قتله، وانصدعت وحدة المسلمين، وأصبح فيهم أميران: علي > رابع الخلفاء الراشدين، ومعاوية > الذي أخذ البيعة من أهل الشام.

ويدلك على خطر هذا الشقاق والصدع الذي حدث وخطر آثاره التي ترتبت عليه بعد ذلك هذا الخطاب الذي كتبه علي > إلى معاوية يقول فيه:

"سلام عليك، أما بعد؛ فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد؛ وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار؛ فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا؛ كان ذلك لله رضا، وإن خرج عن أمرهم خارجٌ ردوه إلى ما خرج عنه؛ فإن أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين وولَّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا.

وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضهما كردهما ؛ فجاهدتهما بعدما أعذرت إليهما ؛ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ؛ فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإن أحب الأمور إليَّ قبولك العافية ، وقد أكثرت في قتلة عثمان ؛ فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمت القوم إليَّ ؛ حملتك وإياهم على كتاب الله ، وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن ، ولعمري ، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان ، واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ، ولا يدخلون في الشورى ، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جريرَ بنَ عبد الله ، وهو من أهل الإيمان والهجرة ؛ فبايعه ولا قوة إلا بالله".

فكان جواب معاوية على هذه الرسالة :

"من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب ، أما بعد : فلعمري ، لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت بريء من دم عثمان ؛ كنت كأبي بكر وعمر وعثمان { ولكن أغريت بعثمان المهاجرين ، وخذلت عنه الأنصار ؛ فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ؛ فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمري ، ما حجتك علي كحجتك على طلحة والزبير ؛ لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العرق ؛ لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام ، وأما شرفك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش ؛ فلست أدفعه".

ولم تنجح المكاتبات في رأب الصدع وجمع الفريقين ، واستمر الخلاف حتى وقع الصدام بين المعسكرين وحدثت الحروب.

وبعد أن لحق علي > بجوار ربه ، وتبعه بعد ذلك ولده الحسين > وبعد أن رضي الحسن > بالدخول في طاعة الأمويين ، استطاع الأمويون أن يحكموا

قبضتهم على الأمور ؛ ومع ذلك : ظلت الثورات تقوم عليهم بين حين وحين في أماكن متعددة من البلاد ، واستمر حكمهم قرنًا من الزمان تقريبًا ، ظلت فيه الفتوحات الإسلامية نشيطة وظلت فيها الدولة قوية ، على الرغم من مناوشات خصومها حتى استطاع العباسيون إسقاطها.

الملامح الرئيسية للعصر الأموي فيما يتعلق بالسياسة :

الملمح الأول :

هو تغيير نظام الحكم : ذلك أن نظام الحكومة صار ملكًا عضودًا وراثيًّا ، يرث الخلافة الولد عن أبيه ، بعد أن كان في أيام الخلفاء الراشدين يرجع فيه إلى الشورى وإلى رأي الأمة ، ولم يكن ذلك مقبولًا ولا مرضيًّا عند كثير من المسلمين ؛ ولهذا نشأت فرق وأحزاب ، إن لم تكن ظاهرة في معارضتها ورفضها خشية العقاب ؛ فإنها كانت تنكر ذلك الأمر لأنه غير مسبوق.

الملمح الثاني :

انتقال عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق ، بعد إن كانت عاصمتها المدينة المنورة ، واكتسبت بذلك دمشق مكانة جديدة لم تكن لها من قبلك ، وأصبحت كعبة الشعراء والأدباء والكتاب والعلماء.

الملمح الثالث :

ظهور العصبية القبلية : فقد أراد الأمويون أن يشغلوا الناس عن أنفسهم ؛ فأغروا بعضَهم بعضًا بأن يتعصب كل لقبيلته ، وأحيوا ما كان يمكن أن يكون قد مات من

هذه العصبية أو أوشك أن يموت، وأعادوا الأسواق الأدبية إلى سيرتها الأولى، وجعل الناس يتنافسون ويتفاخرون ويتنافرون، ويذكر الشعراء محاسن قبائلهم ومساوئ القبائل التي كانت تنافسهم في الجاهلية، وظهر الصراع والتنافس بين المضرية واليمنية، وافترق كل فريق إلى شيع وأحزاب، واستباح القوم في سبيل إثارة هذه الروح كل شيء، وأصبح للعصبية القبلية دخْلٌ في تولي الخلفاء والأمراء وقادة الجيش مناصبهم.

الملمح الرابع:

ما قام به الأمويون من وسائل التقريب والإغراء:

فقد كان من سياستهم أنهم يتركون الناس يقولون ما يقولون، ويصطنعون العفو عنهم والصفح، وأحيانًا يصلونهم بالعطايا والأموال، ومن الكلام المأثور لمعاوية < في ذلك: قوله لعمرو بن العاص < : "لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قال عمرو: وكيف ذلك، يا أمير المؤمنين؟ قال: إن هم شدوا أرخيت؛ وإن هم أرخوا شددت".

وكان يبذلون المال يريدون به قطع الألسنة ومنع الناس من انتقادهم، وكانوا يزيدون لمن يتوقعون منه خطرًا أكبر، وساقوا مالًا كثيرًا إلى أهل المدينة من المهاجرين والأنصار؛ حتى إنهم ضاعفوا عطاء خصومهم من آل البيت إلى مائتي ضعف عما كان يعطيهم عمر < يريدون بذلك أن يسكنوا النفوس عنهم ويسكتوا الألسنة كذلك.

وكان من أثر هذا المال الكثير الذين أغدقوه على الناس -خاصة في المدينة- أن لان شبابها وفسدت غرائزهم، ووجد الطرب والشراب مجالًا واسعًا عندهم،

وكان من رد الفعل على ظهور هذه الموجة من الخلاعة والمجون: أن ظهر التصوف والزهد.

كما اصطنع الأمويون من الشعراء أبواقًا لهم، يدافعون عنهم، ويهاجمون خصومهم، وأجزلوا لهم العطاء.

وبهذا يظهر الفرق الكبير بين الملامح التي شكلت حياة المسلمين في عهد رسول الله ﷺ وعهود خلفائه الراشدين من بعده، وهذه الحياة الجديدة التي استقبلها الناس في العهد الأموي.

وكان من الطبيعي -في هذه الظروف الجديدة- أن يكثر الفساد، وأن تُهدر كثير من الحرمات، وأن يكثر المجون، وأن يشيع النفاق، وأن يكثر الخلاف ويشتد بين المؤيدين والمعارضين.

وليستمر الأمويون في إحكام قبضتهم على المجتمع والدولة؛ كانوا يستخدمون على الناس ولاة قساة، لا يرقبون فيهم إلًّا ولا ذمة، يخضعونهم بالسيف إن لم يخضعوا بالمال.

ولكن التاريخ يذكر إنصافًا لدولة الأمويين: أنها أتمت سلسلة الفتوح الإسلامية؛ حتى وصلت جيوشهم إلى بلاد الأندلس غربًا وإلى أسوار القسطنطينية شمالًا، ولم يُفتتن بعض أمرائهم بمباهج الحياة وتقاليد البذخ التي رأوها في البلاد المفتوحة -كما حدث للعباسيين من بعدهم.

ولقد تركت هذه الملامح، وتلك السياسة، وهذه التقاليد؛ تركت كلها آثارها في الأدب في العصر الأموي.

تابع الأدب في عصر صدر الإسلام وفي العصر الأموي
(الإسلام والشعر، وشعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه)

عناصر الدرس

العنصر الأول	موقف الإسلام من الشِّعر	٢٧٧
العنصر الثاني	شعر المخضرمين، وأثر الإسلام فيه	٢٨٦

موقف الإسلام من الشعر

ذهب بعض الباحثين من العرب والمستشرقين إلى أن الإسلام أضعف من الشعر وغض من شأنه، واحتجوا في قولهم هذا بقول الله ﷻ: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٦]؛ ففهموا من ذلك أن القرآن يذم الشعر ويذم الشعراء.

- ونقلوا أيضًا حديث رسول الله ﷺ القائل: ((لئن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا ودمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا))، وقالوا: إن عمر بن الخطاب قال: "كان الشعر علمَ قوم لم يكن لهم علم أصح منه؛ فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب - أي: عن الشعر- وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت العرب عن الشعر وروايته".

- ورددوا مقولة للأصمعي يقول فيها: "إن الشعر نَكِدٌ، بابه الشر؛ فإذا دخل الخير لان؛ هذا حسان بن ثابت كان فحلًا في الجاهلية؛ فلما جاء الإسلام ضعف شعره".

- قول ابن خلدون: "انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم في أسلوب القرآن ونظمه؛ فأخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانًا".

هذه هي الأسانيد التي استند إليها القائلون بأن الإسلام أضعف الشعر وهون من شأنه.

ورفض فريق من الباحثين هذا الادعاء، وقالوا: إن الإسلام لم يُضعف الشعر ولم يغض من شأنه؛ بل إن الإسلام نهض بالشعر وقوَّاه، وذهب هذا الفريق يفند ما استند إليه القائلون بضعف الشعر في الإسلام، فالآيات التي استندوا إليها

والتي ذم القرآن فيها الشعراء بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾؛ هـذه الآيـات أتبعت باستثناء؛ حيث قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ففي الآيات -إذًا- استثناء لفريق من الشعراء وصفوا بأنهم مؤمنون، وأنهم يعملون الصالحات، وأنهم ذكروا الله كثيرًا وانتصروا من بعد ما ظلموا؛ فإذًا ليس كل الشعر مذمومًا وليس كل الشعراء مذمومين بنص هذه الآيات.

- ونظروا في القرآن الكريم؛ فوجدوا الآيات التي تتحدث عن القرآن وتنفي عنه صفة الشعر لا يفهم منها أنها تغض من شأن الشعر أو تحرمه، فالمشركون عندما انبهروا بإعجاز القرآن في بيانه؛ تخبطوا في حكمهم عليه، يحكي القرآن هذا التخبط في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وأراد الله ﷻ أن يعلمهم أن القرآن إنما هو وحي الله إلى رسوله، وأنه ليس من كلام البشر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال الله ﷻ عن القرآن: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١- ٤٣].

فهذه الآيات تنفي عن القرآن صفة الشعر، وعن الرسول ﷺ صفة الشاعر؛ تنزيهًا لكلام الله ﷻ عن أن يكون من شيء مما عرفه البشر من كلام، شعر أو غير شعر.

- وتنزيه القرآن الكريم عن الشعر لا يعني تحريم الشعر ولا الغض من شأنه؛ فالقرآن الكريم نزَّه الرسول ﷺ ونفى عنه أن يكون تعلم القراءة أو الكتابة؛

قـــــال ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] والمعنى: أنك يا محمد، لم تكن تقرأ ولا تكتب؛ لكي يكون للمشركين حجة في ادعاء أنك تعلمت هذا القرآن من أحد. وتنزيه الرسول ﷺ ونفي القراءة والكتابة عنه لا يعني تحريم القراءة والكتابة على الناس، ولا يعني الغض من شأنهما؛ فكذلك الشعر.

- أما مقولة الأصمعي: "إن الشعر نَكِدٌ، بابه الشر، فإذا دخل إلى الخير لان؛ هذا حسان كان فحلًا في الجاهلية؛ فلما جاء الإسلام ضعف شعره". هذه المقولة فيها كلام؛ لأنه ليس صحيحًا أن كل الشعر إذا دخل الخير لان؛ أي: ضعف.

- ونحن نحتج على ذلك بمعلقة زهير بن أبي سُلمى وهي جاهلية، وهي من أروع الشعر وأبدعه، والقصيدة كلها ليس فيها شيء من الشر؛ فهي دعوة إلى الصلح وإشادة بمكارم الأخلاق؛ فكيف يقال: إن الشعر إذا دخل الخير لان؟! وكيف يقال: إن الشعر لا يجود ولا يقوى إلا في الشر؟! وعندنا شعر الحكمة، وشعر المديح الصادق، وشعر الرثاء، كلها من أبواب الخير، وكلها فيها شعر جيد وقوي.

- والقول بأن حسان بن ثابت كان فحلًا في الجاهلية وأن شعره ضعف في الإسلام، هذا أيضًا كلام لا يسلم على إطلاقه؛ لأن النقاد قالوا: إن الشعر اللين الضعيف الذي يروى لحسان في الإسلام هو شعر منحول محمول عليه، والذي يقرأ شعر حسان في الدفاع عن رسول الله ﷺ والرد على المشركين، وفي رثاء الرسول ﷺ يدرك أن حسان يحتفظ بفحولته، وأن شعره لم يضعُف.

- والقول بأن المسلمين تشاغلوا عن الشعر وتركوه، وانشغلوا بالقرآن وبالجهاد وبالفتوح... يمكن أن يكون ذلك قد حدث، لكنه لم يحدث مع كل الشعراء، ولم

يحدث طول الوقت ؛ لأننا نقرأ أن الرسول ﷺ انتدب حسان بن ثابت، وانتدب غيره للرد على المشركين الذين كانوا يهجون الرسول ﷺ ويعيبون دينه، وأن الرسول ﷺ شجَّع نفرًا من أصحابه الشعراء على الرد على هؤلاء المشركين والدفاع عن الرسول ﷺ وعن الإسلام.

ويدل ذلك على موقف الرسول محمد ﷺ من الشعر، وهذا ليس غريبًا، فالرسول عربيٌّ فصيحٌ ؛ بل هو أفصح العرب ﷺ وهو يطرب للكلمة البليغة الفصيحة ويقدِّرها حق قدرها، ما دامت هذه الكلمة تتوخَّى الغاية الشريفة التي تتناسب مع قيم الإسلام وأخلاقه وعقيدته ؛ ولهذا نجده ﷺ يقول : ((إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة))، ويروى عنه أيضًا : ((الشعر بمنزلة الكلام : حسنه كحسن الكلام، وقبيحه كقبيح الكلام)).

وإذًا فقوله ﷺ في الحديث الذي احتج به من قال بضعف الشعر في الإسلام، أو بأن الإسلام غضَّ من شأن الشعر، وهو القائل : ((لأن يمتلئ جوف أحدكم -أو قلب أحدكم- قيحًا خير من أن يمتلئ شعرًا)) أو كما قال ﷺ فهذا يفسر على أن يكون هذا الامتلاء شاغلًا لهذا القلب عن ذكر الله ﷻ أو أن يكون ممتلئًا بالشعر الذي لا يتوافق مع عقيدة الإسلام ومع أخلاقه ومُثُله.

وإذًا ؛ فالرسول ﷺ لم يحرم الشعر ولم يهجِّنه، أو لم يحرم الشعر كله، وإنما وجه الشعر إلى الوجهة الصحيحة التي تناسب عقيدة الإسلام وتناسب أخلاقه، وحرم ﷺ الشعر الذي ينحو منحًى مغايرًا لذلك، وهو بذلك متفق مع ما ورد في القرآن الكريم في الآيات التي غضت من شأن نوع من الشعر وفريق من الشعراء، أولئك الذين يتبعهم الغاوون، وأنهم في كل واد يهيمون، ويقولون ما لا يفعلون ؛ فهؤلاء كذابون، لكن الشعراء الصادقين والشعر الذي يتوخى الحق

ويتغيا العدل والنبل والأخلاق ؛ فإن الرسول ﷺ كان يستمع إليه ويعجب به ، ويطلب من بعض أصحابه أن ينشدوه إياه.

- والروايات الدالة على توجيه الرسول ﷺ للشعراء من أصحابه ألا يسلكوا مسالك الجاهلية في قولهم الروايات في ذلك كثيرة ؛ فقد روي أنه سمع كعب بن مالك يقول :

مُدافعُنا عن جذمنا كلُّ فخمة ❖ مدربة فيها القوانس تلمع

والجذم : الأصل والقبيلة ، طلب منه الرسول ﷺ أن يغير كلمة "جذمنا" ، أي : أصلنا وقبيلتنا ، ويجعل مكانها كلمة "ديننا" ؛ لأن الإسلام جعل رابطة الدين هي الرابطة التي تسود وتعلو كل رابطة حتى لو كانت رابطة القبيلة والقرابة ، واستجاب كعب > وحين قال النابغة الجعدي :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ❖ وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

أحس النبي ﷺ أن الشاعر يتوجه توجهًا جاهليًّا في الفخر ، فقال له : ((إلى أين يا أبا يعلى؟! فقال : إلى الجنة. فقال النبي ﷺ : إن شاء الله)).

ولما أنشد عبد الله بن رواحة > قوله :

فَخَبِّروني أَثمانَ العَباءِ مَتى ❖ كُنتُم بَطاريقَ أَو دانَت لَكُم مُضَرُ

يخاطب قريشًا ، يقول ابن رواحة : "فكأني عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهية أن جعلت قومه أثمان العباء ؛ فقلت على الفور :

نُجالِدُ الناسَ عَن عُرضٍ فَنَأسِرُهُم ❖ فينا النَبِيُّ وَفينا تَنزِلُ السُوَرُ

فعاد رسول الله ﷺ إلى طبيعته ورضاه.

ولما أنشد كعب بن زهير قصيدته التي اعتذر فيها إلى الرسول ﷺ وقال :

إن الرسول لنور يستضاء به ❖ مهند من سيوف الهند مسلول

قال ﷺ: "من سيوف الله"؛ فأصلحها كعب، بدل "سيوف الهند".

ومن هذا الباب: استحسانه ﷺ للشعر الحسن الذي كان يتضمن معاني نبيلة؛ فكان ﷺ يستجيده ويبدي الرضا عنه وعن صاحبه:

لما أنشده النابغة الجعدي قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ❖ بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ❖ حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

دعا له بالخير، وسر بقوله، وقال له: ((أجدت -أي: أحسنت- لا يفضض الله فاك)). ويقال: إن النابغة -ببركة هذه الدعوة المباركة- عاش مائة وثلاثين سنة لم تسقط له سنٌّ، ولما أنشده كعب بن مالك قوله:

جاءت سخينة كي تغالب ربها ❖ فليغلبن مُغالب الغلاب

استحسن منه ذلك، وقال: ((لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا)).

ويقال: إنه ﷺ روي له قول سحيم عبد بني الحسحاس:

الحمد لله حمدًا لا انقطاع له ❖ فليس إحسانه عنا بمقطوع

قال: ((أحسن وصدق، وإن الله ليشكر مثل هذا، وإن سدد وقارب إنه لمن أهل الجنة)).

بل إن الرسول ﷺ يروى عنه: أنه كان يستجيد بعض الأشعار التي قيلت في الجاهلية، عندما يجد فيها معنًى يلتقي مع القيم الكريمة النبيلة التي يدعو إليها الإسلام:

فيروى أنه سمع قول سويد بن عامر:

لا تأمنن وإن أمسيت في حرم ❖ إن المنايا بجنبي كل إنسان
فكل ذي صاحبٍ يومًا يفارقه ❖ وكل زاد وإن أبقيته فان

قال ﷺ : ((لو أدرك هذا الإسلام لأسلم)).

ويروى أنه كان يبدي إعجابه بقول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ❖ حتى أنال به كريم المأكل

وأنه ﷺ قال : "ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة"، وكان ﷺ يطلب من السيدة عائشة > أن تسمعه بين الحين والآخر أبياتًا تحفظها، وفيها يقول الشاعر :

ارفع ضَعيفَكَ لا يُحِرِ بكَ ضُعفَهُ ❖ يومًا فَتُدرِكُهُ عَواقِبُ ما جَنَى
يَجزيكَ أو يُثني عَليكَ وإنَّ مَن ❖ أثنى عَليكَ بما فَعَلتَ كَمَن جَزَى

فيقول الرسول ﷺ : ((صدق يا عائشة؛ إن الله ﷻ إذا أجرى لرجل على يدي رجل خيرًا فلم يشكره؛ فليس لله بشاكر)).

وكان الرسول ﷺ يختزن في ذاكرته بعضًا من أشعار الجاهليين التي تدعو إلى الفضيلة ويتذكرها حين تنشد أمامه؛ فقد جاء عن أبي وداعة قال: رأيت رسول الله ﷺ وأبا بكر عند باب؛ فمر رجل وهو يقول:

يا أيها الرجل المحول رحله ❖ ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم ❖ منعوك من هدم ومن إقتار

فالتفت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر قائلًا: ((أهكذا قال؟!)) قال أبو بكر: لا والذي بعثك بالحق، ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله ❖ ألا نزلت بآل عبد مناف

هبلتك أمك لو نزلت برحلهم ❖ منعوك من عدم ومن إقراف
الخالطين فقيرهم بغنيهم ❖ حتى يعود فقيرهم كالكافي

فهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان يعرف الرواية الصحيحة للأبيات ؛ ولذلك سأل أبا بكر عنها.

- ومن هذا الباب أيضًا : سماعه ﷺ للشعر واستجابته لمن استشفعوا بين يديه بالشعر في رد مظلمة عنهم :

وقد روي أنه لما تظاهرت بنو بكر وقريش على قبيلة خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد بفعلهم هذا، وكانت خزاعة حليفة لرسول الله ﷺ والمسلمين، خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ فوقف بين يديه وهو جالس في المسجد ؛ فأنشده قائلًا :

يا رب إني ناشد محمدًا ❖ حلف أبينا وأبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا وكنا والدا ❖ ثُمّتَ أسْلَمْنَا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا ❖ وادعُ عباد الله يأتوا مددا

فاستجاب له رسول الله ﷺ وقال : ((نُصِرت يا عمرو بن سالم)).

وقد أنشده كعب بن زهير قصيدته التي اعتذر فيها له ﷺ والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ❖ ....

وقد أشرنا إليها قبل ذلك، وقد استمع الرسول ﷺ لها، وأثاب عليها كعبًا -كما قالوا- وأهداه بردته الشريفة ؛ فكل ذلك يدل على أن الرسول ﷺ لم يحرم الشعر ولم يستهجنه، وأنه كان ﷺ يستجيد الجيد منه ويستحسنه، وأنه كان يوجه

الشعراء وجهة إسلامية خلقية تتفق ومبادئ الإسلام، وأنه كان ﷺ لا يكره من الشعر إلا ما كان يختلف مع عقيدة الإسلام وقيمه وأخلاقه.

وكيف يقال: إن الإسلام يغض من الشعر ويهوّن من شأنه والرسول ﷺ استخدم الشعر سلاحًا في دعوته إلى الدين وفي رده على المشركين، وأنه كان يشجع أصحابه من الشعراء - خاصة حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة - ويروى أنه كان يقول لحسان: ((اهجهم وروح القدس معك)).

هذا عن موقف القرآن الكريم، وموقف الرسول ﷺ من الشعر.

أما أصحابه الكرام، ومنهم خلفاؤه الراشدون } فقد كانت مواقفهم من الشعر والشعراء مستمدة من موقف القرآن الكريم، وموقف الرسول ﷺ فقد كانوا { غير منصرفين ولا معرضين عن الشعر، وكان أكثرهم يقول الشعر ويستشهد به ويستحسنه إذا ما كان موافقًا لمبادئ الإسلام في العقيدة والأخلاق.

يدل على ذلك ما روي عن أبي سلمة: إذ يقول: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ متحزقين ولا متماوتين. كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من أمر دينه؛ دارت حماليق عينيه كأنه مجنون.

وكانوا يتناشدون الأشعار على مسمع ومرأى من رسول الله ﷺ قال جابر بن سمرة: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة؛ فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد، وأشياء من أمر الجاهلية؛ فربما تبسم رسول الله ﷺ.

الخلاصة: أن الإسلام لم يضعف من الشعر، ولم يغض من شأنه، ولم يحرمه، وأن الآيات التي جاءت في القرآن تنفي عن القرآن أنه شعر، وعن الرسول أنه شاعر؛ لا يفهم منها إلا تنزيه القرآن عن ذلك، وإثبات أنه وحي الله وكلام الله،

وأن الرسول ﷺ لم يكن كما وصفه بعض المشركين بأنه شاعر أو كاهن، وأن الذي روي عن رسول الله ﷺ من توجيه الشعراء إلى الوجهة الصحيحة المتفقة مع عقيدة الإسلام وأخلاقه في قول الشعر، واستجادته للشعر الجيد، وإجازة روايته أمامه؛ بل والثناء على بعض الشعراء في بعض المواقف، وسير أصحابه الكرام على سيرته في ذلك؛ كل هذا يدل على أن الإسلام لم يغض من شأن الشعر ولم يضعفه.

ومسألة قوة الشعر وضعفه تختلف من شاعر إلى شاعر ومن قصيدة إلى قصيدة حسب قوة العاطفة والدافع، وإجادة التعبير والتصوير، ونحن لو تتبعنا شعر هذه الفترة - فترة ظهور الإسلام في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين- نستطيع أن نجد شعرًا ضعيفًا، وشعرًا قويًّا، وشعراء كبارًا احتفظوا بفحولتهم، وشعراء ضعفت شاعريتهم؛ لعوامل ليس منها أن الإسلام حرم الشعر أو هون من شأنه.

شعر المخضرمين، وأثر الإسلام فيه

والشعراء المخضرمون هم الشعراء الذين عاشوا فترة، أو عاشوا شطرًا من أعمارهم في الجاهلية وأدركهم الإسلام؛ فأسلموا ودافعوا عن الرسول ﷺ وعن الإسلام في شعرهم، وكان من أشهرهم: حسان بن ثابت > .

وترجع أهمية حسان إلى أنه كان أبرز الشعراء الذين رفعوا راية النضال والجهاد ضد المشركين، وأنه أقوى شاعر اعتمد عليه الرسول ﷺ في الدفاع عنه وعن الدين؛ كان حسان في الجاهلية شاعرًا ذائع الصيت له قصائده الطويلة الجيدة، وله في الإسلام أشعار كثيرة وقصائد جيدة كذلك، وهو في شعره يساير الدعوة

الإسلامية ؛ فله في كل مناسبة إسلامية قصيدة أو قصائد ، ومن جيد قصائده التي كان لها أثر طيب في نفس الرسول ﷺ والمسلمين معه : قصيدته في فتح مكة ، ومنها قوله :

عدمنا خيلنا إن لم تروها ❖ تثير النقع موعدها كُداء
ينازعن الأعنة مصغيات ❖ على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات ❖ يلطمهن بالخمر النساء

وفيها يقول :

وجبريل رسول الله فينا ❖ وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله قد أرسلت عبدًا ❖ يقول الحق إن نفع البلاء

ولما مات الرسول ﷺ بكاه حسان بشعر صادق مؤثر ، ومن هذا الشعر قوله :

تالله ما حملت أنثى ولا وضعت ❖ مثل الرسول نبي الأمة الهادي
ولا برأ الله خلقًا من بريته ❖ أوفى بذمة جار أو بميعاد
من الذي كان فينا يستضاء به ❖ مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد

إلى أن يقول :

يا أفضل الناس إني كنت في نهر ❖ أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

ومن الشعراء المخضرمين الذين سخروا فنّهم الشعري لخدمة الإسلام والدفاع عنه أيضًا : كعب بن مالك < :

كان كعب مؤمنًا قوي الإيمان ، تقيًّا شديد التقى ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ويدعو له بالخير ، ويشجعه على شعره الجيد في الدفاع عن الإسلام والدعوة إليه.

ومن شعره في غزوة بدر رادًّا على أحد الشعراء المشركين يقول :

عجبت لأمر الله والله قادر ❖ على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرًا ❖ بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

إلى أن يقول:

وفينا رسول الله والأوس حوله ❖ له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه ❖ يمشون في الماذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ❖ بأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ❖ وأن رسول الله بالحق ظاهر

إلى أن يقول:

وكان رسول الله قد قال أقبلوا ❖ فولوا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ❖ وليس لأمر حمَّه الله زاجر

ومنهم أيضًا: عبد الله بن رواحة < :

قال عنه ابن سلام: عظيم القدر في قومه، سيد في الجاهلية، ليس في طبقته أسود منه -يعني: أعلى منه- كان < من السابقين إلى الإسلام؛ فقد شهد العقبة مع السبعين الذين عاهدوا رسول الله ﷺ وكان أحد النقباء الاثني عشر الذين أخذوا البيعة، فلما كانت الغزوات والحرب أبلى بلاء حسنًا؛ فشهد بدرًا، وأُحُدًا، والخندق، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، وكان عبد الله بن رواحة < من أمراء المسلمين وقادة جيشهم في غزوة مؤتة. ومن شعره في هذه الغزوة أبيات يعبر فيها عن تمنيه الشهادة في سبيل الله، يقول فيها:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ❖ وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حران مجهزة ❖ بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدث ❖ أرشده الله من غازٍ وقد رشدا

ومن شعره أيضًا في هذه الغزوة يقول مخاطبًا ناقته:

إذا أديتني وحملت رحلي ❖ مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعُمٌ وخلاك ذم ❖ ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغادروني ❖ بأرض الشام مشتهي الثواء
وردك كل ذي نسب قريب ❖ إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل ❖ ولا نخل أسافلها رواء

وقال يحمس نفسه ويدعوها إلى الثبات في الحرب عندما اشتدَّ الخطر:

أقسمت يا نفس لتنزلنه ❖ لتنزلن أو لتكرهنه
إذا أجلب الناس وشدوا الرنة ❖ ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة ❖ هل أنت إلا نطفة في شنة

ثم قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتي ❖ هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت ❖ إن تفعلي فعلهما هديت

ويريد بالإشارة إلى الضمير في قوله: "إن تفعلي فعلَهما هديت" يريد: صاحبيه: زيدًا بن حارثة < وجعفر بن أبي طالب < وقد قاتل < أشد القتال حتى لقي ربه شهيدًا فيها.

ومن الشعراء المخضرمين الذين دافعوا بشعرهم عن الإسلام ورسوله ﷺ: النابغة الجعدي:

وهو عبد الله بن قيس من بني جعدة العامريين، ولد بالفلج جنوبي نجد، ووفد مع قومه على رسول الله ﷺ سنة تسع للهجرة، ويبدو أنه أقام في المدينة ولم يرجع مع قومه، وله في الإسلام شعر جيد، منه قوله:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ❖ ويتلو كتابًا كالمجرة نيرا
وجاهدت حتى ما أحس ومن معي ❖ سهيلًا إذا ما لاح ثم تغورا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ❖ وكنت من النار المخوفة أوجرا

ومن شعره أيضًا قوله:

عمرت حتى جاء أحمد بالهدى ❖ وقوارع تتلى من القرآن
ولبست بالإسلام ثوبًا واسعا ❖ من ثيبِ لا حَرِمٍ ولا منان

وله قصيدة يبدو فيها أثر القرآن واضحًا، وفيها ينحو منحى الوعظ، يقول فيها:

الحمد لله لا شريك له ❖ من لم يقلها فنفسَه ظلما
المولج الليل في النهار وفي الـ ❖ ليل نهارًا يفرج الظلما
الخافض الرافع السماء على الـ ❖ أرض ولم يبن تحتها دعما
الخالق البارئ المصور في الـ ❖ أرحام ماء حتى يصير دما

... إلى آخر القصيدة. وكما قلت يبدو أثر القرآن الكريم واضحًا جليًّا فيها.

ومن الشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية والإسلام: الحطيئة:

وكان الحطيئة معروفًا بهجائه الشديد، وليس له في تاريخ الإسلام شيء يُعد له، وورود بعض المعاني الإسلامية في شعره لا يدل على أنه كان ذا حظ من الدين والورع، وأول ذكر للحطيئة مرتبط بالإسلام، أو أول ظهور له في تاريخ الإسلام والمسلمين: ظهوره مع المرتدين في عهد أبي بكر < فلم يكن الحطيئة في الوفود التي أسلمت في حياة رسول الله ﷺ، ويقال: إنه أسلم بعد وفاته ﷺ والرواة يقولون: إنه كان رقيق الإسلام فاسد الدين، وقد قال شعرًا مشهورًا ذائعًا في الردة يحرض فيه على قتال المسلمين، ومن هذا قوله:

أ عنا رسول الله إذ كان صادقًا ❖ فيا عجبًا ما بال دين أبي بكر
أيورثنا بكرًا إذا مات بعده ❖ فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

ولما هزم المرتدون؛ وقع الحطيئة أسيرًا سنة إحدى عشرة من الهجرة الشريفة، ويقال: إنه أقلع عن الكفر وحسن إسلامه فيما بعد، واشترك في معركة القادسية، وأخذ يحرض المسلمين على الاستبسال ضد الفرس.

ويقال: إنه هجا الزبرقان بن بدر هجاء مقذعًا فشكاه إلى عمر بن الخطاب > فحبسه، فقال أبياتًا يستعطف فيها عمر، قال فيها:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ ❖ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
غيبت كاسبهم في قعر مظلمة ❖ فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمين الذي من بعد صاحبه ❖ ألقت إليك مقاليد النُّهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها ❖ لكن لأنفسهم كانت بها الأثر

ومن المعاني الإسلامية الجليلة التي وردت في شعره قوله:

ولست أرى السعادة جمع مال ❖ ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا ❖ وعند الله للأتقى مزيد
وما لابد أن يأتي قريب ❖ ولكن الذي يمضي بعيد

والتأثر بأسلوب القرآن الكريم واضح في هذه الأبيات؛ فنحن عندما نسمعها نتذكر قول الله ﷻ: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفي الأبيات السابقة عليها يتأثر بقول الله ﷻ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

ومن تأثره بالإسلام أيضًا: أننا نجده يكثر من جزاء الله لممدوحه على ما يقدم له من البر، على شاكلة قوله في بعض ممدوحيه:

فليجزه الله خيرًا من أخي ثقة ❖ وليهده بهدى الخيرات هاديها

وقد يستهل المدح بالثناء على الله في مثل قوله:

الحمد لله إني في جوار فتًى ❖ حامي الحقيقة نفّاع وضرّار

وأثنى أبو عمرو بن العلاء على الحطيئة قائلًا: لم تقل العرب بيتًا قط أصدق من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ❖ لا يذهب العرف بين الله والناس

وفي هذا كله ما يدل على أنه حسن إسلامه، وتأثر بالإسلام وبالقرآن وبما ورد فيهما من المعاني النبيلة والعظات الشريفة.

ويبدو أن الأصمعي بالغ في ذمه؛ حيث قال: "كان الحطيئة جشعًا، سئولًا، ملحفًا، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلًا، قبيح المنظر، رث الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين. وما تشاء أن تقول في شاعر من عيب إلا وجدته، وقلما تجد ذلك في شعره".

وقد يكون الحطيئة رقيق الدين؛ ولكنه ليس فاسده؛ فقد كان في شعره يستشعر عظمة الله ﷻ ويذكر جزاءه لأهل الخير؛ وفي هذا ما يدل على تأثره الواضح بالإسلام.

ويبدو في شعر المخضرمين آثار من الجاهلية القديمة التي عاشوا فيها؛ كما يبدو تأثرهم الواضح بالإسلام وبالقرآن الكريم على تفاوت فيما بينهم.

الخصائص الموضوعية والفنية لشعر صدر الإسلام

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	شعر الدعوة الإسلامية	٢٩٥
العنصر الثاني	:	شعر الفتوحات الإسلامية	٣٠٢

شعر الدعوة الإسلامية

انتدب الشعر ليكون سلاحًا من أسلحة الدعوة، فقد حكى ابن هشام أن رسول الله ﷺ قال للأنصار: ((ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم؟!)) قال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقول بين بصرى وصنعاء. فقال له: ((وكيف تهجوهم وأنا منهم؟)) قال: إني أسلُّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين. قال: ((اذهب إلى أبي بكر فيحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم، ثم اهجهم وجبريل معك))، فأخذ حسان بن ثابت يهجوهم، وكثيرًا ما كان يقول له ﷺ: ((شن الغارة على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع الحسام في غلس الظلام))؛ إذًا دخل الشعر المعركة بين الإسلام والشرك.

والمعركة بين الإسلام والشرك لم تكن خصومةً مبنيةً على العصبية القبلية، ولا دفاعًا عن رياسةٍ ولا مياهٍ ولا مرعًى -كما كان الشأن في العصر الجاهلي- الخصومة في الإسلام، أو بعد الإسلام كانت بين المسلمين والمشركين على أساس الاختلاف في الدين؛ لما أنكر القرشيون على محمد ﷺ دينه، وترصدوه وحاربوه هو والمؤمنين معه.

وهكذا كان الشعر أو الشعراء فريقين: فريق مع كفار قريش يهجو الرسول ﷺ والمسلمين وينفر منهم، ويثبط عزائمهم؛ وفريق آخر مع الرسول ﷺ والمسلمين يدافع عن الإسلام ويبين محاسنه، ويدعو إليه، ويرد على خصومه.

ففي يوم بدر: لما وقعت غزوة بدر، وانتصر المسلمون؛ قال ضرار بن الخطاب، وهو من شعراء المشركين:

عجبت لفخر الأوس والحين دائر ❖ عليهم غدًا والدهر فيه بصائرُ
وفخر بني النجار أن كان معشر ❖ أصيبوا ببدر كلهم ثَمَّ صابرُ
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا ❖ فإنا رجالًا بعدهم سنغادر
وتردي بنا الجرد العناجيج وسطكم ❖ بني الأوس حتى يشفيَ النفسَ ثائرُ
ووسط بني النجار سوف نكرُّها ❖ لها بالقنا والدارعين زوافر
فنترك صرعى تعصب الطير حولهم ❖ وليس لهم إلا الأمانيُّ ناصرُ
وتبكيهمو من أهل يثرب نسوة ❖ لهن بها ليل عن النوم ساهر
وذلك أنا لا تزال سيوفنا ❖ بهن دم مما يحاربن مائرُ

وضرار بن الخطاب في هذه الأبيات يتوعد المسلمين والأنصارَ منهم خاصة -أهل المدينة- ويذكر منهم بني النجار، ويقول: إنهم -أي: المشركون- سيثأرون لأنفسهم مما حدث لهم في بدر.

وفي الأبيات كلمات تحتاج إلى تفسير منها: تردي أي: تسرع، والعناجيج: جمع عنجوج، وهو الطويل السريع؛ يصف الخيول بالسرعة والطول. والثائر: الطالب لثأره، وتعصب أي: تجتمع عصائبَ عصائبَ؛ أي: جماعات جماعات، ومائر، أي: سائل؛ يقال: مار يمور إذا سال.

فلما قال ضرار هذا الشعر أجابه من شعراء المسلمين كعب بن مالك < فقال:

عجبت لأمر الله والله قادر ❖ على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقيَ معشرًا ❖ بغوا وسبيل الغي بالناس جائرُ
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ❖ من الناس حتى جمعهم متكاثر
وسارت إلينا لا تحاول غيرنا ❖ بأجمعها كعبٌ جميعًا وعامر
وفينا رسولُ الله والأوس حوله ❖ له معقل منهم عزيز وناصرُ

وجمع بني النجار تحت لوائِهِ ❖ يميسون في الماذي والنقع ثائر

يميسون، أي: يمشون مشي التبختر، والماذي: الدروع البيض اللينة، والنقع: الغبار، وثائر، أي: مرتفع فوق رءوسهم.

ثم يقول كعب بن مالك:

فلما لقيناهم وكل مجاهد ❖ لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا ربَّ غيره ❖ وأن رسول الله بالحق ظاهرُ
وقد عُرِّيَتْ بِيْضٌ خِفَافٌ كأنها ❖ مقابيسٌ يزهيها لعينيك شاهر
بهن أَبَدْنَا جمعهم فتبددوا ❖ وكان يلاقي الحَيْنَ من هو فاجرُ
فَكُبَّ أبو جهلٍ صريعًا لوجهه ❖ وعتبةُ قد غادَرْتَهُ وهو عاثرُ
وشيبة والتيميَّ غادرن في الوغى ❖ وما منهمو إلا بذي العرش كافر
فأمسوا وقودَ النار في مستقرها ❖ وكل كفور في جهنم صائرُ
تلظّى عليهم وهي قد شب حميها ❖ بزبر الحديد والحجارة ساجرُ
وكان رسول الله قد قال أقبلوا ❖ فولوا وقالوا إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ❖ وليس لأمرٍ حَمَّهُ اللهُ زاجرُ

ومن هذا الصراع بين الشعر في معسكر الكفار والمشركين، والشعر في معسكر المسلمين: ما قاله عبد الله بن الزبعرى، يبكي قتلى بدر من المشركين، فيقول:

ماذا على بدر وماذا حوله ❖ من فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كرام
تركوا نُبيهًا خلفهم ومُنبهًا ❖ وابني ربيعة خير خصم فئام
والحارث الفياض يبرق وجهه ❖ كالبدر جلًا ليلة الإظلام

إلى أن يقول:

وإذا بكى باكٍ فأعول شجوه ❖ فعلى الرئيس الماجد بن هشام
حيًّا الإله أبا الوليد ورهطه ❖ رب الأنام وخصه بسلامِ

وهو هنا يتحدث عن أبي جهل ويرثيه ويعلن حزنه عليه ؛ كما بكى غيره من قادة المشركين. فأجابه حسان بن ثابت > بقوله :

ابكِ بكت عيناك ثم تبادرت ❖ بدمٍ يُعَلُّ غروبها سجام
ماذا بكيت به الذين تتابعوا ❖ هلا ذكرت مكارم الأقوام

يقول له : من هؤلاء الذين تذكرهم أيها الشاعر المشرك؟! هلَّا ذكرت محمدًا ﷺ وآمنت به :

ماذا بكيت به الذين تتابعوا ❖ هلا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرت منا ماجدًا ذا همة ❖ سمح الخلائق صادق الإقدام
أعني النبي أخا المكارم والندى ❖ وأبر من يُوْلِي على الأقسام
فلمثله ولمثل ما يدعو له ❖ كان المُمَدَّحَ ثم غير كهام

والماجد : الشريف ، يُولي ، أي : يقسم ويحلف ، والكهام : الضعيف.

ومن هذا الشعر أيضًا : ما قاله حسان ، ويصور حسان بن ثابت > واقعة بدر التي انتصر فيها المسلمون على الكفار نصرًا عزيزًا مؤزرًا فيقول :

لقد علمت قريش يوم بدر ❖ غداة الأسر والقتل الشديد
بأنا حين تشتجر العوالي ❖ حماةُ الحرب يوم أبي الوليد
قتلنا ابني ربيعة يوم ساروا ❖ إلينا في مضاعفة الحديد
وفرَّ بها حكيمٌ يوم جالت ❖ بنو النجار تخطر كالأسودِ
وولَّتْ عند ذاك جموع فهر ❖ وأسلمها الحويرث من بعيد

لقد لاقيتمو ذلًا وقتلًا ❖ جهيزًا نافذًا تحت الوريدِ
وكل القوم قد ولّوا جميعًا ❖ ولم يلووا على الحسب التليد

واستمر الشعر الإسلامي مواكبًا للدعوة وظروفها، يمجد الانتصارات ويرد على الهاجين من المشركين، ويرثي شهداء المسلمين:

ومن ذلك: ما قاله عبد الله بن رواحة يرثي حمزة > بقوله:

بَكَتْ عَيَنِي وحُقَّ لها بُكاها ❖ وما يُغْنِي البُكاءُ ولا العَوِيلُ
على أسدِ الإلهِ غَداةَ قالُوا ❖ أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصِيبَ المُسْلِمُونَ به جَميعًا ❖ هناك وقد أصيب به الرسولُ
أبا يعلى لك الأركان هُدت ❖ وأنت الماجدُ البرُّ الوصولُ
عليك سلام ربك في جنان ❖ يخالطها نعيمٌ لا يزولُ
ألا يَا هاشمَ الأخيارِ صبرًا ❖ فكل فِعَالِكُم حسنٌ جميلُ
رسول الله مصطبرٌ كريم ❖ بأمر الله ينطق إذ يقولُ
ألا من مبلغ عني لؤيًّا ❖ فبعد اليوم دائلة تدول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا ❖ وقائعنا بها يُشْفَى الغليلُ

ومن شعر الدعوة الإسلامية كذلك: ما قاله الشعراء المسلمون في مديح رسول الله ﷺ مشيدين بشمائله الكريمة وفضائله النبيلة التي حباه الله ﷻ بها، من ذلك: قول أبي دعبل الجمحي يمدح الرسول ﷺ فيقول:

إن البيوت معادن فنجاره ❖ ذهب وكل بيوته ضخمُ
عقم النساء فما يلدن شبيهه ❖ إن النساء بمثله عُقُمُ
متهللٌ ينعم بلا متباعد ❖ سيان منه الوفر والعُدْمُ
نظر الكلام من الحياء تخاله ❖ ضمنًا وليس بجسمه سقم

ومن ذلك أيضًا قول كعب بن زهير:

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعدَني ❖ والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مأمول
مَهْلًا هَدَاكَ الذي أعْطَاكَ نافلَةَ الْـ ❖ ـقُرْآنَ فيها مَوَاعِيظُ وتَفْصِيلُ

إلى أن قال:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ به ❖ مهنَدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
في فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ❖ ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زَالُوا فما زالَ أَنْكَاسٌ ولا كُشُفُ ❖ عند اللِّقَاءِ ولا ميلٌ مَعَازِيلُ

وهو هنا يمدح المهاجرين مع مدحه لرسول الله ﷺ. ومن هذا المديح أيضًا: قول النابغة الجعدي من قصيدةٍ في مدح الرسول ﷺ:

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ❖ ويتلو كتابًا كالمجرة نيرًا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ❖ وكنت من النارِ المخوفة أحذرَا

ومن شعر الدعوة الإسلامية كذلك: التمدح بالخصال التي دعا إليها الإسلام في معرض الثناء على النفس أو الغير.

ومن ذلك مثلًا: قول معن بن أوس:

لعمرك ما أهويت كفي لريبة ❖ ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ❖ ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلمُ أني لم تصبني مصيبةٌ ❖ من الدهر إلا قد أصابت فتًى قَبْلي
ولستُ بماشٍ ما حييتُ لمنكرٍ ❖ من الأمرِ لا يمشي إلى مثلهِ مثلي
ولا مؤثرًا نفسي على ذي قرابَتي ❖ وأوثر ضيفي ما أقامَ على أهلي

وإذا أردنا أن نتحدث عن الخصائص الموضوعية والفنية لشعر الدعوة الذي أوردنا نماذج منه؛ فإننا نلاحظ أن هذا الشعرساير الدعوة الإسلامية في جهادها للكفار

والمشركين، وأنه أعلن مبادئ هذه الدعوة، ورد على المشركين من الشعراء الذين حاولوا أن يصدوا الناس عنها، ونلاحظ أن الأغراض التي سلكها هذا الشعر هي أغراض معروفةٌ من قبل كالهجاء والمديح والحماسة والرثاء.

لكن المعاني التي عبَّر عنها الشعراء المسلمون معانٍ جديدة، تأثروا فيها بدينهم الحنيف، فهم يمدحون بالصدق، ويمدحون بالتقى، ويمدحون بالإيمان، ويعيرون الكفار بكفرهم وبصدودهم عن الدين الجديد، وبإعراضهم عن رسول الله ﷺ ويذكرون في شعرهم الجنة والنار، ويستفيدون من معاني القرآن الكريم، ومعاني الحديث النبوي الشريف.

كما أن هذا الشعر تختفي منه أغراض حرمها الإسلام كشعر الخمر، والمقدمات الغزلية الفاحشة أو الماجنة، والوقوع في الأعراض في الهجاء، وغير ذلك مما نهى الإسلام عنه.

كما نلاحظ أن هذا الشعر متأثرٌ في معجمِهِ -أي: في لغته- بلغة القرآن الكريم وألفاظه، واستمر الشعر مصاحبًا لمسيرة الدعوة بعد وفاة رسول الله ﷺ في عهد أبي بكر، وحين يخرج مُسيلمة الكذاب يدعي النبوة ويرتد، ويفتن جماعاتٍ من العرب معه، يقول أحد الشعراء المسلمين:

دعانا إلى ترك الديانةِ والهُدَى ❖ مسيلمةُ الكذاب إذ جاء يسجعُ
فيا عجبًا من معشرٍ قد تتابعوا ❖ له في سبيل الغيِّ والغيُّ أشنعُ

ولما انتصر المسلمون على المرتدين؛ عاد كثيرٌ من الإسلام، وصوَّرَ الشعرُ ذلك؛ فهذا واحدٌ من العائدين إلى الدين يندم على ما فرط منه، وهو جُندب بن سلمى أحد بني شنوق من بني مدلج، يقول:

ندمت وأيقنت الغداةَ بأنني ❖ أتيت التي يبقى على المرء عَارُهَا
شهدت بأن الله لا شيء غيره ❖ بني مدلج فالله ربي وجارها

وهو هنا يعلن توبته عما حدث منه وندمه على استجابته لنداء الردة.

ويرى المسلمون العجائب في حربهم للمرتدين، ويرون علامات تأييد الله ﷻ لهم وتيسير النصر لهم؛ فهذا واحدٌ من شعراء المسلمين يقول:

ألم تر أن الله ذلَّلَ بحره ❖ وأنزل بالكفار إحدى الجلائلِ
دعونا الذي شقَّ البحارَ فجاءنا ❖ بأعجب من فلقِ البحارِ الأوائلِ

وهكذا صور الشعر مراحل الدعوة الإسلامية، وتأثر بالمعاني الإسلامية، وبأسلوب القرآن الكريم وألفاظه.

شعر الفتوحات الإسلامية

دعا الله ﷻ المؤمنين إلى الجهاد في سبيله، ودعاهم إلى أن يبلغوا دين الله إلى الناس، ورغَّبَهُم في الاستشهاد في سبيله، ووعد الشهداء بجنةٍ عرضها السموات والأرض، وأخبر القرآن الكريم أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وبدافع هذه العقيدة خرج المسلمون بدينهم يدعون الناس في مشارق الأرض ومغاربها إلى الإسلام، ويحاربون من تصدَّى لهم، وأراد أن يطفئ نور الله.

تصوير البطولات: وقد شهدت الفتوحات بطولاتٍ نادرةً، وساير الشعر هذه الفتوحات، وصوَّرَ هذه البطولات، من ذلك مثلًا: أن أبناء الشاعرة الكبيرة

المعروفة بالخنساء شاركوا في معركة القادسية ، وقد حَثَّتْهُم أمهم على القتال والإقدام ، فلما أضاء لهم الصبح ؛ أخذوا مواقعهم في الصفوف ، وقال أحدهم :

يا إخوتي إن العجوز الناصحة ❖ قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة
مقالةً ذات بيانٍ واضحة ❖ فباكروا الحربَ الضروسَ الكالحةْ
وإنما تلقون عند الصائحة ❖ من آل ساسان الكلابَ النابحةْ
قد أيقنوا منكم بوقعِ الجائحةْ ❖ وأنتم بين حياةٍ صالحة
أو ميتة تورث غُنمًا رابحة

وتقدم فقاتل حتى استُشهد.

ثم حمل الثاني على الأعداء وهو ويقول :

إن العجوز ذاتُ حزمٍ وجلد ❖ والنظر الأوفق والرأي السدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد ❖ نصيحةً منها وبرًّا بالولد
فباكروا الحرب حماةً في العدد ❖ إما لفوزٍ باردٍ على الكبدْ
أو ميتة تورثكم عزَّ الأبدْ ❖ في جنة الفردوس والعيشِ الرغدْ
فقاتل حتى استُشهد.

ثم حمل الثالث وهو يقول :

والله لا نعصي العجوز حرفًا ❖ قد أمرتنا حربًا وعطفًا
نصحًا وبرًّا صادقًا ولطفًا ❖ فبادروا الحرب الضروس زحفًا
حتى تَلُفُّوا آل كسرى لفًّا ❖ أو يكشفوكم عن حماكم كشفَا
إنا نرى التقصير عنكم ضعفا ❖ والقتلى فيكم نجدةً وزلفى
فقاتل حتى استشهد.

ثم حمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساء ولا للأخرم ❖ ولا لعمرو ذي الثناء الأقدم
إن لم أردْ في الجيش جيش الأعجم ❖ ماضٍ على الهول خضم خضرم
إما لفوز عاجلٍ ومغنمٍ ❖ أو لوفاء في السبيل الأكرم

فقاتل حتى استُشهد، فبلغ أمهم الخنساء الخبر، فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته. وهذا لعمري من أعجب ما أحدثه الإسلام في نفوس أبنائه.

ويعبر الشاعر جميل بن سعيد عن عقيدة المجاهدين الصادقين في القتال حين يقول:

ولست أبالي إن قُتلت لأنني ❖ أُرَجِّي بقتلي في الجنان مقامي

ومن الشعراء الفرسان الذين لمعت أسماؤهم في الفتوحات: أبو محجن الثقفي، وكان مولعًا بالخمر على الرغم من إسلامه، فحبسه سعد بن أبي وقاص؛ حتى إذا احتدمت معركة القادسية، توسل إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه على أن يعود إلى محبسه بعد الحرب؛ لكي يسهم في شرف المعركة فأطلقته، وأبلى فيها بلاءً حسنًا، وعاد إلى سجنه وهو ينشد:

لقد علمت ثقيفٌ غير فخرٍ ❖ بأنا نحن أكرمهم سيوفًا
فإن أُحبس فقد عرفوا بلائي ❖ وإن أُ طلق أُجَرِّعُهُم حتوفًا

وكان حول أبي محجن فرسان كثيرون منهم عمرو بن معديكرب الزبيدي، وكانت له آثار مشهورة في القادسية واليرموك وغيرهما، ومن شعره في القادسية قوله:

والقادسية حين زاحم رستم ❖ كنا الحماة بهن كالأشطان
الضاربين بكل أبيضَ مخزمٍ ❖ والطاعنين مجامع الأضغانِ

ومنهم بشر بن ربيعة الخثعمي، وله يصور بلاءه وبلاء قومه في مواقع القادسية:

تذكر هداك الله وقعَ سيوفِنَا ❖ بباب قُديسٍ والمكرُّ عسيرُ
عشية ود القومُ لو أن بعضهم ❖ يعار جناحيْ طـائرٍ فيطيرُ
إذا ما فرغنا من قِراعِ كتيبة ❖ دلفنا لأخرى كالجبال تسير
ترى القومَ فيها واجمينَ كأنهم ❖ جِمالٌ بأحمالٍ لهن زفيرُ

ومن فرسان القادسية كذلك: قيس بن المكشوح المرادي، وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعارك، وفي شعره يصور ذلك؛ إذ يقول:

جلبت الخيل من صنعاء تردي ❖ بكل مدججٍ كالليث سام
إلى وادي القرى فديار كلبٍ ❖ إلى اليرموك فالبلد الشآم
وجِئْنَ القادسية بعد شهر ❖ مسومةً دوابرها دوام
فناهضنا هنالك جمع كسرى ❖ وأبناء المرازبة الكرام
فلما أن رأيتُ الخيل جالت ❖ قصدت لموقف الملك الهُمَام
فأضرب رأسه فهوى صريعًا ❖ بسيف لا أفَلَّ ولا كهَامِ
وقد أبلى الإله هناك خيرًا ❖ وفعل الخير عند الله نامي

وإلى جانب تصوير البطولة في شعر الفتوحات نجد موضوعات أخرى منها:

الحنين إلى الوطن: إذ يذهب المجاهد بعيدًا عن وطنه مجاهدًا في سبيل الله، لكنه أحيانًا يحن إلى وطنه البعيد؛ فيرسل عبراته وكلماته معبرًا عن هذا الحنين، من هذا مثلًا قول أحدهم:

أكرر طـرفي نحو نجدٍ وإنني ❖ برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظرُ
حنينًا إلى أرضٍ كأن تُرابَهَا ❖ إذا أمطرت عودٌ ومسكٌ وعنبرُ
بلاد كأن الأقحوان بروضه ❖ ونور الأقاحي وشيُ بردٍ مُحَبَّرُ
أحِنُّ إلى أرضِ الحِجازِ وحاجَتِي ❖ خيام بنَجْدٍ بِلادٌ دُونَها الطَّرْفُ يَقْصُرُ

وما نَظَرِي مِن نَحْوِ نَجْدٍ بنافِعٍ ❖ أَجَلْ ولكنِّي على ذاكَ أَنظُرُ
أفِي كُلِّ يومٍ نَظْرَةٌ ثم عَبْرَةٌ ❖ لعينيك مجرى مَائِهَا يَتَحَدَّرُ
مَتَى يَسْتَرِيحُ القَلْبُ إِمّا مُجاوِرٌ ❖ بحربٍ وإما نازِحٌ يَتَذَكَّرُ

ومن الموضوعات المتعلقة بشعر الفتوحات كذلك: ما نتج عنها من شعر يعرب فيه الآباء والأبناء عن تشوقهم: من هذا: أن المخبل السعدي تطوع ابنه الوحيد في جيش سعد بن أبي وقاص المتوجهِ إلى بلاد فارس، فقال في ذلك المُخَبَّلُ:

أيملكني شيبان في كل ليلة ❖ لقلبي من خوفِ الفراقِ وجيبُ
ويخبرني شيبان أن لم يعقَّنِي ❖ تعق إذا فارقتني وتحوبُ

ويقول:

فإن يك غصني أصبح اليوم باليًا ❖ وغصنك من ماء الشباب ر يبُ
إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى ❖ أرَى الشَّخْصَ كالشَّخْصَيْنِ وهو قَرِيبُ
أشيبانُ ما يدريك أن كل ليلة ❖ غبقتك فيها والغبوق حبيبُ

وكان أبوه قد أسن وضعف، وكاد يُغْلَبُ على عقله؛ فعمد إلى ماله ليبيعه ويلحق بابنه، وذهب بعض الناس فكلم عمر بن الخطاب في شأنه، وأنشده أبيات المخبل فَرَقَّ له عمر، وكتب إلى سعد يأمره أن يرد شيبان إلى أبيه فرده عليه، ولم يزل عنده حتى مات.

ومن شعر الحنين والشوق هذا أيضًا: ما قاله أمية بن الأسكر في التشوق إلى ابنه كلاب، وكان قد خرج للغزو في عهد عمر < قال أمية:

لِمَنْ شَيْخَانِ قَدْ نَشَدَا كِلابًا ❖ كتابَ الله إنْ حَفِظَ الكِتَابَا
إذا هَتَفَتْ حَمَامَةُ بَطْنِ وَجٍّ ❖ عَلَى بَيْضَاتِها ذَكَرَا كِلابَا

يريد أباه وأمه.

وإنك والتماس الأجرِ بعدي ❖ كباغي الماء يَتَّبِعُ السَّرَابَا

تَرَكْتَ أباكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ ❖ وأمَّك مَا تُسِيغُ لَهَا شَرَابَا

وأكثر من هذا الشعر الباكي الذي يتشوق فيه إلى ابنه، وبلغ عمر بن الخطاب < هذا الشعر؛ فكتب إلى سعد يأمره بإرجاع كلاب إلى والديه، فلما قدم أرسل عمر إلى أمية فقال له: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟ قال: النظر إلى ابني كلاب، فدعاه له؛ فلما رآه اعتنقه، وبكى بكاء شديدًا، فبكى عمر، وقال: يا كلاب؛ الزم أباك وأمك ما بقيا.

رثاء الأبطال والشهداء: ومن الموضوعات التي نجدها كذلك في شعر الفتوح: رثاء الأبطال والشهداء: من ذلك: قصيدة كثير بن الغريزة التميمي التي يرثي بها من أصيبوا في معارك تسمى معارك "الطالقان وجوزجان" في عهد عمر بن الخطاب < وفيها يقول:

سقى مزنُ السحابِ إذا استهلت ❖ مصارع فتية بالجوزجان

وما بي أن أكون جزعت إلا ❖ حنينَ القلبِ للبرقِ اليماني

ورب أخ أصاب الموت قبلي ❖ بكيت ولو نعيت له بكاني

ومن موضوعات شعر الفتوح كذلك الشكوى: إذ نجد بعض الجنود يشكون الولاة والعمال الذين يخونون فيما ائتمنوا عليه؛ على نحو ما نجد عند يزيد بن الصعق. فقد أرسل بشكوى طويلة إلى عمر بن الخطاب من أصحاب الخراج يقص عليه كيف أثروا ثراء غير مشروع من أعمالهم التي يتولونها، ومما يأخذون لأنفسهم من المغازي؛ وفيها يقول:

نئوب إذا آبوا ونغزوا إذا غزوا ❖ فأنى لهم وفر وليس لنا وفر

ومن المشاهد الغريبة التي لفتت أنظار الشعراء أثناء الفتوح: مشهد الفيلة التي كان يحارب عليها الفرس، وسجل الشعر ذلك، كقول ربيعة بن مقروم:

ودخلت أبنية الملوك عليهم ❖ ولشر قول المرء ما لم يفعل
وشهدت معركة الفيول وحوها ❖ أبناء فارس بيضها كالأعبل

وكان القعقاع بن عمرو أول فارس يواجه الفيل الأعظم يوم القادسية، فيقطع مشفره ويفقأ عينه، وقال في ذلك -مشبهًا الفيلة ذوات الأجسام الضخمة بالبيوت:

فإن كنت قاتلت العدو فللته ❖ فإني لألقى في الحروب الدواهيا
فيولًا أراها كالبيوت مغيرة ❖ أُسَمِّلُ أعيانًا لَهَا ومآقِيَا

كما وصف الشعراء الذين خرجوا في الفتوحات كنائس الروم، ووصفوا ما فيها من زخارف ونقوش؛ كما وصفوا القصور الشاهقة والقلاع الحصينة التي لم يسبق أن رأوا مثلها من قبل، وكان المجاهدون في غزوهم وجهادهم لا تنفك ألسنتهم ذاكرة لله ﷻ يسألونه النصر ويحمدونه على التوفيق:

من ذلك ما يروى من شعر لخالد بن الوليد < إذ قال في فتح دمشق:

لك الحمد مولاي على كل نعمة ❖ وشكرًا لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة ❖ وأنقذتنا من حِنْدِسِ الظُّلْم والظُّلَم
وأكرمتنا بالهاشمي محمدٍ ❖ وكشفت عنا ما نلاقي من الغُمَمِ
فتمم إله العرش ما قد نرومه ❖ وعجِّلْ لأهلِ الشرك بالبؤسِ والنِّقَم

وهذا ضرار بن الأزور يبتدر لحرب الروم في فتح دمشق وهو يقول:

عليك ربي في الأمور المتكل ❖ اغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل
يا رب وفقني إلى خير العمل ❖ وعني امحُ سيدي كل الزلل
أنا ضرار الفارس القرم البطل ❖ باغٍ على الأعداء أضحى المتصل

وأضحى المتصل أي: ظاهر الانتساب:

أقمع بسيفي الرومَ حتى تضمحل ❖ ما لي سواك في الأمور من أمل

وعن السمات الفنية التي اتسم بها شعر الفتوحات يقول الدكتور شوقي ضيف:

"وهناك أشياء لا بد أن نلاحظها في هذه الأشعار الكثيرة التي رويت عنهم في مغازيهم وفتوحهم؛ لعل أهمها أنها طبعت بطابع الآداب الشعبية، سواء من حيث نسيجها العام أو من حيث قائلوها، ومن نسبت إليهم.

أما من حيث النسيج: فإنها لا تبلغ من المتانة مبلغ الأشعار التي نسبت في العصر نفسه إلى الشعراء المجودين.

وأما من حيث القائلون: فإن كثيرًا منهم يكاد يكون مجهولًا؛ لسبب بسيط، وهو أنه من عامة الجند، ومن ثم اختلف الرواة في نسبةِ كثيرٍ من الأشعار إلى أصحابها، ويكثر أن يرسل الراوي الشعر إرسالًا بدون نسبته إلى شاعر بعينه، وينص الطبري على قطعتين كانت تتجاوب بهما الآفاق في الجزيرة العربية، ولا يعرف مَن نَظَمَهُمَا، ويعقب عليهما بقوله: "وسمع بنحو ذلك في عامةِ بلاد العرب. وكأن طائفة من شعر الفتوح تحوَّلت إلى ما يشبه الأمثال التي يبدعها الشعب؛ فناظمها لا يُعْرف كما لا يعرف مرسل المثل؛ لأنه من أبناء الشعب، وأبناء الشعب قلما ذكروا أو مجدوا؛ بل إنه لا يعنيهم أن يذكروا أو يمجدوا؛ إذ هم آخر من يهتم بهذا الفضل".

ويضيف الدكتور شوقي ضيف قائلًا:

"ويسود في هذا الشعر الإيجاز ؛ فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة، وجمهوره -أي: أكثره- لذلك مقطوعات قصيرة، يجري فيها الشاعر على سجيته دون تدقيقٍ في معنى، أو تنقيح للفظ، أو التماس وزن أو قافية ؛ إنه يعبر عن خاطرٍ التحمَ بصدرِهِ دون معاناةٍ أو مكابدةٍ ويرمي به في سرعة كما يرمي بسهمه أو يضرب بسيفه ؛ غير مفكرٍ في تنقيحٍ ولا في تصفيةٍ أو تهذيب ؛ ولذلك كانت تشيع فيه البساطة، وعدم التكلف لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تَحُولُ بينه وبين إطالة الفكرة، كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره".

ويمكن أن نضيف إلى هذه الملاحظاتِ ملاحظاتٍ أخرى تتصل بتأثر هذا الشعر بالإسلام ؛ فمما يلاحظ على هذا الشعر من الناحية الفنية: إفادته من معاني القرآن الكريم، وتصويره لحقَائِقِ الإسلام في الدعوة والجهاد، والرغبة في الاستشهاد، واستفادته من أساليب القرآن ؛ كالقسم، والدعاء، وتضمنه لكثير من المعاني الدينية والألفاظ القرآنية ؛ كالجنة والإيمان، والحق، والنور، والخير، والجهاد، والشهادة، والنار، والكفر... وغير ذلك من هذا المعجم الذي أضافه الإسلام إلى لغة العرب.

كما نلاحظ في هذا الشعر اقتباسًا كثيرًا من القرآن الكريم، ومن الحديث النبوي. وهذه سمات ليست مقصورةً على شعر الفتوحات ؛ وإنما هي سمات موجودة في الشعر الذي أبدعه الشعراء المسلمون في عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين من بعدهم.

ولعل هذه السمات بقيت كذلك في الشعر الأموي فيما بعد ذلك ؛ بل أقول: إن هذه الآثار التي ترجع إلى أسلوب القرآن الكريم وإلى الحديث النبوي الشريف ظَلَّتْ ماثلةً في الشعر العربي، بل في الأدب العربي شعرِهِ ونثرِهِ عبر العصور إلى يومنا هذا.

النثر في صدر الإسلام

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول	: الحديث النبوي الشريف	٣١٣
العنـــصر الثـــاني	: الخطابة، والكتابة، والوصايا، والعظات	٣١٥

الحـــديث النبـــوي الـــشريف

نبدأ الكلام بالوقوف مع الحديث النبوي الشريف؛ لأن الحديث النبوي الشريف كان ذا أثرٍ كبيرٍ في الأدب العربي في صدر الإسلام وفيما بعده من عصور، وقد كان الصحابة } يروون حديث رسول الله ﷺ في حياته، وكان هو نفسه ﷺ يحثهم على ذلك، وترجع أهمية الحديث الشريف إلى أنه يبين القرآنَ الكريمَ، يفصِّلُ مجمله، ويشرح أحكامه، ويقيد مطلقه، وقد كان سيدنا محمد ﷺ أفصحَ العرب قاطبةً، وكما أخبر عن نفسه ﷺ قال: ((أوتيت جوامعَ الكلم)).

يقول الجاحظ عن بيان الرسول ﷺ: لم يتكلم إلا بكلامٍ قد حُفَّ بالعصمةِ، وشُيِّدَ بالتأييد، ويُسِّرَ بالتوفيق، ويضرب الجاحظ لبيانه ﷺ بعض الأمثلة من حديثه الذي قلَّ عدد حروفه وكثرت معانيه؛ فمن ذلك قوله للأنصار: ((أما والله ما علمتكم إلا لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع))، وقوله: ((المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَن سواهم))، وقوله: ((لا تزال أمتي صالحًا أمْرُهَا ما لم تَرَ الأمانة مغنمًا والصدقة مغرمًا)).

وقوله ﷺ: ((المستشار مؤتمن))، وقوله: ((إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويُؤلفون، وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجالسَ يوم القيامة، الثرثارون المتفيهقون))، وقوله ﷺ: ((لا تجن يمينك على شمالك))، وقوله: ((ما أملق تاجرٌ صدوق))، وقوله: ((رحم الله عبدًا قال خيرًا فغنم، أو سكت فسلم)).

وقوله ﷺ: ((إن الله يرضَى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تُنَاصِحوا من ولَّاهُ

اللهُ أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)). وقوله ﷺ: ((يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفنيتَ، أو لبست فأبليت، أو وهبت فأمضيت))، وقوله: ((إن قومًا ركبوا سفينةً في البحر فاقتسموا، فصار لكل رجلٍ موضعٌ، فَنَقَرَ رجلٌ موضعَهُ بِفَأْسٍ فقالوا: ما تصنع؟ هو مكاني أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا)).

وقوله ﷺ: ((حصنوا أموالكم بالزكاة، وداووا مرضاكم بالصدقة))، وقوله: ((مَنْ ذَبَّ عن لحمِ أخيه بظاهرِ الغيبِ؛ كان حقًّا على الله أن يُحَرِّمَ لَحْمَهُ على النَّار))، وقوله: ((أوصاني ربي بتسعٍ: أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، وبالعدل في الرضا والغضب، وبالقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكرًا، ونطقي ذكرًا، ونظري عبرًا)).

فهذه طائفة من حديثه ﷺ وهي من جوامع الكلم.

كما يذكر الجاحظ طائفةً من أقواله الشريفة ﷺ التي دارت بين الناس دوران الأمثال، والتي تعد ذخيرةً أدبيةً رائعةً يستفيد منها الأدباء عبر العصور، من ذلك قوله ﷺ: ((يا خيلَ اللّه اركبِي))، وقوله: ((ماتَ حتْفَ أنفه))، وقوله: ((لا تنتطِح فيه عَنْزَان))، وقوله: ((الآنَ حَمِيَ الوَطيس)) والوطيس: هو التنور التي تُوقد فيه النار، والعبارة تضرب مثلًا في اشتداد الحرب، وقوله ﷺ: ((هُدْنَةٌ على دَخَنٍ، وجماعةٌ على أقذاءٍ)) والدخن هو الحقد، وقوله ﷺ: ((لا يُلسع المؤمن من جُحْرٍ مرَّتين)).

ومن كلامه ﷺ الذي يعد مثلًا: ((إن المُنْبَتَّ لا أرضًا قطع، ولا ظهرًا أبقى)) والمنبت: هو مَن أسرع بناقته حتى هلكت؛ فلم يقض ما يبغي من حاجة أو من

سفر. والظاهر المراد به الدابة التي يركبها ؛ فالذي يتعجل ليسبق قد لا يسبق ولا يبقي على دابته.

ومن كلامه الشريف ﷺ الذي جرى مجرى المثل : ((الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة)).

وبعض أحاديث رسول الله ﷺ جاء بلغاتِ بعضِ قبائلِ العربِ غيرِ قريش ؛ إذ قال ﷺ يخاطب بعض وفود العرب بلغاتهم ولهجاتهم ، فبقيت من ذلك آثارٌ في بيانِهِ الشريف ، من ذلك حديثه المشهور الذي يقول فيه : "ليس من أمبر أمصيام في أمسفر" أي : ليس من البر الصيام في السفر. ولقد استمد المتأدبون عبر العصور من هذا البيان النبوي الرائع في خُطبهم ورسائلهم وكتبهم ، ما أضاف إليها رونقًا وطلاوةً ، وأعلى من طبقتها في البلاغة ﷺ.

الخطابة ، والكتابة ، والوصايا ، والعظات

أما الخطابة في عصر صدر الإسلام ، فقد ازداد نشاطها ، واتسع ازدهارها ، وكثرت وتنوعت مجالاتها ، وظهر أثر القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف فيها سريعًا ، ومَن يتتبع الخطب التي وردت في هذا العصر ، ويتأملها ؛ يلاحظ متانة أسلوبها وعذوبة ألفاظها ، وشرف معانيها ، واقتباسها من القرآن الكريم ، وانتهاجها نهجه في الإرشاد والإقناع والبيان ، وتأثرها بالحديث النبوي الشريف وإسهامها في الدعوة إلى دين الله ، وبيان مقاصده ، وشرح أركانه وآدابه وأخلاقه.

ولقد استخدمت الخطابة في صدر الإسلام في شرح حقائق الإسلام ، وبيان أهدافه ، ودعوة الناس إليه ، وجُعِلَتْ من شعائر الجمعة ، ومن شعائر العيدين ،

ومن شعائر الحج ؛ فالخطبة في هذه الشعائر الدينية تُعدُّ مجالًا جديدًا أضافه الإسلامُ للخَطابة ، وبقيت المجالات التي كانت معروفة قبل الإسلام كخطابة الوفود والمحافل ، وخطب الزواجر ، وخطب الصلح بين المتخاصمين ، وغير ذلك من المجالات ، ظلت كذلك في الإسلام ، بل اتسع نطاقها.

ولقد كانت خطب الرسول ﷺ هي النموذج الأعلى والأرقى الذي اهتدى بهديه أصحابُه الكرام في خطبهم ، واكتسبت الخطابةُ تقاليدَ جديدة في ظل الإسلام ؛ إذ إن الخطيب يبتدئ خطبته بحمد الله ، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وهذه نماذجُ من خطبه ﷺ :

قال ﷺ في أول خطبةٍ خطبها بالمدينة المنورة بعد أن هاجر إليها :

((الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترةٍ من الرسلِ ، وقلةٍ من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاعٍ من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقربٍ من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوي وفرط وضل ضلالًا بعيدًا ، وأوصيكم بتقوى الله ؛ فإنه خير ما أوصَى به المسلمُ المسلمَ أن يحضه على الآخرة ، وأن يأمره بتقوى الله ؛ فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحةً ، ولا أفضل من ذلك ذكرًا ، وإن تقوى الله لمن عمل به على وَجل ومخافةٍ من ربه ، عونُ صدقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة.

ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لا ينوي بذلك إلا وجه الله، يكن له ذكرًا في عاجل أمره، وذخرًا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان مِن سِوَى ذلك، يود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا، ويحذركم الله نفسه، والله رءوف بالعباد، والذي صدق قوله، وأنجز وعده لا خلف لذلك؛ فإنه يقول ﷻ: ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩]، فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا، وإن تقوى الله يُوَقِّي مَقْتَهُ، ويوقي عقوبته، ويوقي سخطه، وإن تقوى الله يبيض الوجوه، ويرضي الرب، ويرفع الدرجة، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا في جَنب الله؛ قد علمكم الله كتابه، ونهج لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعَادُوا أعداءَه، وجاهدوا في الله حقَّ جهادِهِ هو اجتباكم، وسمَّاكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا مَن حي عن بينة، ولا قوة إلا بالله؛ فأكثروا ذكر الله، واعملوا لِمَا بعد اليوم؛ فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس؛ ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر، ولا قوة إلا بالله العظيم)).

ومن خطبه أيضًا ﷺ خطبته الجامعة في حَجة الوداع، يقول فيها:

((الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوصيكم عبادَ اللهِ بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير،

أما بعد: اسمعوا مني أُبين لكم ؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن رِبَا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قَوَدٌ ، وشبه العمد ما قُتِلَ بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس ، إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ؛ يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ، وواحد فرد ؛ ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب الذي بين جُمادَى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حقٌّ ؛ لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدْخِلْنَ أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشةٍ ، فإن فَعَلْنَ فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضربًا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم ؛ فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهن خيرًا ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئٍ مالَ أخيْهِ إلا عن طيبِ نفسٍ منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقابَ بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس، إن الله قد قسَمَ لكل وارثٍ نصيْبَهُ من الميراث، ولا يجوز لوارثٍ وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحَجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرفٌ ولا عدلٌ، والسلام عليكم ورحمة الله)).

وأول ما يلفت النظر من ملامح البلاغة النبوية الشريفة: مطابقة كلامه ﷺ لمقتضى الحال:

فهو في هذه الخطبة الشريفة -خطبة الوداع- يغتنم فرصة اجتماع أكبر عدد من المسلمين معه في صعيد عرفة في مشهد أحس ﷺ أنه ربما قد لا يشهده مرةً أخرى، أو أن الله ﷻ أعلمه ذلك، فألقى عليهم هذه الخطبة الجامعة.

كما تلاحظ افتتاح الخطبة بحمد الله والاستعانة به، واستغفاره والاستعاذة به من شرور النفس وسيئات العمل، وإعلان توحيده، ورسالة رسوله ﷺ للناس جميعًا، وهو افتتاح يجمع بين الثناء والدعاء، والخوف والرجاء، وفيه مقابلة بين قوله: ((مَن يهدِ الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له)).

كما تلاحظ تقديم التوصية بتقوى الله ﷻ على ما بعدها ؛ لأن التقوى هي جماع ما يأتي بعدها ، وفي قوله ﷺ : ((أيها الناس)) تنبيه واجتلاب لاهتمامهم. وقد تكرر هذا النداء في الخطبة ليجدد انتباههم.

وقوله ﷺ : ((فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا)) إشارة إلى أنه ﷺ لا يعلم الغيب إلا إذا أعلمه الله به ، وتنبيهٌ على شدة حرصه عليهم ، ورغبته في النصح لهم ، وتذكيرهم قبل أن يفارقهم ، وفيه حَثٌّ لهم على اغتنام الفرصة والإقبال على تعلم ما ينفعهم.

وقوله ﷺ : ((إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم)) ساق الكلام فيه في معرض التأكيد باستخدام "إن" ، وقَوَّى هذا التأكيد بامتداد أمد التحريم بقوله : ((إلى أن تلقوا ربكم)) ، ثم عضدده بتشبيه هذه الحرمة بحرمات متعددة مجتمعة : ((كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا)) ، والبدء بالكلام عن حرمة الدماء والأموال لأهميتهما الفائقة ؛ ولأن أكثر ما يكون الظلم بين الناس متعلقًا بهما ، وتقديم الدماء على الأموال للاهتمام بها أيضًا.

وقوله ﷺ : ((ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد)) فيه إقامة للحجة ، وقطع للعذر ، وإبراء للذمة. وقد تكرر هذا القول في الخطبة عدة مرات.

ومن ملامح البلاغة النبوية في الخطبة : اشتمالها على سائر الحقوق الواجبة لكلِّ مسلمٍ على أخيه : وهذه الحقوق تشمل حقوق الأخوة الإيمانية ، والمحافظة على الدم والعرض والمال ؛ ولأنها جميعًا أمانات ، قدَّم الرسول ﷺ لها بقوله : ((فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها)).

وفي قوله ﷺ : ((إنَّ رِبَا الجاهليةِ موضوع...)) إلى آخر ما قال ، تأكيدٌ على تحريم ما حرم الله ، وكلمة : ((موضوع)) تعني : إبطاله ، وهي توحي بالحط والازدراء

لشأن الجاهلية وما كان فيها من مساوئ. والأمر كذلك في قوله: ((وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن مآثر الجاهلية موضوعة)).

وبدء الرسول ﷺ بوضع ربا العباس ودم عامر، إشارة إلى أن الإمام يبدأ بنفسه، ودليل على أنه ﷺ خير قدوة، وأحسن أسوة، واستثناء السدانة والسقاية من المآثر الموضوعة يدل على شرفهما؛ لتعلقهما ببيت الله الحرام، وخدمة قاصديه.

قوله ﷺ: ((إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه))، بيان لمصائد الشيطان وطرق كيده، وتحذير للأمة منها، وكلامه ﷺ عن النسيء بعد ذلك؛ لأنه من تلبيس إبليس وتزيينه، في كلامه ﷺ عن حقوق النساء وواجبهن إقامةٌ لميزان العدل، ونشر لمظلة الرحمة.

وقوله ﷺ: ((وإنما النساء عندكم عَوان)) يدل على شفقته ﷺ وعظيم رأفته، وفيه بيان لطبيعة النساء، ومزيد توصية بهن: ((فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا)).

وقوله ﷺ: ((أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)) فيه إيماء إلى أن أمانة الله جديرة بأن تُصان، وكلمته جديرة بأن تحفظ.

ومن ملامح البلاغة النبوية الشريفة في هذه الخطبة: التركيز على معنى الأخوة بين المؤمنين، وروابط هذه الأخوة متمثلةً في أن ربهم واحد وكتابهم واحد، وأنهم يرجعون في النسب إلى أب واحد هو آدم، التذكير بالأصل الذي خلق منه الناس وهو التراب حتى لا يعلو أحد على أحد، ولا يطغى أحد على أحد؛ فليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى.

قوله ﷺ: ((فليبلغ الشاهد الغائب)) إرساء لمبدأ التبليغ، وتوضيح لمسئولية الدعوة، وإشارة إلى أن جماعة المؤمنين مسئولة عن ميراث النبوة وتبليغه للناس.

وفي نهاية الخطبة توالت جمل حاسمة تؤكد الحقوق وتبين الحدود في مجال المواريث، وتتوعد من يدخل نفسه في قوم غير قومِهِ، أو يَدَّعِي نسبًا غير نسبه؛ لِمَا في ذلك من الضرر البالغ الذي يلحق الناسَ في أعراضهم ودينهم وأموالهم.

والخطبة الشريفة على تعدد فقَراتها وكثرة أفكارها مستوية البناء، محكمة الصياغة، متينة الحبك، جيدة السبك، أولها مثل آخرها في وضوح البيان، وجلاء البرهان، وجلال المعنى، وفصاحة الكلام ولا تظنن أنه ﷺ كان يتكلف شيئًا من كلامه أو يُعِدُّهُ أو يحتشد له، وكيف يكون كذلك وقلبه ﷺ وِعاء الوحي، ولسانه ترجمان السماء.

ومن خطب أصحابه الكرام وخلفائه الراشدين:

- خطبة أبي بكر التي خطبها يوم بُويع، حمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد: فإني وليت عليكم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن وسَنَّ النبي ﷺ وعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا، واعلموا أن أكيس الكيس التقى، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذَ له الحق، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق، أيها الناس، إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإذا رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فردوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم؛ فإن عصيته فلا طاعةَ لي عليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وخَطَبَ عليٌّ > لما أريد على البيعة بعد قتل عثمان < فقال: "دعوني والتمسوا غيري؛ فإنا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تَنَكَّرَتْ. واعلموا إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن

تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرًا خير لكم مني أميرًا".

وعلى هذا النحو من البلاغة كانت لعلي > وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين خطب كثيرة.

أما الكتابة: فهي أقوى وسائل الحضارة والمدنية، وأوثق أسباب التقدم والعمران، ولقد بدأ اهتمام الرسول ﷺ بالكتابة مبكرًا؛ حيث إنه ﷺ جعل فداء أسرى بدر من المشركين لِمَن يعرف القراءة والكتابة منهم، أن يعلم عددًا من المسلمين القراءة والكتابة، وظل ﷺ يشجع أصحابه على تعلم القراءة والكتابة، ويتخذ منهم كُتَّابًا للوحي، وكتابًا لأعماله، ولم يلحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى أناف الكتَّاب على خمسمائة بين رجلٍ وامرأةٍ وفتًى وفتاة.

وتتسم الكتابة في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين من بعده بطابعها السهل، وبُعْدِهَا عن التكلف، وميلها للإيجاز، وقصدها إلى الغرض، وخلوها من عبارات التفخيم، واحتذائها حذو القرآن الكريم في جزالة أسلوبه، ونصاعة بيانه، وكانوا يبتدئون الرسائل "بسم الله" ويذكرون أنها من فلانٍ إلى فلان، ثم يقولون: "أما بعد" ويدخلون في الموضوع.

وكانت الكتابة ترمي إلى الغرض دون إطالة ولا تكلف؛ بعيدةً عن فضول الكلام، واستخدمت الكتابة في الدعوة إلى الإسلام، وبيان مقاصده، كما استخدمت في تبادل الآراء والمشورة بين الولاة والأمراء، والقضاة والعلماء، وأشرف الرسائل وأجلُّها وأعظم نماذج للكتابة في هذا العصر كُتب رسول الله ﷺ إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، من هذه الكتب:

كتابه ﷺ إلى ملِك الفرس، رسالة يقول فيها: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسولِ الله إلى كسرى عظيم فارس، سَلام على مَن اتبع الهدى، وآمن بالله

ورسوله، أدعوك بدعاية الله ﷻ فإني أنا رسول الله إلى الناس كافةً؛ لأنذر مَن كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، أسلِمْ تسلَمْ، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك)).

وكتب إلى ملك الروم يقول: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسولِ اللهِ إلى هِرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم؛ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت؛ فإنما عليك إثم الأريسيين -وهذه الكلمة قيل: معناها هم الخدم، والخول؛ لصده إياهم عن الدين، وقيل: هم عبدة النار، فجعل عليه إثمهم- و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤])).

وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة يقول ﷺ: ((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، إني أحمد إليك اللهَ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمنَ، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحدَه لا شريك له، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله ﷺ وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ وقد بلغتُ ونصحتُ؛ فاقبلوا نصيحتي، لقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، والسلام على مَن اتبع الهدى)).

واستخدم الصحابة { الكتابةَ في العهد والتوصية، من ذلك عهد أبي بكر الصديق > إلى عمر بالخلافة عند موته، إذ قال: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسوله ﷺ عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، في الحال التي يؤمن فيها الكافر، ويتقي الفاجر؛ إني استعملت عليكم عمرَ بنَ الخطاب، فإن بر وعدل فذلك عِلمي به ورأيي فيه، وإن جار

وبدل فلا علم لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

في وصيته > لعمر > يقول أبو بكر: "إني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله؛ إن لله عملًا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملًا بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدَّى الفريضة؛ فإنما ثقلت موازين مَن ثقلت موازينُه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحُق لميزانٍ لا يوضع فيه إلا الباطلُ أن يكون خفيفًا، إن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسنِ أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم، فإذا ذكرتهم قلتَ: إني أخاف ألا أكون من هؤلاء، وذكر أهل النار، فذكرهم بأسوأ أعمالهم، ولم يذكر حسناتهم، فإذا ذكرتهم قلتَ: إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب؛ ليكون العبد راغبًا راهبًا، ولا يتمنَّى على الله غير الحق، ولا يلقي بيده إلى التهلكة".

ومن إرشادهم لقضاتهم: كتاب عمر > إلى أبي موسى الأشعري، وقد ولاه القضاء، يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسُنة متبعة؛ فافهم إذا أُدْلِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذَ له، آسي بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك؛ حتى لا يطمع شريف في حَيْفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادَّعى، واليمين على مَن أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا أحل حرامًا أو حرم حلالًا، لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت نفسك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق؛ فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل؛ الفهم الفهمَ فيما يتلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فَقِس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها

إلى الله وأشبهها بالحق، واجعل لمن ادعى حقًّا غائبًا أو بينةً أمدًا ينتهي إليه، فإن أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أتقَى للشك وأجلى للعمى.

والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلودًا في حدٍّ، أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينًا في ولاء أو نسب -الظنين أي: المتهم- فإن الله تولى منكم السرائرَ، ودرأ بالبينات والأيمان، إياك والغلق والضجرَ، والتأذي بالخصوم، والتنكرَ عند الخصومات؛ فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجرَ، ويحسن الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه؛ كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه؛ شانه الله، فما ظنك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام؟".

ومن مناشيرهم إلى عامة المسلمين: ما كتبه عثمان > إذ يقول: "أما بعد: فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع؛ فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم؛ فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولاد السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن؛ فإن رسول الله ﷺ قال: ((الكفر في العجمة فإذا استعجم عليهم أمرٌ تكلفوا وابتدعوا))".

ومما كتبه علي > إلى معاوية > بعد وقعة الجمل هذا الكتاب يقول فيه: "سلام عليك، أما بعد: فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام؛ لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بُويعوا عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار؛ فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إمامًا، كان ذلك لله رضًا، وإن خرج عن أمرهم خارج ردوه إلى ما خرج عنه؛ فإن أبَى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولَّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضَا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما فجاهدتهما بعدما أعزرت إليهما حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون فادخل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإنَّ أحب الأمور

إليَّ قبولك العافية، وقد أكثرتَ في قتلة عثمان، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك، ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكمت القوم إليَّ حملتك وإياهم على كتاب الله، وأما تلك التي تريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن، ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنني أبرأ قريش من دم عثمان.

واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا يدخلون في الشورى، وقد بعثتُ إليك وإلى من قِبَلكَ جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة، فبايعه ولا قوة إلا بالله".

فكان جواب معاوية على هذه الرسالة: "من معاوية بن صخر إلى علي بن أبي طالب، أما بعد: فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك، وأنت بريء من دم عثمان، كنتَ كأبي بكر وعمر وعثمان } ولكن أغريت بعثمان المهاجرين، وخذلت عنه الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف، وقد أبَى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان؛ فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين، ولعمري ما حجتك عليَّ كحجتك على طلحة والزبير؛ لأنهما بايعاك ولم أبايعك، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق؛ لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام. وأما شرفك في الإسلام وقرابتك من رسول الله ﷺ وموضعك من قريش فلست أدفعه".

وقد رد عليه علي بن أبي طالب واستمرت المكاتبات بينهما طويلًا، حتى كانت الحرب. والملاحظ على النثر بألوانه المختلفة في هذا العصر -الخطابة والرسائل والوصايا- براءته من التكلف، وقلة السجع فيه، وخلوصه إلى الغرض المرجو من الكتاب أو الخطبة أو الرسالة، وتأثره بالقرآن الكريم، واهتداؤه بهدي الإسلامي في قيامه وتعاليمه وعقيدته.

الشعر في العصر الأموي: (موضوعاته، وفنونه)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	الموضوعات التقليدية	٣٣١
العنصر الثاني :	الموضوعات المستحْدَثة	٣٣٣

الموضـــــوعات التقليديـــــة

لقد راج الشعر في العصر الأموي رواجًا عظيمًا، وازدهر ازدهارًا كبيرًا، وصار الشعر في العصر الأموي الوسيلة الأولى التي يعبر بها كل فريق وكل حزب عن وجهته وعن رأيه في الحكم، وكان كثير من خلفاء بني أمية شعراء، وجميعهم يحسن تذوق الشعر ونقده، وكانت مجالسهم عامرة بالشعراء والرواة والنقاد.

وتوافرت للشعر في هذا العصر عوامل شتى أكسبته مكانة ممتازة، من هذه العوامل:

العصبيات القبيلة: التي اشتد أوارها لعوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية بعد أن أحياها الأمويون؛ ليشغلوا الناسَ بالمفاخرة والمنافرة، ويعيدوهم إلى ما كانوا عليه في الجاهلية، ويشغلوهم بذلك عن شئون الحكم والاختلاف فيمن هو أحق به منهم. ومن ذلك استخدام الشعر وسيلة سياسية تتدافع بها الأحزاب، ويناضل كل حزب عن حقه في الخلافة والملك به.

ومن هذه العوامل أيضًا: ما أغدقه الخلفاء الأمويون على أبناء الصحابة وأحفادهم في المدينة ومكة؛ ليشغلوهم بذلك عن شئون السياسة والحكم؛ فنشأت هناك طائفة من الشباب الذي وجد في اللهو والمتعة ما يشغل وقته وفراغه، ووجد في الشعر ما يعبر به عن نفسه وحياته، وتعددت البيئات الشعرية في هذا العصر، من هذه البيئات: بيئة نجد، وبيئة الحجاز، وبيئة الشام، وبيئة العراق، وكان من الطبيعي أن يصحب كل هذا التطور تغير وتطور في الشعر من جهة مضمونه، ومن جهة شكله، ومن جهة أغراضه وموضوعاته، فقد ظهرت في الشعر معانٍ جديدة وأغراض جديدة، وتطورت الأغراض التي كانت

موجودةً من قبل، فالموضوعات القديمة والتقليدية ظلت مجالًا واسعًا للشعر، ولكنها تطورت في العصر الأموي.

من هذه الأغراض والموضوعات الغزل، فالغزل غرضٌ قديمٌ في الشعر العربي، يرجع تاريخه إلى العصر الجاهلي، وقد بقي الغزل في العصر الأموي، لكنه تطور، وعُرِفَ فيه نمطٌ جديدٌ كان رائده هو عمر بن أبي ربيعة، كما عُرِفَتْ طائفة من شعراء الغزل بالعِفة، ويسمى غزلهم بالغزل العذري.

ومن الفنون القديمة كذلك المدح، وكان في الجاهلية يوجه إلى كِبار القوم والكِرام منهم، وكان بعض الشعراء يستغله للحصول على جوائز الكرام وأموالهم، فلما جاء الإسلام توجه المدح إلى الرسول ﷺ وآله وأصحابه وخلفائه، وتبدلت القيم، فأصبح الشعراء يمدحون بالعدل والصدق والوفاء، والالتزام بتعاليم الدين، وفي العصر الأموي تغيرت هذه المعاني، فبالإضافة إلى ما أضافه الإسلام من المعاني إلى هذا الشعر، رجع الشعراء إلى التكسب بالشعر، ومحاولة تحقيق مكاسب سياسية عن طريقه، وأصبحوا يمدحون بحسن التدبير والإخلاص للخليفة أو للحزب أو للدولة، كما أن الهجاء فن قديم في الشعر العربي، ولما جاء الإسلام هذَّبه وكفَّ ألسن الشعراء عن الوقوع في الأعراض، ولكنه في العصر الأموي وبفعل الظروف الطارئة وإحياء العصبيات القبلية، رجع الهجاء إلى سيرته الأولى، وربما كان أشدَّ فحشًا وإقذاعًا مما كان عليه في الجاهلية.

والفخر والحماسة غرضان قديمان، وظلت الفتوح والحروب التي نشأت بين الأحزاب المتقاتلة من أجل السلطة عوامل تغذي هذا الغرض القديم، وتمد شعراءَه بالمناسبات والمعاني والصور، وهذا الكلام يُقال أيضًا عن الرثاء والوصف، فكلاهما غرض قديم تطور في العصر الأموي.

ومن نماذج الرثاء في العصر الأموي: رثاء الفارعة لأخيها الوليد بن طريف، تقول:

أيا شجر الخابور مالك مورقًا ❖ كأنك لم تجزع على ابن ـريف
فتًى لا يحب الزاد إلا مِن التقى ❖ ولا المال إلا من قنًا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم ❖ معاودة للكرتين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم ❖ مقامًا على الأعداء غير خفيف

ثم تقول عنه:

حليف الندى ما عاش يرضى به الندى ❖ فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدانَ الشباب وليتنا ❖ فديناك من فِتياننا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه ❖ شجًا لعدو أو نجًا لضعيف

ثم قالت:

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ❖ فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفًا فإنني ❖ أرى الموت وقاعًا بكل شريف

الموضوعات المستحدثة

بالإضافة إلى ذلك وجدت أغراض وموضوعات تعد حديثة في هذا العصر، منها الشعر السياسي وشعر النقائض، والغزل العذري، وشعر الزهد والتصوف.

أما الشعر السياسي:

فقد نتج بعد أن تحول الحكم في عهد الأمويين من نظام الخلافة إلى نظام الملك، حيث استبد الأمويون بالحكم وجعلوه مُلْكًا يورث، وخالفهم في ذلك كثير من المسلمين، ونشأت أحزاب وجماعات تقاتلهم من أجل ذلك، وكان من

الأحزاب التي نشأت -إلى جوار حزب الأمويين الحاكم: الشيعة الذي كانوا أنصارًا لعلي بن أبي طالب > - والخوارج الذين لم يرتضوا بالتحكيم، وخرجوا على علي > والأمويين معًا، وحزب الزبيريين وهم أنصار الزبير بن العوام، الذين وقفوا معه ضد علي بن أبي طالب بعد موقعة الجمل، وكان لكل حزب من هذه الأحزاب شعراؤه الذين يدعون إليه، ويهاجمون خصومه، ويروجون أفكاره، ويردون على مناوئيه.

ومن هذا الشعر السياسي: هجاءُ الأخطلِ الأنصارَ بإيعاز من يزيد بن معاوية، والذي قال فيه:

ذهبت قريش بالمكارم كلها ❖ واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمانُ بن بشير على معاوية، ثم قال مهددًا في قصيدة طويلة:

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف ❖ لِحي الأزد مشدودًا عليها العمائم
أيشتمنا عبد الأراقم ضلة ❖ فماذا الذي تجدي عليك الأراقم
فما لي ثأر دون قطع لسانه ❖ فدونك من ترضيه عنك الدراهم

ثم طعن على خلافة معاوية، وفاخر بأعمال الأنصار وأحسابهم، فقال:

وإني لأغضي عن أمور كثيرة ❖ سترقَى بها يومًا إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإنني ❖ لتلك التي في النفس مني أكاتم
فما أنت والأمر الذي لست أهله ❖ ولكن ولي الحق والأمر هاشم

وواضح أن النعمان بن بشير هنا يهاجم الأمويين ويهددهم، بل يصرح أنهم ليسوا أهلًا للخلافة، وأن الأحق بها هم بنو هاشم.

ومن نماذج هذا الشعر السياسي كذلك، أنه لما استلحق معاوية زيادَ بن أبيه بأبي سفيان، قال يزيد بن ربيعة بن مفرغ الحميري:

ألا أبلغ معاوية بن صخر ❖ مغلغلة من الرَّجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف ❖ وترضَى أن يقال أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد ❖ كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زيادًا ❖ وصخر من سُمية غير داني

ومن هذا الشعر السياسي أيضًا: قول كعب بن جعيل - شاعر الأمويين:

أرى الشام تكره ملك العراق ❖ وأهل العراق هم كارهينا
وكل لصاحبه مبغضًا ❖ يرى كل ما كان من ذاك دينًا
إذا ما رمونا رميناهم ❖ ودناهم مثل ما يقرضونا
فقالوا عليٌّ إمام لنا ❖ فقلنا: رضينا ابن هند رضينا
وقالوا: نرى أن تدينوا لنا ❖ فقلنا ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد ❖ وضرب و عن يفض الشئونا

فرد عليه النجاشي شاعر العلويين قائلًا:

دَعنْ يا معاوي ما لن يكونا ❖ فقد حقق الله ما يحذرونا
أتاكم عليٌّ بأهل العراق ❖ وأهل الحجاز فما تصنعونا

وقال أعشَى ربيعة لعبد الملك بن مروان - حينما كان مترددًا في حرب ابن الزبير- يحمسه على الحرب، ويدعوه إلى قتال آل الزبير، يقول:

آل الزبير من الخلافة كالتي ❖ عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حُمِّلت ❖ ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ❖ كم للغواة أ لتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ❖ ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلًا مغلقًا ❖ فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وفي مواجهة هذا الشعر الذي يَنتقص من آل الزبير، نجد شاعرًا يمتدحهم، فيقول:

راحت رواحًا قلوصي وهي حامدة ❖ آل الزبير ولم تعدل بهم أحدًا
راحت بستين وسقًا في حقيبتها ❖ ما حملت حملها الأدنى ولا السَّددا
ما إن رأيت قلوصًا قبلها حمَلت ❖ ستين وسقًا ولا جابت به بَلَدا
ذاك القِرى لا قِرى قوم رأيتهم ❖ يقرون ضيفهم الملوية الجددا

وهو يريد التعريض بوالي المدينة من قِبل هشام بن عبد الملك.

ومن الفنون المستحدثة كذلك في العصر الأموي: فن النقائض:

والنقائض: جمع نقيضة وهي فعيلة بمعنى فاعل أو بمعنى مفعول، وفُرسان هذا الفن ثلاثة شعراء معروفون في العصر الأموي؛ هم: جرير، والفرزدق، والأخطل؛ إذ كان الواحد منهم يقول قصيدة يفتخر فيها بقومه ومآثرهم، فيرد عليه الآخر بقصيدةٍ يهجوه فيها، ويقلب مآثره ومآثرَ قومه إلى معايب، فيهدم ما قاله، فالنقيضة مأخوذة من النقض وهو الهدم، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ [النحل: ٩٢].

فكان شاعر النقائض ينقض على صاحبه معانيه التي قالها في قصيدته، وهي بلا شك قائمة على الهجاء، وكان هذا الهجاء يعتمد على العصبيات القبلية، وعلى ما كانت تفتخر به كل قبيلة في الجاهلية من أيام وانتصارات ومآثر، وعلى ما كان يُروى للقبيلة الأخرى من معايبَ ونقائص، والنقائض تختلف عن الهجاء العام، بأنها أصبحت فنًّا جماهيريًّا يحتشد الناس؛ ليسمعوا الشاعرين المتناقضين، ويصفقوا، ويشجع كل فريق من الحاضرين شاعرَه الذي ينتمي إليه، وكلما أتى واحدٌ منهم على معنى نادر أو فَكِهٍ، فإن الجماهير تضحك وتصفق محتفلةً بهذا البيت أو ذاك.

وقد استطاع الأمويون أن يُلْهُوا كثيرًا من الناس بهذا الفن، وأن يجعلوهم يقضون كثيرًا من وقتهم في الاستمتاع به ؛ كي يشغلوهم بذلك عن الكلام في السياسة والتفكير في أمر الحكم، ولم يكتفِ شعراء النقائض بالحديث عن أيام الجاهلية، فتطرقوا إلى تواريخ القبائل في الإسلام، وكان على الشاعر الذي يلج هذا الفنَ أن يدرس دراسة عميقة تاريخَ القبائل ؛ حتى يستخرج ما يمكن أن يفاخر به، وما يمكن أن يهجو به نُظراءه.

ومن نماذج هذه النقائض : قصيدة للفرزدق بدأها بقوله :

تحِن بزوراء المدينة ناقتي ❖ حنين عجول تبتغي البو رائم

وبعد أن استهلها بالغزل قال :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله ❖ إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وينتقل إلى مدح سليمان بن عبد الملك بقوله :

جعلت لأهل الأرض نورًا ورحمة ❖ وعدلًا وغيث المغبرات القواتم

ثم ينتقل إلى هجاء جرير وعشيرته بني كليب، فيقول :

فيا عجبًا حتى كليب تسبني ❖ وكانت كليب مدرجًا للشتائم

ووقف جرير في الجهة المقابلة يرد على الفرزدق نقيضته، ويهدم عليه قصيدته، ويرد عليه هجاءه، فقال :

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرًا ❖ وجاءت بوزواز قصير القوائم

وما كان جار للفرزدق مسلم ❖ ليأمن قردًا ليله غير نائم

أتيت حدود الله مذ أنت يافع ❖ وشِبت فما ينهاك شيب اللهازم

تتبع في الماخور كل مريبة ❖ ولستَ بأهل المحصنات الكرائم

ويشترط في النقيضة -كما هو واضح في المثال: أن تكون على بحر القصيدة التي تنقضها وعلى وزنها.

ومن هذه النقائض أيضًا: قصيدة للأخطل هَجَا فيها جريرًا وعشيرتَه كليبًا، وكان مِمَّا قال:

أما كليب بن يربوع فليس هم ❖ عند التفارط إيراد ولا صَدَر
مخلفون ويقضي الناس أمرَهم ❖ وهم بغيب وفي عمياء ما شعروا
ملطمون بأعقار الحِياض فما ينفك ❖ من دارمي فيهم أثر
قوم أنابت إليهم كل مخزية ❖ وكل فاحشة سُبت بها مضر

ويستمر الأخطل في هجاء جرير وعشيرته هجاءً عنيفًا مقذعًا، إذ يرميهم بكل ما يستطيع من صفات الذل والخِسة والدناءة، لكن جريرًا يرد عليه ردودًا مفحمةً، ويهجوه ويهجو قومَه هجاءً مقذعًا، ويعيره بنصرانيته، وكان مما قال في رده عليه في القصيدة السالفة الذكر، يقول جرير:

نحن اجتبينا حياض المجد مترعة ❖ من حومة لم يخالط صفوها كدر
لم يخز أول يربوع فوارسهم ❖ ولا يقال هم كلا إذا افتخروا
هل تعرفون بذي بَهدى فوارسنا ❖ يوم الهذيل بأيدي القوم مقتسَر
خابت بنو تغلب إذ ضل فار هـم ❖ حوض المكارم إن المجد مبتدر
الظاعنون على العمياء إن ظعنوا ❖ والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
الآكلون خبيث الزاد وحدهم ❖ والنازلون إذا واراهم الخَمر
إني رأيتكم والحق مَغضبة ❖ تخزون أن يذكر الجَحاف أو زُفر
كانت وقائعُ قلنا لن تُرى أبدًا ❖ من تغلب بعدها عين ولا أثر
حتى سمعت بخنزير ضغا جَزَعًا ❖ منهم فقلت أرى الأمواتَ قد نُشروا

وواضح أنه يرد على معانيه معنًى معنًى، وقد لقبه في البيت الأخير بأنه خنزير، إشارة إلى أنه نصراني.

ويستمر جرير في هجاء الأخطل وقبيلته تغلب، فيقول:

رجس يكون إذا صلوا أذائهم ❖ قرع النواقيس لا يدرون ما السوَّر

وما لتغلب إن عدت مساعيها ❖ نجم يضيء ولا شمسٌ ولا قمر

الضاحكين إلى الخنزير شهوته ❖ يا قُبحت تلك أفواهًا إذا اكتَشروا

والمُقرعين على الخنزير ميَسرَهم ❖ بئس الجزورُ وبئسَ القومُ إذ يسروا

جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا ❖ وهل يَضير رسولَ الله أنْ كفروا

وقد كان جرير يتفوق على خصميه -الفرزدق والأخطل- في الهجاء، وقد شهد له الأخطل بذلك، إذ قال للفرزدق -فيما يروي الرواة: إن جريرًا أوتي من سَيْر الشعر ما لم نؤتَه، قلتُ أنا بيتًا ما أعلم أن أحدًا قال أهجَى منه، قلت:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم ❖ قالوا لأمهم بولي على النار

وهو في هجاء جرير وقومه، يقول الأخطل: فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر، وقال هو -يعني: جريرًا:

والتغلبي إذا تنحنح للقِرى ❖ حك اسئه وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا أمثالها إلا رووه.

وكان لهؤلاء الشعراء قدرة عجيبة على استنباط المعاني وتشقيقها في الهجاء؛ ليكون لاذعًا مُرًّا، من ذلك -مثلًا- قول الفرزدق في جرير:

يهدي الوعيد ولا يحوط حريمه ❖ كالكلب ينبح من وراء الدار

وقوله في كُليب -عشيرتِه:

يستيقظون إلى نُهاق حمارهم ❖ وتنام أعينُهم عن الأوتار

ومن هذا قول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعًا ❖ أبشر بطول سلامة يا مربع

وقوله في عشيرة الفرزدق:

خذوا كحلًا ومجمرةً وعطرًا ❖ فلستم يا فرزدق بالرجال

وقول جرير أيضًا في هِجاء الراعي النُّميري:

فغض الطرف إنك من نمير ❖ فلا كعبًا بلغت ولا كلابًا

وكان لجرير مقدرة عجيبة على الصمود في وجه مَن يهجوه، حتى يسقطه وينتصر عليه.

ومما يدل على أن هذا الفن تحول إلى فنٍّ المراد منه التسلية، والتقرب إلى الجماهير، أن المعاني التي وردت في هذه النقائض لو حملت من القبائل محمل الجد، لاشتعلت بسببها حروب لا تنطفئ.

كذلك فإننا نجد جريرًا يرثي الفرزدق بعد كل هذه النقائض وهذا التهاجي بينهما، فإنه لما مات الفرزدق، رثاه جرير بقوله:

لعمري لقد أشجى تميمًا وهدّها ❖ على نَكبات الدهر موت الفرزدق

عشية راحوا للفراق بنعشه ❖ إلى جدث في هُوة الأرض مُعمق

لقد غادروا في اللحد من كان ينتمي ❖ إلى كل نجم في السماء محلق

عماد تميم كلها ولسانُها ❖ وناطقها البذّاخ في كل مَنطق

فمن لذوي الأرحام بعد ابن غالب ❖ لجار وعانٍ في السلاسل موثَقِ

ومن ليتيم بعد موت ابن غالب ❖ وأم عيال ساغبين ودردَق

ومن يطلق الأسرى ومن تحقن الدما ❖ يداه ويشفي صدرَ حرَّان محنَقِ
فتًى عاش يبني المجد تسعين حِجَّةً ❖ وكان إلى الخيرات والمجد يرتقي

فهل يشفع هذا الرثاء لجرير بعد أن هجا الفرزدق في حياته كل هذا الهجاء المرير الذي سبقت الإشارة إليه؟!.

الغرض الثالث الذي ظهرت فيه الجدة في العصر الأموي: الغزل:

وقد أخذت هذه الجدة نمطين:

الأول: ما يسمى بالغزل الصريح: وقد كان من زعماء هذا النمط شعراء مكة والمدينة الذين كانوا يرفلون في النعيم، ويزجون أوقاتهم باللهو والمجون، ومنهم: عمر بن أبي ربيعة، والأحوص، والعرجي، وقد مضَوْا جميعًا يعبرون عن فتنتهم بالمرأة، ويصِفون مفاتنها، ويقصون مغامراتهم في تتبعها، لا يقفون في ذلك عند حَد، ويتعدى عمر بن أبي ربيعة هذه المجالات؛ ليصور كنف المرأة به، وتصديها له، ويصور نفسه مطلوبًا لا طالبًا، وهو شيء جديد لم يكن معهودًا في الشعر العربي من قبلُ.

ومن ذلك قوله يصور طلب فتاة له، وأنها تدور حوله لعلها تجد إليه سبيلًا، وهو يتدلل ويتمنع فيقول:

قالت لِتِربٍ لها تحدثها ❖ لنفسدنَّ الطواف في عمر
قومي تصدي له ليعرفنا ❖ ثم اغمزيه يا أختُ في خَفر
قالت لها: قد غمزته فأبَى ❖ ثم اسبطرَّت تسعى على أثري

وهو يذكر أن الفتاة طلبته أثناء الطواف، وأرادت أن تفسد طوافه، وحدثت أختها بذلك.

وفي أبيات أخرى يقول:

قالت على رقبة يومًا لجارتها ❖ ما تأمرين فإن القلب قد شغل
فجاوبتها حصان غير فاحشة ❖ برجع قول وأمر لم يكن خطلا
اقني حياءك في ستر وفي كرم ❖ فلست أول أنثى علقت رجلا
لا تظهري حبه حتى أراجعه ❖ إني سأكفيكه إن لم أمت عجلا

وهكذا يصور عمر بن أبي ربيعة شغف النساء به وحديثهن عنه.

النمط الثاني: الغزل العذري: وهو غزل يتسم أصحابه بالعفة، وعندما يذكرون المرأة يصفون أشواقهم، وتباريح الهوَى بها، ولا يتعرضون لوصف مفاتِن المرأة، ولا يتحدثون عن مغامراتٍ بينهم وبينها، فهو غزل نقي مُتسامٍ، وهو منسوب إلى بني عذرة إحدى قبائل قُضاعة التي كانت تنزل في وادي القُرى شمالي الحجاز؛ لأن شعراءها أكثروا من التغني به ونظمه.

ولم تقف موجة الغزل العذري عند هذه القبيلة في العصر الأموي، فقد شاع في بوادي نجد والحجاز، ويعد من رواد هذا الغزل العذري قيس بن ذريح الذي تغنَّى في شعره بمحبوبته "لُبْنَى"، ومن ذلك قوله:

لقد نادى الغراب ببين لبنى ❖ فطار القلب من حذر الغراب
وقال غدًا تباعد دار لبنى ❖ وتنأى بعد ود واقتراب
فقلت تعست ويحك من غراب ❖ وكان الدهر سعيك في تباب

ويصف ما لاقاه في حبها بقوله:

لقد لاقيت من كلفي بلبنى ❖ بلاء ما أسيغ به الشرابا
إذا نادى المنادي باسم لبنى ❖ عييت فما أ يق له جوابا

وله أبيات يزعم فيها أن روحه تعلقت بروحها قبل خلقهما، ومن بعد ما كانَا نِطافًا وفي المهد، وأن هذا التعلق وذاك الحب زادا ونميَا، وأن هذا الحب وهذا التعلق كبرَا وزادًا في حياتهما، وأنهما باقيان بعد موتهما، حيث يزورهما هذا الحبُّ في ظلمة القبر، يقول:

تعلق روحي روحها قبل خلقنا ❖ ومن بعد ما كنا نطافًا وفي المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميًا ❖ وليس إذا متنا بمنصرم العهد
ولكنه باقٍ على كل حادث ❖ وزائرنا في ظلمة القبر واللحد

ومن كبار رواد الغزل العذري وأشهرهم: جميل بن معمر، ومحبوبته تسمى بُثينة، ويذكرون أنه أراد الزواج بها لكن الأقدار حالت بينه وبين ذلك، فظل عاشقًا مُلْتَاعًا يذكرها ولا ينساها، ومن شعره فيها قوله:

ولو تركت عقلي معي ما طلبتها ❖ ولكن طِلابيها لما فات من عقل
خليلي فيما عشتما هل رأيتمَا ❖ قتيلًا بكى من حب قاتله قبلي
فلا تقتليني يا بثين فلم أصب ❖ من الأمر ما فيه يحل لكم قتلي

ويقول أيضًا جميل:

وإني لأرضى من بثينة بالذي ❖ لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمُنى ❖ وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي ❖ أواخره لا نلتقي وأوائله

ويتمنى جميل أن يتيح له القدر لقاءً بمحبوبته، ويصف تعلق قلبه بحبها، وانتظاره إياها طول عمره، فيقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ❖ بوادي القرى إني إذن لسعيد
وهل ألقين فردًا بثينة مرة ❖ تجود لنا من ودها ونجود

علقت الهوى منها وليدًا فلم يزل ❖ إلى اليوم ينمي حبها ويزيد
وأفنيت عمري في انتظار نوالها ❖ وأبليت فيها الدهر وهو جديد
إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي ❖ من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردي بعض عقلي أعش به ❖ مع الناس قالت ذاك منك بعيد
فلا أنا مردود بما جئت طالبًا ❖ ولا حبها فيما يبيد يبيد
يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ❖ ويحيا إذا فارقتها فيعود

ومن شعراء الغزل العذري كذلك: عروة بن حزام، وصاحبته تسمى عفراء، وله فيها قوله:

وإني لتعروني لذكراك رِعدة ❖ لها بين جلدي والعظام دبيب
فوالله لا أنساك ما هبت الصبا ❖ وما أعقبتها في الرياح جنوب

ومنهم أيضًا: عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة.

ومن شعراء الغزل العذري كذلك: قيس بن الملوح، وقد اختلف الدارسون حول شخصيته هل هي حقيقية أم متخيلة متوهمة؟ لكن الأخبار والرواة ينسبون إليه شعرًا كثيرًا في محبوبته ليلَى، وقد عُرِفَ بها، ويلقب بالمجنون؛ لأنهم قالوا: إن حبه ليلى أذهب عقلَه.

ومن الشعر الذي ينسبونه إليه في ليلى:

حلفت لها بالله ما بين ذي الحشا ❖ سواها حبيب من عوان ومن بكر
جعلنا علامات المودة بيننا ❖ تشابك لحظ هن أخفى من السحر
فأعرف منها الود من لين طرفها ❖ وأعرف منها الهجر بالنظر الشذر
إذا عبتها شبهتها البدر طالعًا ❖ وحسبك من عيب يُشبه بالبدر
هي البدر حسنًا والنساء كواكب ❖ فشتان ما بين الكواكب والبدر

إذا ذكرت يهتز قلبي لذكرها ❖ كما انتفض العصفور بلل من قطر
تداويت من ليلى بليلى من الهوى ❖ كما يتداوى شارب الخمر بالخمر
وتزعم ليلى أنني لا أحبها ❖ بلى والليالي العشر والشفع والوتر
بلى والذي أرسى بمكة بيته ❖ بلى والمثاني والطواسين والحجر
بلى والذي ناجَى من الطور عبده ❖ وشرف أيام الذبيحة والنَّحر
بلى والذي نجَّى من الجب يوسفًا ❖ وأرسل داودًا وأوحى إلى الخِضر

إلى أن يقول:

سأصبر حتى يعلم الناس أنني ❖ على نائبات الدهر أقوى من الصخر
سلام على مَن لا أمل حديثها ❖ ولو عاشرتها النفس عشر إلى عشر
عزائي وصبري أسعداني على الأسى ❖ فأحمد ما جربت عاقبة الصبر
وفي كل يوم غشية من صدودها ❖ أبيت على جمر وأضحي على جمر
عليها سلام الله ما ـار ـائر ❖ وما سارت الركبان في البَر والبحر

وواضح ما يتسم به هذا الشعر من صدق العاطفة، ونبل الروح، وجمال التصوير، ورقة التعبير.

وأما الغرض الرابع الذي استحدث في العصر الأموي فهو: شعر الزهد والتصوف، وكان هذا الاتجاه رد فعل على أحداث كثيرة واتجاهات متعددة في هذا العصر، والأساس الذي يرجع إليه الزهد، هو دعوة الإسلام إلى التخفف من متاع الدنيا، والإقبال على الآخرة بالأعمال الصالحة، وبعد أن دخل غير العرب في الإسلام من أصحاب المِلل والنحل القديمة، تطرق إلى فكر الزهد في الإسلام أفكار من تلك النحل وهذه المذاهب.

ويلقانا في العصر الأموي شعراء عرفوا بهذا الاتجاه، والإكثار من القول فيه؛ منهم أبو الأسود الدؤلي، ومن شعره الذي يدعو فيه إلى الزهد فيما عند الناس، والتوكل على الله ﷻ - قوله:

وإذا طلبت من الحوائج حاجة ❖ فادع الإله وأحسن الأعمالا
فليعطينك ما أراد بقدرة ❖ فهو اللطيف لما أراد فعالا
ودع العباد ولا تكن بطلابهم ❖ لهجًا تضعضع للعباد سؤالا
إن العباد وشأنهم وأمورهم ❖ بيد الإله يقلب الأحوالا

ومنهم سابق البربري، ومن شعره الذي يدعو فيه إلى الزهد في الدنيا، والاقتصاد في جمعها، قوله:

فحتى متى تلهو بمنزل باطل ❖ كأنك فيه ثابت الأصل قاطن
وتجمع ما لا تأكل الدهر دائبًا ❖ كأنك في الدنيا لغيرك خازن

ومن شعره أيضًا قوله:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ❖ ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت ❖ أن السلامة منها تَرْك ما فيها

وقد لجأ كثير من الناس إلى الزهد والتصوف؛ هربًا من فتن السياسة، وفتن الاختلاف حول الحكم والإمامة، وهربًا كذلك من إقبال الدنيا ببهجتها، وغرورها، وأموالها، التي فَتنت كثيرًا من الناس بها، فنشأت بيئة الزهد والتصوفُ إلى جانب بيئة السياسة وبيئة المجون واللهو.

هذه هي أهم الأغراض والموضوعات التي استُحدثت في الشعر في العصر الأموي.

تابع الشعر في العصر الأموي:
(أعلام الشعراء الأمويين، شعر الفرق السياسية)

عناصر الدرس

العنصر الأول	: أعلام الشعراء الأمويِّين	٣٤٩
العنصر الثاني	: شعر الفِرَق السياسية	٣٦٠

أعـــلام الـــشعراء الأمـــويين

هم: الفرزدق، والأخطل، وجرير، وكثير عزة، وجميل بثينة، والوليد بن يزيد.

نبدأ بالتعريف بالفرزدق:

الفرزدق: شاعر من الشعراء الكِبار في العصر الأموي، اسمُه: همام بن غالب بن صعصعةَ بن ناجية بن عِقال، وهو من عشيرة مجاشع من قبيلة تميم، وكان الفرزدق حسيبًا نسيبًا؛ فأسرتُه أسرة كريمة ذات مآثر ومفاخر لا تُدفع، وكان صعصعة جده يُلقب بمحيي الموءودات، ومن هنا فإننا نجد الفرزدق يُكثر من الفخر، ويجيد الفخر بقومه وقبيلته.

ولُقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغِلظه، فكلمة "الفرزدقة" في لغة العرب: تدل على الخبزة الغليظة التي يَتخذ منها النساء الفتوتَ، والأخبار التي وردت عن الفرزدق تدل على أن أخلاقه كانت شبيهة بالأخلاق الجاهلية، وما كان ينطوي في هذه الأخلاق من إثم، فقد عُرِفَ بفسقه وشربه للخمر التي حَرَّمها الإسلام، وكان غليظَ النفس، يمثل البدوي التميمي شديد الشكيمة، كما يقول الدكتور شوقي ضيف.

وقد وُلِدَ الفرزدق في سنة عشرين من الهجرة تقريبًا، وتُوفي سنة مائة وأربعة عشرة من الهجرة.

ومن شعره الذي يفتخر فيه بجده صعصعة، يقول:

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي ❖ متى تُخلف الجوزاء والنجم يمطر

أجار بنات الوائدين ومن يُجر ❖ على القبر يعلم أنه غير مُخفَر

والفرزدق أحد الشعراء الكبار الثلاثة الذين اشتهروا بفن النقائض، فهو والأخطل وجرير فُرسان هذا الفن، وكان الفرزدق مقدمًا على الأخطل في الهجاء، ولكنه يأتي متأخرًا في الهجاء عن جرير، والفن الذي أبدع فيه الفرزدق هو فن الفخر؛ لأنه كان يصدر فيه عن شرف نسبه وعلوه الذي كان لأسرته.

ومن هذا الفخر قولُه:

إن الذي سمك السماء بنا لنا ❖ بيتًا دعائمه أعز وأ ـول

حُلل الملوك لباسنا في أهلنا ❖ والسابغات إلى الوغَى نتسربل

أحلامنا تزن الجبال رزانةً ❖ وتخالنا جنًّا إذا ما نجهل

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ❖ ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحل

ومن فخره بقومه كذلك قوله:

وكنا إذا الجبار صعَّر خده ❖ ضربناه حتى تستقيم الأخادع

وقوله:

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا ❖ وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ومدح الفرزدق الأمويين، وأسرف في مديحهم، ومن هذا -مثلًا- قوله يمدح بشر بن مروان:

يا بشر إنك سيف الله صيل به ❖ على العدو وغيث ينبت الشجر

ومنه قوله في الحجاج بن يوسف:

إن ابن يوسف محمود خلائقُه ❖ سيان معروفه في الناس والمطر

هو الشهاب الذي يُرمى العدو به ❖ والمشرفي الذي تعصى به مَضر

وكلمة "تعصى" هنا مأخوذة من العصى ؛ أي : تضرب ، يشير إلى سياسة الحجاج في ضربه للناس وقسوته عليهم ، وحملهم على الطاعة للأمويين ، وهو يشيد به من هذا الجانب.

ولما مات الحجاج كان مما قاله الفرزدق فيه :

ومات الذي يرى على الناس دينهم ❖ ويضرب بالهندي رأس المخالف

ومن مديحه المسرف فيهم كذلك قوله في يزيد بن عبد الملك ، وهو من اللاهين المعروفين بالمجون ، يقول الفرزدق فيه :

ولو كان بعد المصطفى من عباده ❖ نبي هم منهم لأمر العزائم

لكنتَ الذي يختاره الله بعده ❖ لحمل الأمانات الثقال العظائم

ورثتم خليل الله كل خزانة ❖ وكل كتاب بالنبوة قائم

ومن شعره الذي قاله في نهاية حياته مما يدل على أنه تاب إلى الله ، وأناب وأقلع عن الآثام ، قصيدة له في إبليس يقول فيها :

أ طعتك يا إبليس سبعين حِجةً ❖ فلما انتهى شيبي وتم تمامي

فررت إلى ربي وأيقنت أنني ❖ ملاقٍ لأيام المنون حِمامي

واللغويون يعدون شعر الفرزدق أحد مصادر اللغة ، وقد دارت أشعارُه في كتب اللغة والنحو والتاريخ والأخبار ، ومن أقوالهم في الثناء عليه : "ولولا شعرُه لذهب ثلث لغة العرب".

العَلَمُ الثاني من أعلام الشعر في العصر الأموي : الأخطل :

والأخطل شاعر من تغلب ، وُلِدَ لأب نصراني وأم نصرانية في بادية الحِيرة ، حوالي سنة عشرين من الهجرة ، وظل الأخطل نصرانيًّا فلم يدخل في الإسلام

إلى أن مات، ومدح الأخطل الأمويين وكان يجيد فن المديح، كما كان يجيد الهجاءَ، ودارت بينه وبين جرير بعضُ النقائض، وكان جرير يأتيه من كونه نصرانيًّا.

ومن شعر الأخطل في مدح الأمويين قوله مُنوهًا بانتصار معاوية في صفين، ذاكرًا أن الله اختار بيت الأمويين للخلافة، يقول:

تمت جدودهم والله فضلهم ❖ وجد قوم سواهم خامل نكد
ويوم صفين والأبصار خاشعة ❖ أمدهم إذ دعوا من ربهم مدد
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم ❖ بيت إذا عُدت الأحساب والعدد

وكان العصر الذهبي للأخطل هو عصر عبد الملك بن مروان، فقد نزَلَ منه منزلة الشاعر الرسمي للدولة، وآثَرَه عبد الملك على جميع معاصريه من الشعراء، وأمر أن يعلن بين الناس أن الأخطل هو شاعر بني أمية وشاعر أمير المؤمنين، وأشعاره تمتلئ بالدعوة السياسية للأمويين، وإشاعة أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، وفي شعره كذلك هجاء لخصومهم من الزبيريين وغيرهم.

ومن أجود شعره في مديح الأمويين قوله:

حُشدٌ على الحق عياف الخنا أنفٌ ❖ إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مُظلمة ❖ كان لهم مخرَج منها ومعتصَر
أعطاهم الله جَدًّا ينصرون به ❖ لا جد إلا صغير بعد محتقر
شمس العداوة حتى يستقادَ لهم ❖ وأعظم الناس أحلامًا إذا قدروا

ويمتاز شعر الأخطل برصانة الألفاظ وفخامتها وجزالتها، ومدائحه في عبد الملك بن مروان تعد درره الشعرية، وهو فيها يكثر من أن الله اصطفاه لأمته على شاكلةِ قولِه:

وَقَد جَعَلَ اللهُ الخِلافَةَ فيكُمُ ❖ بأبيَضَ لا عاري الخِوانِ وَلا جَحِبِ
ولكن رآه الله موضع حقها ❖ على رغم أعداء وصدادة كُذب

كُذب: جمع كذاب.

وللأخطل شعر يصف فيه الخمر ودِنانها ونداماها، ويطيل في ذلك ويكثر، فقد كان شغوفًا بالخمر شغفًا شديدًا، حتى إنه ذكر في حديث له مع عبد الملك أنها هي التي تمنعه من إعلان إسلامه، والله أعلم.

وفي أخباره وأشعاره ما يدل على انصياعه لدينه النصراني أحيانًا، فقد كان يتمسح بالقساوسة تبركًا، وكانوا إذا أنزلوا به عقابًا خضع له والتزم به.

وقد ظل يهاجي جريرًا إلى أن توفي سنة اثنتين وتسعين للهجرة.

أما جرير: فهو شاعر تميمي من عشيرة كليب اليربوعية، ولم يكن لآبائه ولا لعشيرته ما لآباء الفرزدق وعشيرته من المآثر والأمجاد، فقد عرفت عشيرته بأنها كانت ترعى الغنم والحمير، ومع أنه لم ينشأ في بيت مجد وكرم، فقد نشأ في بيت شعر، وظل الشعر يُتوارث في أبنائه من بعده، وأشعر أبنائه بلال بن جرير، وحفيده عمارة من الشعراء المشهورين في العصر العباسي.

والفن الذي لا يتقدم على جرير أحدٌ فيه هو فن الهجاء، فقد تهاجى مع الفرزدق ومع الأخطل فارسي فن النقائض معه، ولكنه تفوق عليهما، كما تفوق على غيرهما من الشعراء الذين اشتبكوا معه في الهجاء، وقد نقل عن الأصمعي قوله: إنه كان ينهشه ثلاثة وأربعون شاعرًا -أي: يتهاجون معه- فينبذهم وراء ظهره ويرمي بهم واحدًا واحدًا.

وفي موضع آخر يقول: إنه كان يهاجيه ثمانون شاعرًا غلبهم جميعًا، وكان يقول: إنهم يبدءونني ثم لا أعفو، وويل للعشيرة التي كانت تتعرض له، روى الرواة أن

الفرزدق أتى مجلس بني الهجيم في مسجدهم فأنشدهم، وبلغ ذلك جريرًا، فأتاهم من الغد لينشدهم كما أنشدهم الفرزدق، فتعرض له شيخ منهم قائلًا له: اتق الله، فإن هذا المسجد بني لذكر الله والصلاة، فانصرف عنهم مغضبًا وهو يقول:

إن الهجيم قبيلة ملعونة ❖ حص اللحى متشابه الألوان
لو يسمعون بأكلة أو شربة ❖ بعمان أصبح جمعهم بعمان
متوركين بنيهم وبناتهم ❖ صعر الأنوف لريح كل دخان

وقد مدح جرير الأمويين، ومن مديحه فيهم قولُه عن الحجاج:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح ❖ فأسمع ذا المعارج فاستجابا
صبرتَ النفس يا ابن أبي عقيل ❖ محافظة فكيف ترى الثوابا
ولو لم يرض ربك لم ينزل ❖ مع النصر الملائكة الغضابا
إذا سعر الخليفة نار حرب ❖ رأى الحجاج أثقبها شهابا

ومن شعره فيهم قوله في سليمان:

سليمان المبارك قد علمتم ❖ هو المهدي قد وضح السبيل
هجرت من المظالم كل نفس ❖ وأديت الذي عهد الرسول
صفت لك بيعة بثبات عهد ❖ فوزن العدل أصبح لا يميل
وتدعوك الأرامل واليتامى ❖ ومن أمسى وليس به حويل
ويدعوك المكلف بعد جهد ❖ وعان قد أضر به القبول

وواضح أنه يجيد المديح كما كان يجيد الهجاء، لكنه في الفخر يتخلف عن الفرزدق، وكان جرير رقيق النفس، ولذلك رق غزله، وجاد رثاؤه، وجاد مديحه أيضًا.

ومن أفضل رثائه: رثاؤه في زوجته، ومنه قوله:

لولا الحياء لعادني استعبار ❖ ولزرت قبرك والحبيب يزار
وهت قلبي إذ علتني كبرة ❖ وذوو التمائم من بنيك صغار
ولقد أراك كسيت أجمل منظر ❖ ومع الجمال سكينة ووقار
صلى الملائكة الذين تخيروا ❖ والصالحون عليك والأبرار

ويمتاز شعر جرير بعزوبة كلمه وحلاوة نغمه، وأنه كان على درجة عالية من الصفاء والتهذيب، وقد جاءه ذلك من تأثره بالقرآن الكريم وأساليبه، ومن لِين نفسه ورقتها وحسن تدينه، فجاءت أشعاره لذلك صافية كأنها الجدول الرقراق، تلذ الأذن، وتلذ النفوس والأفئدة.

العلم الرابع من أعلام الشعر في العصر الأموي: كُثير عزة:

وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة، شاعر حجازي من خزاعة، كان ينزل المدينة كثيرًا، وكان كثير قميئًا -أي: قبيح الشكل- شديد القصر، وكان فيه حمق كثير، ولذلك كان الناس يسخرون منه ويهزءون به.

وعرف كثير بعشقه لعزة واسمه يقرن بها، وله فيها شعر رقيق وعفيف؛ إذ إنه كان من أصحاب الغزل العذري.

ومن رائع شعر الغزل العذري قصيدته في عزة التي يقول فيها:

خليلي هذا ربع عزة فاعقلا ❖ قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّت
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ❖ ولا موجعات القلب حتى تولت
فليت قلوصي عند عزة قيدت ❖ بحبل ضعيف بان منها فضلت
وأصبح في القوم المقيمين رحلها ❖ وكان لها باغ سواي فبلت
فقلت لها: يا عز كل مصيبة ❖ إذا و نت يومًا لها النفس ذلت

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ❖ لدينا ولا مقلية إن تقلت
هنيئًا مريئًا غير داء مخامر ❖ لعزة من أعراضنا ما استحلت
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها ❖ رأيت المنايا شرعًا قد أظلت
كأني أنادي صخرة حين أعرضت ❖ من الصم لو تمشي بها العصم ذلت
صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلة ❖ فمن مل منها ذلك الوصل ملت
أصاب الردى مَن كان يهوى لك الردى ❖ وجن اللواتي قبل عزة جنت

وكان كثير شيعيًّا، وفي شعره يتحدث عن عقيدته وإيمانه بأن عليًّا وأبناءَه هم أحق الناس بالخلافة، وفي شعره كذلك تفجع وحزن على مُن قُتل من آل البيت، وفيه رثاء لعلي > وللحسن والحسين وغيرهما من آل البيت الطاهرين، ومع ذلك فإنه كان يمدح الأمويين تقية ؛ لأن الشيعة يؤمنون بمبدأ التقية، وهذا المبدأ معناه: "أَنْ يُظْهِرَ الْإِنْسَانُ خِلَافَ مَا يُبْطِنُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ". وإذا كان مدحه للأمويين على هذا يمكن أن يكون غيرَ صادقٍ، فإن مدحه لعمر بن عبد العزيز لا نشك في صدِقه ؛ لأن عمر بن عبد العزيز أتى من الفِعال ما يجبر خصومَه قبل أصدقائه على احترامه والإشادة به، ومن شعر كثير فيه قوله:

وليت فلم تشتم عليًّا ولم تخف ❖ بريًّا ولم تقبل إشارة مجرم
وصدقت بالفعل المقال مع الذي ❖ أتيت فأمسَى راضيًا كل مسلم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ❖ تراءى لك الدنيا بكف ومِعصم
وتومض أحيانًا بعين مريضة ❖ وتبسم عن مثل الجُمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزًّا كأنما ❖ سقتك مدوفًا من سمام وعَلْقم
تركت الذي يفنَى وإن كان مونقًا ❖ وآثرت ما يبقَى برأي مصمم
وأدررت بالفاني وشمرت للذي ❖ أمامَك في يوم من الهول مظلم

فهو يثني على عمر > ، عمر بن عبد العزيز- بأنه لم يشتم عليًّا، وأنه نَهَى الناس أو الخطباءَ الذين كانوا يسبون عليًّا بأمر الأمويين عن ذلك، ويمدحه بأنه كان عادلًا، وأنه كان صادقًا، وأنه كان زاهدًا، مقبلًا على الله ﷻ راغبًا فيما عنده.

العلم الخامس من أعلام الشعر الأموي، هو: جميل بن معمر:

وجميل بن معمر هو أشهر شعراء الغزل العذري في العصر الأموي، وأكثر شعره في التغني ببثينة معشوقته، وكانت بثينة إحدى بنات قبيلته، تحابَا صغيرين، وأصبحت ملهمتَه في شعره، فقد أحبها حبًّا انتهى به إلى الهُيام بها، وعرَفت ذلك فمنحته حبها وعطفها، وأخذت تلتقي به أحيانًا حينما شبَّا في غفلات من قومهما، ولما خشي أهلها مغبَّةَ هذا اللقاء، ضيقوا عليها الخناق، ولم يسمحوا لها بمقابلة جميل، واستبد حب بثينة بقلبه وأخلص في ذلك الحب.

ويذكر بعض الرواة: أن أول لقاء جمع بينهما وكان سببًا في حبهما، أن جميلًا كان يرعَى إبلًا له في بعض الأودية، فمرَّت بثينة بهذه الإبل، فهاجتها، فسبها جميل وسبته، وأثناء هذه المعركة ملأ كل منهما عينيه من صاحبه، ووقع حب كل منهما في قلب الآخر، وفي ذلك يقول جميل:

وأول ما قاد المودة بيننا ❖ بوادي بغيض يا بثين سباب
وقلت لها قولًا فجاءت بمثله ❖ لكل كلام يا بثين جواب

ومن شعره فيها قوله:

وأنت التي إن شئت كدرت عيشتي ❖ وإن شئت بعد الله أنعمت باليا
وأنت التي ما من صديق ولا عِدا ❖ يرى نِضو ما أبقيت إلا رثَى ليا

فإنك لو تجلين نحو تِهامة ❖ أو الركن من حوران أصبحت جاليا
وقد خفت أن يغتالني الموت بغتةً ❖ وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وإني لتثنيني الحفيظة كلما ❖ لقيتك يومًا أن أبثك ما بيا
ألم تعلمي يا عذبة الماء أنني ❖ أظل إذا لم أُسق ماءك صاديا

ويمتاز شعر جميل بعمق العاطفة وصدقها وحرارتها، وبغلبة الهوى عليه، وتصويره لشقاء الحرمان من محبوبته، وشعره رقيق في ألفاظه، جميل في صوره، عَذْب في موسيقاه، وقد ظلت بثينة وفية لحبها جميلًا ويقول الرواة: إنها ظلت تبكيه إلى أن لَحِقت به، والله أعلم.

أما الوليد بن يزيد: فهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، ولد سنة ثمانٍ وثمانين من الهجرة، فتفتحت عينه على النعيم وعلى الترف، بل على اللهو والمجون؛ إذ كان أبوه كلفًا بالخمر والغناء حتى في خلافته، ونشأ الوليد هذه النشأة الناعمة المترفة الماجنة، فأثَّرت في سلوكه، وأثرت كذلك في شعره، وكان أكثر شعره في وصف الخمر، وله أشعار في الغزل والحب، ولكنها دون أشعار الخمر في الإبداع والروعة.

ويقول الدكتور شوقي ضيف: ويظهر أنه ثقف كل ما نظم فيها -أي: في الخمر- قديمًا، وقد مضى ينميه ويضيف إليه من مواهبه ومشاعره وملكاته، ما أتاح لفن الخمريات أن يأخذ طريقه إلى الظهور؛ إذ لم تعد أشعار الخمر عنده توضع في ثنايا قصيدة، أو في مقدمتها، كما كان الشأن عند سابقيه، بل أصبحت تنظم في مقطوعات لها وحدتها الموضوعية والمعنوية، تنبض بالحياة وتخفق بالجذل والسرور لسبب طبيعي، هو أن ناظمها عاشق للخمر، وهو ينظمها في غمرة عشقه، وكأنما تفجر له ينابيع الفرح تفجيرًا.

ومما أورده له الدكتور شوقي ضيف في ترجمته له هذه الأبيات التي يظهر فيها ولعه بالخمر، وفرحه بها، وتبدو فيها قدرته على وصفها وصفًا معبرًا مصورًا، يقول:

اصدع نجي الهموم بالطرب ❖ وانعم على الدهر بابنة العنب
واستقبل العيش في غضارته ❖ لا تقف منه آثار معتقب
من قهوة زانها تقادمها ❖ فهي عجوز تعلو على الحِقب

والقهوة: المراد بها الخمر؛ لأنها اسم من أسمائها، وقوله: "هي عجوز" يقول عن الخمر: إنها قديمة معتقة، وذلك أدعَى إلى أن تكون أجودَ، ثم يقول عنها:

أشهى إلى الشرب........ ❖ ....

والشرب: هم الشاربون.

أشهى إلى الشرب يوم جلوتها ❖ من الفتاة الكريمة النسب
فقد تجلت ورق جوهرها ❖ حتى تبدت في منظر عجب
كأنها في زجاجها قَبس ❖ تزكو ضياء في عين مرتقب

ومن عره في الخمر أيضًا قوله:

علاني واسقياني ❖ من شراب أصبهاني
من شراب الشيخ كسرى ❖ أو شراب القيرواني
إن في الكأس لمسكًا ❖ أو بكفي مَن سقاني
أو لقد غودر فيها ❖ حين صبت في الدناني
كللاني توجاني ❖ وبشعري غنياني
إنما الكأس ربيع ❖ يتعا ى بالبناني
وحمي الكأس دبت ❖ بين رجلي ولساني

وواضح جدًّا ما تتسم به هذه الأشعار من رقة في الصياغة، وسلاسة وسهولة في الألفاظ، وعزوبة في الموسيقى، كما تتسم هذه الأشعار بالتناسب والتناسق، والتفاعل الكامل بين المعاني والألفاظ، بل بين المعاني والإيقاعات؛ إذ إن هذا الشاعر كان عازفًا يجيد اللعبَ على أوتار العود، والتوقيعَ على الطبول والدفوف، وقد أثر ذلك في موسيقى شعره.

شعر الفرق السياسية

وأول فرقة نتحدث عنها وعن شعرها، هي: فرقة الخوارج:

والخوارج: هم الذين خرجوا على علي < بعد أن كانوا أنصاره يقاتلون تحت رايته، وبعد أن قبل التحكيم بينه وبين معاوية، خرجوا عليه ورفضوا التحكيمَ، واتهموه بالتقصير في حقه، أو أنه لا يؤمن بحقه، ثم تطرف منهم مَن تطرف واتهم عليًّا بالكفر، ثم اتهموا جميع المسلمين الذين يخالفونهم بالكفر، وراح الخوارجُ يقاتلون كلَّ مَن عداهم وكلَّ من لا يؤمن بفكرهم.

وعاشوا طوال العصر الأموي يقاتلون الأمويين ويَخرجون عليهم، وكانوا يذهبون إلى أن الخلافة حق لأي مؤمن عادل تقي، ولا يقصرون هذا الحق على القرشيين، وكان في الخوارج إقبال شديد على الآخرة وزهدٌ كبير في الدنيا، ورغبة شديدة في الاستشهاد في سبيل عقيدتهم التي يؤمنون بها، ويكاد شعرهم لا يخرج عن معاني تصوير حياتهم، وتصوير جهادهم، وقتالهم، ورثاء شهدائهم، والتعبير عن رغبتهم في لقاء الله، والرغبة فيما أعدَّه من الجنان للأتقياء المجاهدين.

فشعرهم يصور إيمانهم بعقيدتهم ولا يصور عقيدتهم بتفاصيلها، وهو من الناحية الفنية شعر الطبع الذي لا يعرف التكلف ولا الصنعة، وهو في أغلبه شعر مقطوعات لا يبدأ بمقدمة كما كان العهد في القصيدة التقليدية؛ فلقد كانوا مشغولين بالقتال والحرب، ولا وقتَ عندهم للتجويد والتحسين وبناء القصائد الطوال.

ويتضح في شعرهم كذلك التأثر الواضح بالقرآن الكريم، وبما ورد فيه من الحديث عن ثواب الشهداء، وعن الجنة، وما ورد فيه من الترغيب في الزهد في الدنيا.

ومن أشهر شعراء الخوارج: قطري بن الفُجاءة، وعمران بن حطان، والطرماح بن حكيم.

ومما يدل على عقيدتهم في علي > قول عمران بن حطان مُشيدًا بالضربة الآثمة التي وجهها عبد الرحمن بن ملجم لعلي بن أبي طالب > فقتله، يقول عمران بن حطان:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ❖ إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حينًا فأحسبه ❖ أوفَى البرية عند الله ميزانا

وبالتأكيد هذا قول غير صحيح، ومن شعر عمران أيضًا قوله بعد أن قتل أبو بلال مرداس سنة واحد وستين للهجرة، وكان أحد قادتهم، يقول عمران:

لقد زاد الحياة إلي بغضًا ❖ وحبًّا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشي ❖ وأرجو الموت تحت ذرى العوالي
ولو أني علمت بأن حتفي ❖ كحتف أبي بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإني ❖ لها والله رب البيت قالي

ولامرأة من الخوارج شعر تُصور فيه رغبتها في الموت، وتعجلها إياه، واستثقالها الدنيا، تقول:

أحمل رأسًا قد سئمت حمله
وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله

فهي ترغب في الموت شهادةً في سبيل الله وفي سبيل ما تؤمن به!!

وللطرماح بن حكيم أبيات يتمنَّى فيها أن يكون موته شهادة في سبيل الله، وألا تكون وفاته وفاةً تقليديةً يُحمل بعدها على نعش كما يحمل الناس، فيقول:

فيا رب إن حانت وفاتي فلا تكن ❖ على شرجع يعلى بخضر المطارف

الشرجع: النعش. وخضر المطارف: الفُرش الخضر التي تفرش عليه.

يقول:

ولكن أحن يومي سعيدًا بعصبة ❖ يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ❖ تُقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دُنياهم فارقوا الأذى ❖ وصاروا إلى موعود ما في المصاحف

وقد كان الخوارج مجتهدين في العبادة، صوامين قوامين بالليل والنهار، مجاهدين في سبيل ما يعتقدون أنه الحق، وقد كان قتل إخوانهم يزيدهم رغبةً في الاستشهاد واللحوق بهم، وهذا عمران يخاطب زوجه جمرةَ، فيقول:

يا جمر يا جمر لا يطمح بك الأمل ❖ فقد يكذب ظن الآمل الأجل
يا جمر كيف يذوق الخفض معترف ❖ بالموت والموت فيما بعده جلل
كيف أواسيك والأحداث مقبلة ❖ فيها لكل امرئ عن غيره شغل

وفي موضع آخر يخاطب زوجه مذكرًا إياها بأن الموت نهاية كل حي، وأنه ما دام الموت سيأتيه، فالأفضل أن يأتيه وهو يجاهد في سبيل ما آمن به، يقول مخاطبًا زوجه:

إن كنت كارهة للموت فارتحلي ❖ ثم ا لـي أهل أرض لا يموتونا

فلست واجدة أرضًا بها بشر ❖ إلا يروحون أفواجًا ويغدون

يا جمر قد مات مرداس وإخوته ❖ وقبل موتهم مات النبيونا

يا جمر لو سلمت نفس مطهرة ❖ من حادث لم يزل يا جمر يعيينا

إذًا لدامت لمرداس سلامته ❖ وما نعاه بذات الغصن ناعونا

وهكذا يستلهم الخوارج في شعرهم حياتهم وعقيدتَهم التي آمنوا بها، ويعبرون بهذا الشعر عمَّا آمنوا به ويصورون حياتهم.

وأما الشيعة:

فهم أولئك الذين كانوا يعتقدون أن الخلافة حق لعلي > ولأبنائه مَن بعده، وكانوا يعتقدون أن الذين استولوا على أمر الحكم ظالمون مغتصبون، وكانوا يحملون في قلوبهم عداءً وحقدًا شديدين لبني أمية، ولما قتل علي > وقتل أبناؤه من بعده، حزن أولئك المتشيعون عليهم حزنًا شديدًا، وأحس كثير منهم بالذنب على أنه لم ينصر هؤلاء المظلومين.

وأشعار الشيعة تشيع فيها زفرات الحزن والندم، وتشيع فيها كذلك صرخات الألم، وصيحات الغضب على بني أمية؛ ومن شعرائهم: أبو الأسود الدؤلي، وكثير عزة، والكميت بن زيد، وغيرهم كثيرون، وقد فصلوا في شعرهم في بعض الأحيان مبرراتِ ما اعتقدوه، وردوا على خصومهم، وأعلنوا حبهم وولاءهم لعلي وأبنائه وبُغضهم للأمويين. من هذا الشعر مثلًا قول أبي الأسود الدؤلي:

أحب محمدًا حبًّا شديدًا ❖ وعباسًا وحمزةَ والوصيا

أحبهم لحب الله حتى ❖ أجيء إذا بعثت على هويا

هوى أعطيته منذ استدارت ❖ رَحى الإسلام لم يعدل سويا
بنو عم النبي وأقربوه ❖ أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشدًا أصبه ❖ ولست بمخطئ إن كان غيا

ويتسم شعر الشيعة بأنه شعر ديني ذو صِبغة سياسية، وهو شعر عاطفي حزين حزنًا بالغًا، متميزًا وصادقًا، وقد مال كثير من الشعراء إلى نزعة عقلية في مُحاجة خصومهم، وبَسْطِ أصول مذهبهم، والاستدلال على صحته.

كما يتسم هذا الشعر بطابع شعبي أسطوري سببه غلو الشيعة في عقيدتهم، وتطرف بعضهم في المذهب، وقد كان قَتْلُ الحسين > بابًا من أبواب المغالاة، والزعم بأن الجن بكته وقالت فيه شعرًا، ومن العقائد التي يدينون بها: أن المهدي الذي ينتظرونه لتخليصهم وتخليص الناس من الظلم، والعودة بالحكم إلى البيت الهاشمي، يختفي في مكان ما من الأرض، وأنه يعيش ويحيا وسيعود يومًا إلى الدنيا، وأوصاف هذا المهدي تظهر في قول الكميت:

بمرضي السياسة هاشمي ❖ يكون حيًّا لأمته ربيعا
وليًّا في المشاهد غير نكس ❖ لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورَها ويذب عنها ❖ ويترك جَدْبها أبدًا مريعا

ويزعمون أن هذا المهدي يُقيم في شِعب من شعاب "رضوى المورقة" يحظَى بصحبة الملائكة الأبرار وبحديثهم الشهي؛ وذلك لأنه حي لم يمت، ولم توارِ عظامه أرض ما، وفي ذلك يقول السيد الحميري:

لقد أمسى بمورق شعب رضوى ❖ تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ❖ ولا وارت له أرض عظاما
وإن له به لمقيل صدق ❖ وأندية تحدثه كلاما

وابن خولة المقصود به محمد بن الحنفية.

وأما الشعوبية:

فهي نزعة عنصرية ظهرت على أيدي الشعراء الفرس الذين كانوا يضيقون ذرعًا بالأمويين وحكمهم؛ لأن الأمويين كانوا يتعصبون للعرب، وكانوا يعاملون الموالي والأعاجم الذين دخلوا في الإسلام معاملةً قاسيةً، فظهرت هذه النزعة الشعوبية عند الفرس، وهي تهدف إلى تمجيد الحضارة الفارسية، وهدم السيادة العربية، وإعادة الدولة الفارسية إلى سابق عهدها وحضارتها، وقد انعكست هذه النزعةُ في الشعر، خاصةً عند إسماعيل بن يسار الذي افتخر بعنصره، فقال:

رب خال متوج لي وعم ❖ ماجد مجتدًى كريم النصاب
إنما سُمي الفوارس بالفر ❖ س مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركي الفخر يا أُمام علينا ❖ واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنا وعنكم ❖ كيف كنا في سالف الأحقاب
إذ نربي بناتنا وتدسو ❖ ن سفاها بناتكم في التراب

فهو هنا يفتخر بأجداده وأخواله وأعمامه من الفرس، ويطلب من أُمامة العربية أن تترك الفخر بقومها وأن تنطق بالصواب، ويذكر أن جدوده كانوا يربون بناتهم في الوقت الذي كان العرب الأقدمون يئدون البنات، ويدسونهن في التراب. وكانت هذه النزعة في العصر الأموي تظهر على استحياء؛ إذ لم يكن هؤلاء الموالي أو هؤلاء الفرس المتعصبون يجرءون على أن يعبروا عن هذه النزعة بجرأة ووضوح، إلى أن دانت دولة الأمويين وزالت، وجاء العباسيون الذين كان للفرس دَوْرٌ كبير في نصرهم، وإظهار دولتهم؛ فظهرت هذه النزعة ظهورًا واضحًا قويًّا في الشعر العربي، خاصةً عند بشار بن بُرد.

النثر في العصر الأموي

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : الخطابة الأمويّة: موضوعاتها، وخصائصها الفنية ٣٦٩
العنـــصر الثـــاني : الكتابة في العصر الأموي: موضوعاتها، وخصائصها الفنية ٣٧٦

الخطابة الأموية : موضوعاتها، وخصائصها الفنية

النثر نوعان : الخطابة ، والكتابة :

أما الخطابة :

فقد ازدهرت ازدهارًا عظيمًا في العصر الأموي ، وتنوعت اتجاهاتها ؛ فنجد الخطابة السياسية ، وفيها تبارت الأحزاب السياسية المختلفة ، كلٌّ يريد بالخطابة أن ينشر مذهبه ، وأن يقنع الناس بمبادئه ، وكان يغلب على هذا النوع من الخطابة ضخامة الألفاظ وفخامتها ، وشدة الأسر ، ومتانة الأسلوب ، والعنف في الوعيد والتهديد ، وكان فيها كذلك إسراف في السب والشتم.

وهذا التنازع السياسي قضى على كل حزب أن يكون له خطباؤه البارزون المفوهون ، القادرون على دحض حجج خصومه ، وإظهار حجج حزبه الذي يتحدث باسمه ، ويدعو الناس إليه ، وكان على هؤلاء الخطباء أن يجيدوا استنباط الحجج ، وأن يحسنوا التفكير فيما يقولونه ؛ ليستطيعوا أن يقنعوا به غيرهم ، وكان عليهم كذلك أن يكونوا قادرين على التأثير في غيرهم بما يقولون ، واشتهر في هذا المجال كثيرون ؛ منهم : زياد بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، وغيرهما ممن ينتمون إلى الحزب الأموي ، وغيرهما من خطباء الأحزاب الأخرى.

ومن أنماط الخطابة التي ازدهرت في هذا العصر كذلك :

الخطابة الدينية :

وكانت هذه الخطابة الدينية تتأثر بالسياسة في كثير من الأحيان ، وكان الخطباء الدينيون يستشهدون بآي القرآن الكريم ، وبالحديث النبوي الشريف ، وكانوا

يـدعون النـاس إلى الزهـد في الـدنيا، ويحـذرونهم مـن غرورهـا ومفاتنهـا، ويوجهـونهم إلى العمـل للآخـرة ونعيمهـا، والعمـل بمـا يقـيم الحـق والعـدل في المجتمع، وكان الخطباء يلتزمون الحمد في أول الخطبة، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ويكثرون من الاستشهاد بالقرآن الكريم، ويقتبسون منه بعض الآيات أو جزءًا من الآيات، وفي هذا المجال أسهم كثير من خطباء الخوارج وخطباء العلويين والزبيريين.

ومن الاتجاهات التي ازدهرت فيها الخطابة كذلك: الخطابة الاجتماعية، ومنها أيضًا: خطب المحافل والوفود.

ولقـد حـرص الخطبـاء جميعًـا علـى العنايـة بتهـذيب ألفـاظهم، واختيـار موضوعاتهم، وتنميق وتنسيق أفكارهم، وصوغ العبارات بما يناسب المعاني، وحرصوا كذلك على الانتفاع بالقرآن وأحاديث الرسول ﷺ والاقتباس منهما، وكان للتهذيب النفسي والذوقي أكبر أثر في بناء الخطب، وسوقها على نحو من البلاغة المؤثرة في عقول المخاطبين ونفوسهم، وكان الخطباء حراصًا على ترك الحوشي من الكلام والغريب منه، وكانوا كذلك حراصًا على جزالة الألفاظ واستقامة الأسلوب، والبعد عن العامي الساقط، وكانت عباراتهم متأثرة تأثرًا واضحًا بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كما أسلفت.

ولا بد لنا أن نعرض نماذج من هذه الخطب، تدلنا على أهمية الخطابة، وبلاغة الخطباء، من هذه النماذج: خطبة معاوية بن أبي سفيان بالمدينة، سنة واحد وأربعين من الهجرة، وهو عام الجماعة، حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال:

"أما بعد: فإني واللّه ما وَلِيتُها بمحبة منكم، ولا مَسَرَة بولايتي، ولكني جالدتُكم بسيفي هذا مُجالدة، ولقد رُضْتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحَافة -

والمقصود بابن أبي قحافة أبي بكر، > وأردتُها على عمل عُمر، فنفرتْ من ذلك نِفَارًا شديدًا، وأردتُها على سُنِيَّات عثمان -والمراد بسنيات عثمان سنواته- فأبت عليَ فسلكتُ بها طريقًا لي ولكم فيه منفعةً: مؤاكلة حَسنة، ومُشاربة جميلة؛ فإن لم تَجدوني خيركم، فإني خيرٌ لكم ولايةً. واللّه لا أحمل السيفَ على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يَسْتَشفي به القائلُ بلسانه، فقد جعلتُ له ذلك دَبْرَ أُذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقّكم كُلَّه فاقبلوا منّي بعضَه، فإنْ أتاكم منّي خيرٌ فاقبلوه؛ فإن السيل إذا جاد يُثري، وإن قلّ أَغنى، وإياكم والفتنةَ، فإنها تُفسد المَعيشة، وتكدّر النّعمة"، انتهت خطبته.

هذه من الخطب السياسية، وواضح فيها أسلوب الإغراء والتحذير والتهديد والوعيد، وواضح أنها ترمي إلى هدف بيّن يريد معاوية أن يخضع الناس لسلطانه؛ فيبين لهم أنه ما ولي الخلافة على حبّ منهم، ولا بمسرة منهم، وهو يوجه كلامه إلى أهل المدينة، وكانت المدينة لا تريد معاوية، ويبيّن لهم أنه حمل نفسه على أن يسير فيهم على طريقة أبي بكر؛ فلم يستطع، وأنه لم يستطع كذلك أن يحمل نفسه على أن تسير على عمل عمر، ويبيّن لهم كذلك أنه لم يستطع أن يحمل نفسه على طريقة عثمان؛ فله إذًا طريقته الخاصة التي يدعوهم إلى الرضا بها والاستجابة لها، ويحذرهم من الخروج عليها، يحذرهم من الفتنة، ويطلب منهم أن يرضوا بما يأتيهم من خيره، ويبيّن لهم أن الفتنة تُفسد المعيشة وتكدر النعمة.

ومن الخطابة السياسية كذلك: خطبة زياد بن أبيه، بالبصرة سنة خمس وأربعين من الهجرة، وتُسمى هذه الخطبة بالخطبة البتراء؛ لأن ابن زياد لم يبدأها بالحمد، قال فيها:

"فإن الجهالة الجَهْلاء، والضلالة العَمْياء، والغي المُوفي بأهله على النار، ما فيه سُفهاؤكم، ويَشتمل عليه حُلماؤكم، من الأمُور العِظام؛ يَنبُت فيها الصغير، ولا يَتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تَقْرءوا كِتاب الله، ولم تَسمعوا بما أَعدَّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذَاب العَظيم لأهل مَعْصيته، في الزَمن السرمديّ الذي لا يزول. أتكونون كمَن طَرفَتْ عَيْنيه الدنيا، وسدت مسامعَه الشهوات، واختار الفانيةَ على الباقية، ولا تَذْكُرون أنكم أَحدثتم في الإسلام الحَدَث الذي لم تُسبقوا إليه، مَن تَركَكم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، ما هذه المَواخير المنصوبة، والضعيفة المَسْلوبة في النّهار المُبصر، والعدَدُ غيرُ قليل. ألم يكن منكم نُهاة تَمنع الغُواة عن دَلجَ الليل وغارة النهار؟! قَربتم القرابة، وباعدتم الدين، تَعتذرون بغير العُذر، وتَغُضّون على المُختَلس كُلّ امرئ منكم يَذُب عن سَفِيهه، صَنِيعَ مَن لا يخاف عقابًا ولا يرجو مَعادًا".

ثم قال: "حرامٌ عليّ الطعامُ والشّراب حتى أُسويها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا، إني رأيتُ هذا الأمر لا يَصلح إلّا بما صَلَح به أولُه؛ لِينٌ في غير ضَعْف، وشِدّة في غير عُنْف، وإني أُقسم باللّه لآخُذنَ الوليّ بالمولى، والمُقيم بالظّاعن، والمُقْبل بالمُدبر، والمطيع بالعاصي، والصحيحَ منكم بالسَّقيم، حتى يَلْقى الرجلُ منكم أخاه فيقول: انْجُ سَعْد فقد هلك سُعيد، أو تَستَقيم لي قَناتُكم".

ثم يقول: "إن كِذْبَة المنبر بَلقاء مشهورة؛ فإذا تعلقتم عليّ بكذْبة، فقد حلّت لكم مَعْصيتي، وقد أحْدثتم أحداثًا لم تكن، وقد أَحدثنا لكُلّ ذَنب عُقوبةً، فمَن أغرق قومًا أغرقناه، ومَن أحرق قومًا أحرقناه، ومَن نَقَبَ بيتًا نَقبنا عن قَلْبه، ومَن نَبَش قَبرًا دفنّاه حيًّا فيه، فكُفُّوا عني أيدَيكم وألسنَتكم أكفف عنكم يدي ولساني، ولا تَظهر من أحد منكم ريبةٌ بخلاف ما عليه عامّتكم إلّا ضربتُ عُنقه".

ثم ختم خطبته بقوله: "وايم اللّه، إن لي فيكم لصَرْعى كثيرين، فَلْيحذر كل امرئ منكم أن يكون مِنْ صَرعاي".

وواضح أن هذه الخطبة أيضًا تتسم بالعنف في وعيدها وتهديدها، وقد كانت البصرة والعراق عمومًا مائجة بالثورة والاضطرابات على بني أمية؛ ولذلك كان خطب ولاتهم وأمرائهم تتسم بهذا العنف الشديد في مخاطبة الناس، وتحذيرهم وتخويفهم.

وعلى هذا النحو أيضًا تمضي خطب الحجاج بن يوسف، ومن هذه الخطب خطبته في مسجد البصرة؛ إذ قال:

"أيها الناس، من أعياه داؤه فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعلي أن أعجله؛ ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره قصرت عليه باقيه. إن للشيطان طيفًا، وللسلطان سيفًا، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته؛ ومن وضعه ذنبه، رفعه صلبه؛ ومن لم تسعه العافية، لم تضق عليه الهلكة؛ ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه؛ إني أنذر ثم لا أنظر، وأحذر ثم لا أعذر، وأتوعد ثم لا أعفو. إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم؛ ومن استرخى لبّه ساء أدبه. إن الحزم والعزم سلباني سوطي وأبدلاني به سيفي: فقائمه في يدي، ونجاده في عنقي، وذبابه قلادة لمن عصاني؛ والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد؛ فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه".

ومن نماذج الخطابات الدينية: خطبة مصعب بن الزبير لما قدم العراق واليًا عليها من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير، قبل أن يهزمه الأمويون، قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ١- ٤] وأشار بيده نحو الشام؛ يريد أن هذا الكلام ينطبق

على الأمويين. ثم قال: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص: 5]، وأشار بيده نحو الحجاز مستقر أخيه عبد الله بن الزبير.

ثم قال: ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: 6]، وأشار بيده نحو العراق. ثم نزل".

وواضح أن هذه الخطبة وإن كانت خطبة دينية؛ فإنها تلتحم التحامًا وثيقًا بالسياسة.

أما خطب المحافل فمن نماذجها هذه الخطبة القصيرة لعبد الله بن همام السلولي الكوفي؛ فقد دخل على يزيد بن معاوية حين استخلف بعد موت أبيه، والناس مجموعون على بابه يتهيبون القول، فقال عبد الله هذا:

"يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية، وبارك لك في العطية، وأعانك على الرعية؛ فلقد رزئت عظيمًا، وأعطيت جسيمًا، فاشكر الله على ما أعطيت، واصبر له على ما رزيت، فقد فقدت خَليفة الله، ومُنحت خِلافة الله، ففارقت جليلًا ووهبت جزيلًا".

وقد استطاع هذا الخطيب ببلاغته أن يجمع بين التعزية والتهنئة في وقت واحد، ويلاحظ أنه عمد إلى السجع بين جمل خطبته، والخطبة سهلة الألفاظ، واضحة المعاني، متينة الأسلوب كما ترى.

ومن خطباء المحافل كذلك: الأحنف بن قيس، ومن خطبه هذه الخطبة التي قالها بين يدي معاوية > يشرح له حال أهل البصرة، وما يؤملونه في الخليفة من العون والمساعدة، قال:

"يا أمير المؤمنين، أهلُ البصرة عدد يسير، وعَظْمٌ كسير، مع تتابع من المُحُول، واتصالٍ من الذُحول فالمكْثِرُ فيها قد أطرق، والمُقلُّ قد أمْلَق، وبلغ منه المخنق؛

فإنْ رَأى أميرُ المؤمنين أن ينعشَ الفقيرَ، ويَجْبُرَ الكسير، ويسهل العسير، ويَصْفَح عن الذُحول، ويُدَاوِي المُحول، ويأمر بالعَطَاء؛ ليكشَفَ البَلاَء، ويُزِيل اللأواء. وإنَ السيدَ من يعم ولا يخص، ومَنْ يدعو الجَفَلَى، ولا يَدْعُو النَقَرَى، وإنْ أُحْسِنَ إليه شكر، وإنْ أسِيءَ إليه غفَرَ، ثم يكون من وراء ذلك لرعيته عِمَادًا يَدْفعُ عنها المُلّمات، ويكشفُ عنها المعضلات".

وقد وردت في هذه الخطبة بعض الألفاظ التي نود أن نبين معناها؛ فكلمة "الذحول" معناها: الثارات، جمع ثأر. والمكثر فيها أي: الغني. قد أطرق أي: هزل وضعف، و"المقل قد أملق" أي: افتقر. وكلمة "اللأواء" معناها: الشدة. وقوله: الجفلى: الدعوة العامة، يريد من معاوية أن يعفو عن خصومه، وأن يعامل الناس كلهم معاملة حسنة. والدعوة النقرى أي: الخاصة؛ يطلب منه أن يسوي في الإحسان بين الجميع.

وأما خطب المواعظ والقصص، فأشهر من عُرف بالإجادة فيها: الحسن البصري؛ فقد كان الحسن البصري إمامًا في الزهد والصلاح في عصره، وكان يدعو الناس إلى التخفف من الدنيا، وإلى الإقبال على الله ﷻ بالتقوى والعمل الصالح، ومن مواعظه التي رواها له الجاحظ قوله:

"يا ابن آدم، بِعْ دنياك بآخرتك تربَحْهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسَرَهما جميعًا، يا ابن آدم، إذا رأيت النّاس في الخير فنافِسْهم فيه، وإذا رأيتهم في الشّرِّ فلا تغبطهم به؛ الثّواءُ ها هنا قليل، والبقاء هناك طويل. أمَا إنّه واللّه لا أمّةَ بعد أمّتكم، ولا نبيَّ بعد نبيِّكم، ولا كتابَ بعد كتابكم، أنتم تسوقون النّاسَ والسّاعةُ تسوقكم، وإنّما يُنْتَظَر بأوّلكم أن يلحق آخرَكم، مَنْ رأى محمدًا ﷺ فقد رآه غاديًا رائحًا لم يضع لَبِنةً على لَبِنة، ولا قَصبةً على قصبة ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

يا ابنَ آدم، طأ الأرضَ بقدمِك ؛ فإنَّها عما قليل قبرُك، واعلم أنَّك لم تَزَلْ في هدم عُمرك مذ سقطتَ من بطن أمِّك، فرحِمَ اللَّهُ رجلًا نَظَرَ فتفكَّر، وتفكَّر فاعتبر، واعتبَرَ فأبصر، وأبصَرَ فصَبَر.

يا ابن آدم، اذكُرْ قوله: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، عَدَلَ واللَّهِ عليك مَن جَعَلك حسيبَ نفسك، خذُوا صفاء الدُّنيا وذروا كدَرَها. دَعوا ما يَريبكم إلى ما لا يُريبكم.

لقد صحبتُ أقوامًا ما كانت صحبتُهم إلاّ قُرّةَ العين، وجِلاءَ الصدر. ولقد رأيتُ أقوامًا كانوا من حسناتهم أشفَقَ من أن تُرَدّ عليهم منكم من سيئاتكم أن تُعذَّبوا عليها. وكانوا فيما أحلَّ اللَّهُ لهم من الدُّنيا أزهدَ منكم فيما حرّم عليكم منها، لو تكاشفتم ما تدافَنْتم، تهاديتم الأطباقَ ولم تتهادَوا النَّصائح، قال ابن الخطَاب: "رحم اللَّه امرأً أهدى إلينا مساوِيَنا"، أعِدُّوا الجوابَ فإنّكم مسئولون. يا ابن آدم، ليس الإيمانُ بالتحَلِّي ولا بالتمنّي، ولكنه ما وَقَر في القُلوب، وصدَّقته الأعمال".

الكتابة في العصر الأموي: موضوعاتها، وخصائصها الفنية

أما الكتابة: فقد ازدهرت ازدهارًا عظيمًا في العصر الأموي بسبب الظروف الطارئة التي جدت على نظام الدولة الإسلامية، واستقرار الحكم في يد الأمويين، وحاجة الأمصار المختلفة إلى الكتابة بين ولاتها وبين الخليفة، وظهرت الكتابة الديوانية إلى جانب كتابة الرسائل التي كانت معروفة منذ عهد النبي ﷺ ولقد ظلت كتابة الرسائل على ما هي سائرة عليه، وكان لكل خليفة كاتب رسائل يتولى الخليفة بنفسه إملاءها عليه، وكانت هذه الرسائل تعبر عن أصحابها

من الخلفاء والولاة والأمراء، ولم يظهر للكتاب شخصية مستقلة عن شخصية الخليفة أو الأمير الذي يمليه، إلا في عهد سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه على الرسائل؛ إذ كان ينوب عن الخليفة في كثير منها، ويزين بعض الرسائل بما يدل على أنه هو منشؤها، وبهذا بدأت تظهر على يديه صناعة الكتابة الإنشائية ذات الصبغة الفنية، والنظم والقيود، ولكنها لم تثمر ثمرتها الناضجة إلا على يد تلميذه عبد الحميد بن يحيى الذي عُرف فيما بعد بعبد الحميد الكاتب.

ولقد مرت الكتابة الفنية الإنشائية بطورين:

الطور الأول: من قيام الدولة إلى عهد عبد الملك، وكانت الكتابة فيه تسير على نهجها في صدر الإسلام من السهولة والإيجاز، والوضوح وعدم التكلف، وخلوها من عبارات التفخيم، واحتذائها حذو القرآن، وكان أغلبها يملى ارتجالًا، وكانت الرسالة تسير على منوال الخطبة، وتشبهها.

الطور الثاني: يبدأ من عهد الوليد بن عبد الملك إلى آخر حياة العصر الأموي، وقيل: إن الوليد هو أول من جود القراطيس، وجلل الخطوط، وفخم المكاتبات، وتبعه من بعده الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد؛ فإنهما جريا في المكاتبات على طريقة السلف.

وقد اتسمت الكتابة في هذا الطور بالتدرج في التأنق والصنعة، والإطناب، وإشراق البيان، وحسن الديباجة؛ حتى صارت صناعة فنية لها أصول وقواعد، وكان ذمامها بأيدي الموالي الذين دخلوا في الإسلام واختلطوا بالعرب في الأقاليم الإسلامية، كالشام والحجاز والعراق، وكان هؤلاء الموالي يجمعون إلى الثقافة العربية الإسلامية ثقافتهم الأولى؛ كالفارسية واليونانية وغيرهما من الثقافات،

ولذلك ظهرت في كتاباتهم آثار من هذه الثقافات الفارسية، أو اليونانية أو غيرها. وكان منهم سالم مولى هشام بن عبد الملك وأستاذ عبد الحميد الكاتب وأحد الواضعين لنظام الرسائل وصنعة الكتابة.

وقد أثر سالم مولى هشام في تلميذه عبد الحميد، واستطاع عبد الحميد أن يضيف إلى ما تعلمه من أستاذه سالم، وكان عبد الحميد يجيد الفارسية كما يُجيد العربية، وكان مثقفًا بثقافة اليونان، وأفاد من صحبته لابن المقفع؛ فاستطاع من خلال هذه الثقافات جميعًا أن يبتكر في صناعة الكتابة أمورًا من أهمها: الإيجاز في غير إخلال، والإطناب في غير إملال؛ حتى قيل: إنه كان يكتب في سطر واحد ما يكتبه في صفحات، ولقد روي أنه كان كتب إلى أبي مسلم الخراساني حين أظهر الدعوة لبني العباس كتابًا يستميله فيه، وقال لمروان: لقد كتبت كتابًا متى قرأه بطل تدبيره، فإن يك ذاك، وإلا فالهلاك. وكان الكتاب لكبر حجمه يُحمل على بعير؛ فلما ورد الكتاب على أبي مسلم أمر بإحراقه، ولم يقرأه وكتب على جذاذة منه:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى ❖ عليك ليوث الغاب من كل جانب

ومن إيجازه قوله موصيًا بشخص: "حق موصل كتابي إليك كحقه عليّ إذ جعلك موضعًا لأمله، ورآني أهلًا لحاجته؛ فصدق أمله".

وطلب مروان أن يكتب لعامل أهدى إليه عبدًا أسود؛ فكتب إليه: "لو وَجَدّت لونًا شرًّا من السواد وعددًا أقل من الواحد لأهديته".

ومنها كذلك أنه أطال في الفواتح والخواتيم، بما يُعد جديدًا في هذا العصر؛ كالإتيان بكثير من التحميدات في أساليب متنوعة، وصور مختلفة. وكالبدء بـ"بسم الله" ثم إتباعها بـ"الحمد لله" فاصلًا بينهما بـ"أما بعد". وفي الخواتيم التي كانت

قاصرة على السلام أطال أيضًا، ومن ذلك أنه أكثر من الرسائل الإخوانية، ويراد بها الرسائل التي تكون بين الناس، خاصة الأصدقاء في عتاب أو شوق أو شكر، أو تهنئة، أو تعزية، ... وما إلى ذلك. ومن ذلك أيضًا أنه طرق في كتاباته موضوعات جديدة، وعالج فيها معاني لم تعهد لكاتب قبله.

ولنرجع بعد ذلك إلى نماذج من الرسائل التي احتفظت بها كتب الأدب؛ لنقف عند بعضها من هذه النماذج ما كتبه معاوية إلى علي } يحاول أن يترضاه ويستميله ويأسف على ما حدث بينهما من حروب كتب يقول:

"أما بعد: فلو علمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت؛ لم يجنها بعضنا على بعض، وإنا وإن كنا قد غُلبنا على عقولنا؛ فقد بقي لنا منها ما نرُمّ به ما مضى، ونصلح ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمني لك طاعة؛ وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من القتال إلا ما أخاف، وقد والله رقّت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف وليس لبعضنا على بعض فضل يستذلّ به عزيز ويسترقّ به حر، والسلام".

فرد عليه علي بن أبي طالب بقوله:

"من علي بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فقد جاءني كتابك تذكر فيه أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت؛ لم يجنها بعضنا على بعض، وأنا وإياك نلتمس منها غايةً لم نبلغْها بعد، فأما طلبك مني الشام؛ فإني لم أكن أعطيك اليوم ما منعتك أمس، وأما استواؤنا في الخوف والرجاء؛ فلستَ بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام على الدنيا بأحرص من أهل العراق على الآخرة. وأما قولك: نحن بنو عبد مناف؛ فكذلك نحن، وليس أمية كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق

كالمهاجر، ولا المبطل كالمحق، وفي أيدينا فضل النبوة التي قتلنا بها العزيز وبعنا بها الحر، والسلام".

ومن نماذج رسائلهم أيضًا ما كتبه محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان يبايعه لما قُتل بن الزبير، كتب يقول:

"إني اعتزلتُ الأمة عند اختلافها فقعدتُ في البلد الحرام الذي مَن دخله كان آمنًا؛ لأحْرزَ ديني وأمنعَ دمي، وتركتُ الناسَ: ﴿ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٨٤] وقد رأيتُ الناسَ قد اجتمعوا عليك، ونحن عصابة من أمتنا لا نُفارق الجماعة، وقد بعثتُ إليك منّا رسولًا ليأخذ لنا منك ميثاقًا ونحن أحق بذلك منك. فإن أبيتَ فأرضُ اللّه واسعة، والعاقبة للمتقين".

فرد عبد الملك على محمد بن الحنفية بقوله:

"قد بلغني كتابُك بما سألتَه منِ المِيثاق لك وللعصابة التي معك؛ فلك عهد اللّه وميثاقه أن لا تُهاج في سلطاننا غائبًا ولا شاهدًا ولا أحد من أصحابك ما وَفّوْا ببيعتهم؛ فإن أحببتَ المُقام بالحجاز فأقم، فلن نَدع برك وصِلتك، وإن أحببتَ المُقام عندنا فاشخَص إلينا، فلن نَدع مواساتك. ولعمري لئن ألجأناك إلى الذهاب في الأرض خائفًا؛ لقد ظَلمناك وقَطعنا رَحِمك. فاخرُج إلى الحَجاج فبايع؛ فإنك أنت المحمود عندنا دينًا ورأيًا، وخيرٌ من ابن الزبير وأرضى وأتقى".

ومن رسائل هذا العهد أيضًا: رسالة الحجاج التي أرسل بها إلى قطري بن الفجاءة، يقول فيها:

"سلام عليك، أما بعد: فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثمت ذاك أنك عاص لله ولولاة أمره، غير أنك أعرابي جلف،

أُمي تستطعم الكسرة، وتستشفي بالتمرة، والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة، فلحق بك طعام، صلوا بما صليت من العيش؛ فهم يهزون الرماح، ويستنشئون الرياح، على خوف وجهد من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بنزحتين. والسلام".

وقد كان قطري بن الفجاءة هذا من زعماء الخوارج، والرسالة التي أرسلها إليه الحجاج فيها وعيد وتهديد، وقد استخدم بعض الألفاظ التي تحتاج إلى بيان. منها: "تجرثمت ذاك" يعني: أخذت هذا المنحى في الخروج على الدولة. وكلمة: "جلف" في قوله: "غير أنك أعرابي جلف" أي: جاف تستطعم الكسرة؛ أي: تسأل الناس أن يعطوك اللقمة. وتستشفي أي: تطلب الشفاء. والشبعة: ما يشبع من الطعام، وطعام الناس أراذلهم.

وقوله: "يستنشئون الرياح" أي: يتنسمونها كناية عن الجوع وقوله: "أهلكهم الله بنزحتين" يشير الحجاج إلى هزيمتين حلتا بالخوارج.

فأجابه قطري بقوله: "سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله، ويرهبون نقمه؛ فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع به أهل السفال - وأظلع من الظلع وهو العرج، والسفال أراذل الخلق، يريد به الحجاج ومن معه- وهدى به من الضلال ونصر به عند استخفافك بحقه"، أي: بحق الله.

ثم يقول: "كتبتَ إليّ تذكر أني أعرابي جلف أُمي استطعم الكسرة، وأستشفي بالتمرة، ولعمري يا ابن أم الحجاج، إنك لمتيم في جبلتك مطلخم في طريقتك - مُطْلَخم أي: متعجرف- ومتيم أي: مضلل- واه في وثيقتك -أي: ضعيف في ثقتك بنفسك- لا تعرف الله، ولا تجزع من خطيئتك، يئست واستيأست من ربك؛ فالشيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك؛ فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي صفحتك، وأوضح لي صلعتك، فوالذي نفس قطري بيده

لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال ؛ مع أني أرجو أن يدحض الله حجتك وأن يمنحني مهجتك".

وإذا كانت هذه الرسائل اتخذت من الخلاف السياسي موضوعًا لها ؛ فإنه في أواخر القرن الأول الهجري ، ظهرت كتابات تتخذ الوعظ اتجاهًا لها ، وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ، ويروى أنه لما ولي الخلافة أرسل إلى الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فدبج له رسالة طويلة استهلها بقوله :

"اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعي الشفيق على إبله الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحر والقَرّ -أي : البرد- والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده : يسعى لهم صغارًا ، ويعلمهم كبارًا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة ، البرة بولدها ، حملته كرهًا ، ووضعته كرهًا ، وربته طفلًا ، تسهر لسهره ، وتسكن لسكونه ، وترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح لعافيته ، وتغتم بشكايته".

ولم يكد العصر الأموي ينتهي حتى ظهر جيل من الكُتاب يُعنون بانتخاب الألفاظ الرشيقة ، وإحداث التوازن الموسيقي في الكلام ، مع دقة التعبير ، وحسن التصوير ، والبراعة في أداء المعنى المراد ، وأعانهم على تجويد الكتابة الثقافةُ الجديدة التي دخلت إلى الثقافة العربية من الثقافات الأخرى التي دخل أهلها في الإسلام.

وقد سبق أن ذكرت لك أن عبد الحميد بن يحيى الكاتب بلغ من ذلك كله شأوًا عظيمًا. ومن المناسب أن نختم كلامنا عن الكتابة بنموذج من رسائله ، كتب رسالة

إلى أهله يعزيهم فيها عن نفسه وما آل إليه حاله، وهو منهزم مع مروان، والدولة الأموية توشك شمسها أن تغرب، قال:

"أما بعد: فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، وجعل فيها أقسامًا مختلفة بين أهلها، فمن درت له بحلاوتها، وساعده الحظ فيها؛ سكن إليها، ورضي بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها، وتوطأته بثقلها، قلاها نافرًا عنها، وذمها ساخطًا عليها، وشكاها مستزيدًا منها، وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها، وأرضعتنا من درها أفاويق استحلبناها، ثم شمست منا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا مولية؛ فملح عذبها، وأمر حلوها، وخشن لينها؛ ففرقتنا عن الأوطان، وقطعتنا عن الإخوان؛ فدارنا نازحة وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثلما تقربت، وأعقبت بالراحة نصبًا، وبالجذل همًّا، وبالأمن خوفًا، وبالعز ذلًّا، وبالجدة حاجة، وبالسراء ضراء، وبالحياة موتى، لا ترحم من استرحمها سالكة بنا سبيل من لا أوبة له، منفيين عن الأولياء، مقطوعين عن الأحياء".

وهكذا تجد في هذه الرسالة تصويرًا لحال البؤس والشقاء، الذي حل بعبد الحميد وبولاته الأمويين الذين انهزموا وكادت شمس دولتهم أن تغرب، والألفاظ في هذه الرسالة منتخبة، وليس فيها تعور ولا غريب وحشي، وإنما تتسم بالسهولة والعذوبة، والمعاني كثيرة غزيرة مرتبة، ليس فيها غموض ولا خفاء، وإنما فيها وضوح وبيان، وهو يُعنى بالترادف في أسلوبه، ترادفًا ينتهي به إلى ازدواج واضح، يؤكد به المعاني بما يحمل من معادلات ومقابلات، تثبت المعنى في الذهن وتوضحه.

وبهذا نكون قد انتهينا من الكلام عن الخطابة بأنواعها، والكتابة وأطوارها، وقدمنا نماذج من هذه وتلك تدل على ما وصل إليه النثر في العصر الأموي.

قائمة المراجع العامة

١. (أدب الدعوة في عصر النبوة)

عبد الصبور مرزوق، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٨م

٢. (الأدب العربي قبل الإسلام)

نوري حمودي القيسي، بغداد، وزارة الثقافة، ١٩٨٦م

٣. (الإسلام والشعر)

سامي مكي العاني، بغداد، مكتبة النهضة، ١٩٦٤م

٤. (الأصول الفنية للشعر الجاهلي)

سعد إسماعيل شلبي، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٨٢م

٥. (تاريخ الشعر في العصر العباسي)

يوسف خليف، القاهرة، دار الثقافة، ١٩٨١م

٦. (التطور والتجديد في الشعر الأموي)

شوقي ضيف، دار المعارف، ١٩٨١م

٧. (حول الأدب الجاهلي وقضاياه)

شفيق أبو سعدة، القاهرة، مطبعة الجريسي، ٢٠٠٣م

٨. (الحياة والموت في الشعر الأموي)

محمد بن حسن الزير، دار أميَّة للنشر والتوزيع، ١٩٨٩م

٩. (خصائص الأدب الإسلامي)

أنور الجندي، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٠م

١٠. (دراسات في أدب الدعوة الإسلامية)

محمد حسن زيني، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٣هـ

١١. (دراسات في الأدب الجاهلي)

كمال لاشين، وحسن عبد السلام، القاهرة، مطبعة الجريسي، ٢٠٠٥م

١٢. (دواوين الشعراء الستة الجاهليين)

عبد المتعال الصعيدي، مكتبة القاهرة، ١٩٦٨م

١٣. (ديوان الأعشى)

أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل الأسدي اليمامي، دار صادر، ١٩٩٤م

١٤. (ديوان دريد بن الصمة)

دريد بن الصمة الجشمي البكري، تحقيق: عمر عبد الرسول، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥م

١٥. (شرح المعلقات السبع)

أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٧١م

١٦. (شرح لامية العرب)

أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: رجب إبراهيم الشحات، القاهرة، ١٩٨٢م

١٧. (الشعر الأموي بين الفن والسلطان)

عبد المجيد زراقط، دار الباحث للطباعة و النشر والتوزيع، ١٩٨٣م

١٨. (الشعر الجاهلي: مادته الفكرية وطبيعته الفنية)

محمد أبو الأنوار، مكتبة الشباب، ١٩٧٦م

١٩. (**شعر الفتوح الإسلامية**)

نعمان القاضي، دار الفكر العربي، ١٩٩٨م

٢٠. (**شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه**)

يحيى الجبوري، لبنان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨١م

٢١. (**الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**)

يوسف خليف، دار المعارف بمصر، ١٩٨٦م

٢٢. (**صوَر من البطولة في الشعر القديم**)

السعيد السيد عبادة، القاهرة، مطبعة الجريس، ١٩٩٨م

٢٣. (**العصبيَّة القبليَّة وأثرها في الشِّعر الأمويِّ**)

إحسان النَّصّ، دار اليقظة العربيَّة للتَّأليف والتَّرجمة و النَّشر، ١٩٦٣م

٢٤. (**العصر الإسلامي**)

شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف ١٩٨١م

٢٥. (**العصر الجاهلي**)

شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٦م

٢٦. (**الفرق الإسلامية في الشعر الأموي**)

نعمان القاضي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م

٢٧. (**الفرق الإسلامية في العصر الأموي**)

نعمان القاضي، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٠م

٢٨. (**في الأدب الإسلامي**)

حسن عبد الله ، دار القلم، ١٩٩٨م

٢٩. (**في الأدب الإسلامي والأموي**)

سليمان حسن ربيع ، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٦٤م

٣٠. (**في الشعر الإسلامي والأموي**)

عبد القادر القط ، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٩م

٣١. (**الكامل في اللغة والأدب**)

أبو العباس المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدَّالي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، ١٩٨٦م

٣٢. (**مختارات الشعر الجاهلي**)

شرح وترتيب عبد المتعال الصعيدي ، مكتبة القاهرة، ١٩٦٨م

٣٣. (**المفضليات**)

المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، ١٩٩٣م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2011